

مجلة تعنى بشؤون الفكر والثقافة والإبداع تصدرها رابطة الكتاب السوريين

رئيس التحرير: حسام الدين محمد

هيئة التحرير: فرج بيرقدار، خطيب بدلة ، أحمد عمر،

ابراهيم اليوسف، عبد الرحمن الحلاق، وائل السواح .

المراسلات: بإسم رئيس تحرير **مجلة أوراق** على العنوان التالي:

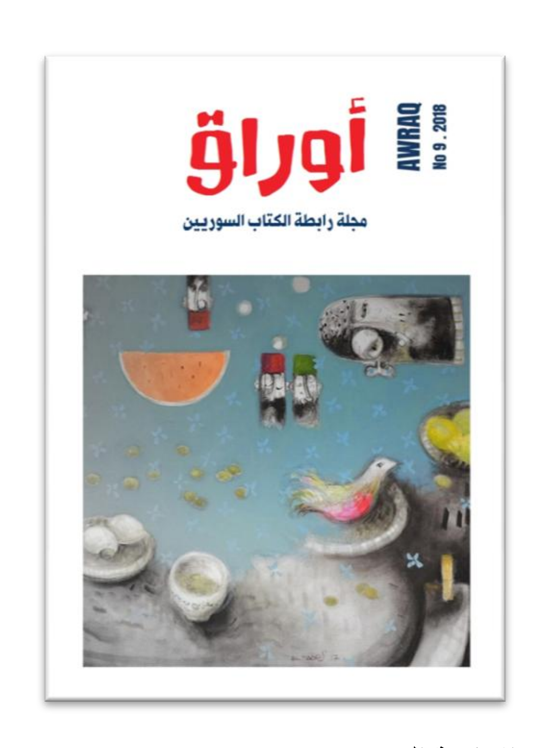
26 Middle Hill.

Englefield Green.

Surrey. TW20 0JQ. UK

هاتف: 00442087589223

- تصميم وإنتاج وتوزيع **Now Culture**
- لوحة الغلاف والرسوم للفنان **بطرس المعري**



خضع ترتيب المواضيع لإعتبارات إخراجية



أوديب السوري

حسام الدين محمد

هناك لوحة تشكيلية شهيرة تصوّر لقاء أسطوريا بين أوديب وأبو الهول بشكل يحفظ تلك المواجهة المميتة بين إنسان محكوم بقدر تراجيدي وكائن غامض يحمل قرار موته أو حياته على شكل لغز.

كان على أوديب أن يجيب بشكل صحيح على تلك المسألة وإلا فإنه سيموت، وسيموت معه كل سكان مدينة طيبة.

من المفيد حقا، في هذا السياق، أن نذكر أن طيبة كانت مدينة قدموس، البطل اليوناني الذي كان قبل ذلك أميرا فينيقيا من الساحل أبوه هو ملك مدينة صور، على ساحل "سوريا الكبرى".يثير التفكّر أيضاً أن نذكر أنه كان أخو الأميرة أوروبا التي سميت القارة الأوروبية باسمها.

من العدل أن نقترح، آخذين في الاعتبار هذا المزيج من الخلفيات الميثولوجية والتاريخية، أن أوديب كان حفيدا لمهاجرين سوريين، وإن كان ذلك في سياق تاريخي مختلف عن السياق الذي يحيط بالسوريين الذين يهربون من وطنهم إلى اليونان حاليا، ومنها إلى "أوروبا" وباقي بقاع العالم.بالنسبة لسوري، مثلي، فإن طريق العبور إلى بلدي كان، وظل دائما، مليئا بالألغاز المميتة والكلمات الخطرة.

ولعلّ أخطر هذه الكلمات، للأسف، هو اسم سوريا نفسه.

في سياق تبادلنا للأسماء والأبطال، كان اليونانيون أول من استخدم كلمة سوريا Suria بشكل يمكن تبديله مع مصطلح أشوريا Assuria باتجاهين.

قام الرومان بعد ذلك باعتماد المصطلح الصحيح (أو الخاطئ؟) للتفريق بين المصطلحين وأصبحت سوريا بالنسبة لهم ما كان العرب (الذين حرروا المنطقة من الرومان) يسمونه بلاد الشام وهي المنطقة بين آسيا الصغرى ومصر. يحمل المصطلحان، إضافة إلى أشياء أخرى كثيرة، سياقان تاريخيان وجغرافيان ودينيان.

هذان الاسمان/ المصطلحان سيكونان جرحا واسعا داخل المنظومة الواحدة التي أنتجت قدموس، أوروبا وأوديب

باعتبارها عالما متوسطيا واحدا ساعد في توسيع الطريق للحضارة البشرية.

أعطيت البلاد اسم سوريا مجددا خلال المرحلة الكولونيالية في القرن التاسع عشر وبعد أن كان الاسمان، القديم والجديد، مفتوحين على تأويلات تاريخية متواجهة فإن الاسم الجديد تم تبنيه بالتدريج من قبل السوريين وخصوصاً من قبل الأيديولوجيات القومية التي حاولت، بدورها، حل لغز ما هي سوريا ومن هم السوريون.

ليس مفاجئا أن نعلم أن واحدا من الأحزاب القومية التي تأسست في جبل لبنان سمت نفسها "الحزب القومي السوري"، وقام هذا الحزب، كما هو معلوم، بمحاولة انقلاب عسكري في ليلة انقلاب العام 1961 إلى 1962. تم سحق الانقلاب وتم شنق زعيمه، أنطون سعادة، وهو من طائفة الروم الأرثوذكس (المذهب الإغريقي للمسيحية)، لكن الحزب ما زال مستمرا حتى اليوم.

كانت سوريا تحت حكم العثمانيين لقرون، ولذلك كان المهاجرون الأوائل إلى العالم الجديد في الولايات المتحدة ودول أمريكا اللاتينية، يسمون أتراكا، وكما المهاجرون الفينيقيون الأوائل من أسلافهم، فإن المهاجرين الجدد نجحوا في الوصول إلى أعلى الهرم الاقتصادي والسياسي في الكثير من تلك البلدان. هذه الواقعة كانت سببا في تاريخ العالم القديم لتأسيس قرطاجة على الساحل التونسي، والذين خاض سكانها معارك كبيرة مع الإمبراطورية الرومانية.

بعد وقوعها في يد الفرنسيين والبريطانيين خلال الحرب العالمية الأولى وبعد سنوات قليلة من الحرب العالمية توقفت سوريا الطبيعية عن الوجود.

صار لهذه البلاد العتيقة سؤال مميت مؤلف من اسمين: سايكس وبيكو (والحقيقة أنه كان يضم ثالثا هو وزير خارجية روسيا سيرغي سازونوف لكن الثورة الروسية غيّرت ذاكرة تلك المعادلة الثلاثية)، وهما مسؤولان فرنسي وإنكليزي وقعا اتفاقية آسيا الصغرى عام 1916، والتي تم إعلانها للعموم عبر صحيفتي "إزفستيا" و"برافدا" السوفيتيتين، ثم في "الغارديان" بعد ثلاثة أيام.

أبو الهول الكولونيالي، فاز في المسابقة، وهزم أوديب السوري. وسوريا، أصبحت، مثل لغز أبو الهول القديم، كائنا يمشي على أربع: الجمهورية السورية، لبنان، المملكة الأردنية الهاشمية، و... دولة فلسطين تحت الانتداب الإنكليزي التي خرجت من الوجود مع "النكبة" التي أنتجت دولة إسرائيل عام 1948، وأنتجت أيضاً انحناء جديدا في المعضلة السورية.

هذه المسائل داخل مسائل بذرت بذور سيناريو القيامة الذي نشهده في المنطقة الآن .

أصبح خلق هذه الدول أحد أسباب لعدد من الحروب الأهلية وحروب الخارج/الداخل،

وسببا في التأزم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري، مع مخارج تراجيدية هائلة في الإقليم نفسه وفي العالم أجمع.

* في سوريا الخارجة من بوتقة الحداد حديثا، قسم الفرنسيون ذلك البلد الجديد إلى خمس دول على أسس إثنية وطائفية، وهكذا حصلنا مجددا على مخلوق بخمسة أرجل. نجح السوريون في إعادة توحيد البلاد لكنهم كانوا مجروحين من انفصال سوريا والأردن وجبل لبنان ، وكذلك بالنكبة الفلسطينية المروعة.

هذا الانفصال جعل أغلب السوريين، متعاطفين بقوة مع الدعاية القومية والانقلابات العسكرية التي استمرت بالتوالد منذ 1946، عام الاستقلال، حتى عام 1963 حين قامت مجموعة عسكرية بانقلاب جديد تحت شعارات الاشتراكية وتوحيد الأمة العربية، لكنها، في الحقيقة، كانت مقدمة لحكم طغياني لشخص وعائلة سمّت سوريا باسمها (سوريا الأسد).

- تساهم استعارة أوديب مطبقة على الوضع السوري في عدد من الاستنتاجات تبدو واضحة لكن استعادتها مهمة:

- الإنسانية هي شجرتنا المشتركة التي جئنا كلنا منها لكن الجميع يفضل الاختباء خلف الاختلافات.

- تحولت المعضلة السورية إلى معضلة عالمية. صار السوريون أنفسهم مجازا للجنس البشري. جميعنا، في الحقيقة، نعبر حدودا واقعية، أو خيالية، مخيفة، وكلنا، بشكل أو آخر، في قوارب نحاول الوصول إلى مكان ما، والكثير منا سيموتون قبل أن ينهوا الرحلة.

- يفترض أن الحضارة كانت مفتوحة الأبواب والحدود، وأحضر المهاجرون الأوائل، معهم، الأبجدية، التجارة وأشكالا من المعرفة؛ لقد عوملوا كأبطال وصاروا ملوكا لشعوب أخرى، وقارة بأكملها سميت باسم واحدة من أولئك المهاجرين.

- موجة كبيرة من المهاجرين الذين فرضوا سيطرتهم بالقوة، تحت اسم الكولونيالية، وضعوا بذور مرحلة جديدة من الحضارة ولكنهم وضعوا أيضاً بذورا للنزاعات السياسية، واليأس والتدمير.

- يواجه العالم حاليا معضلة كبيرة. بعضنا يجيب عليها بأن يصبحوا كارهين للأجانب والمهاجرين وعنصريين، وبعضنا يبني أسوارا عالية لمنع الآخرين من المجيء، والبعض يقوم حتى بتدمير إمكانية الحياة ليس للمهاجرين فحسب بل للجنس البشري أيضا.

- مجددا، إما أن نجيب على اللغز بشكل صحيح، أو أن الأرض نفسها، معرضة للزوال

منفى المسرات والحسرات

اعتبرت حركة السوريين والسوريات لجوءا ونزوحا خلال السنوات الأخيرة أكبر انتقال بشري في التاريخ الحديث.

لم يكن عموم السوريين، خلال عقود سيطرة الدولة الأسدية، يعرفون السفر إلى الخارج، فهو كان ترفاً خاصاً بأفراد طبقات معينة "مصطفاة".

كان السوري العادي مشغولا بلقمة عيشه وكان جواز السفر، والخروج من سوريا، جائزة.

وجد السوري نفسه فجأة مبعثرا ومشتتا يسافر حافيا أو سابحا أو طائراً أو غواصاً، وصارت للجوئه حكايات غريبة وإبداعات مبتكرة وتنكرات معبّرة: من الأزواج بملابس العرس إلى الهيبيين والمثليين ورجال دين من كل الملل، في أشكال تحاول تمثل أهواء المكان الجديد وانحيازاته. وصل بعضهم إلى سيبيريا والأسكيمو

وجزر

في أقصى المحيطات في سياحة إجبارية خسروا خلالها حياة أقرباء أحبة وبيوتا وأرزاقا، بعد أن خسروا، من زمن طويل، معنى الوطن والحياة الكريمة والكرامة.

صارت للسوري قصة مع كل مدينة يدخلها، واختلطت مشاهد الهروب من العنف بألوان الفتنة المشرعة، ونوستالجيا الألم الكالح بآفاق الغواية الملونة.

تطلق متزوجون وتزوج عشاق وتداخلت جينات الأمم اللاجئة بالملتجأ إليها. صار المنفى ذكرا أو أنثى. صار لغة وحضارة جديدتين. امتزج طعم الحرية بآفاق الحداثة وتعرف الناجون من الموت على جماليات الحداثة وحسن الإدارة، ولمع السوري (والسورية) في شأن غير الاستشهاد فرأيناه يخترع ويبتكر على ما به من قروح، ويتفوق في الدرس والبحث، ويطبخ، ويعيد الأمانة وهو فقير.

يحاول ملف "أوراق" هذا مقاربة امتحان السوري الجديد هذا المسمى "منفى" عبر قنوات متعددة يختارها الكاتب: بحوثاً ودراسات أو سرديات إبداعية أو أعمال تشكيلية وتصويرية تحاول التقاط عناصر هذه التجربة الخاصة.

هيئة التحرير

تمرين الحنين

حازم صاغية



حين كنت أقيم في بريطانيا كنت كثيراً ما ألتقي شبّاناً من بلدان عربيّة غادروا بلدهم لاجئين: لبنانيّين وسودانيّين فرّوا من حروبهم الأهليّة، وعراقيّين وليبيّين فرّوا من استبداد أنظمتهم.

كانت أكثريّة هؤلاء تتحدّث بأصوات عدّة: صوت الحنين إلى البلد المتروك، والأهل والأصدقاء فيه، مصحوباً بالألم الذي رافق المغادرة، وصوت الصعوبة في التكيّف مع البلد الجديد لغةً أو سكناً أو في طرق تدبير الحياة اليوميّة، وكذلك صوت الأمل في تذليل هذه الصعوبة.

وهي أصوات من الطبيعيّ أن تعلو وأن تُسمع. غالبها صادق وأسبابها مفهومة والهموم التي تعكسها جدّيّة. مع هذا، كان ثمّة صوتٌ آخر لا يُستهان به يتخلّل تلك الأصوات، هو ذمّ العالم ورذل البلد الذي يُنتَقل إليه. هنا، كان الحنين يتحوّل إلى واحد من اثنين: إمّا مرض يتأدّى عنه الانكفاء وإمّا وظيفة يتأدّى عنها الاستعراض، وفي الحالين يترتّب الكثير من العطالة كما ينمو الكثير من الهذاء. بعد ذاك ترتدّ النتيجة ارتداداً سلبيّاً على سببها، فلا ينشأ عن ذلك سوى تسخيف الحنين نفسه وترخيصه.

ومع السوريّين الذين أصابتهم محنتهم باللجوء الكثيف، قد تُضرب النتائج تلك، الإيجابيّ منها والسلبيّ، بألف. وهذا نابع أساساً من ضخامة العدد. بيد أنّ المعادلة العامّة لا تتغيّر كثيراً: فهم، من حيث هم، يمكنهم أن يُغنوا أنفسهم كما يمكنهم أن يُفقروها. فإذا اختاروا الخيار الأوّل أضافوا إلى سوريّا تجارب وألواناً يحتاجها البلد الأصليّ وتحتاجها منطقتنا كلّها. وإن اختاروه لكنّهم آثروا البقاء حيث هم، أغنوا أمكنتهم الجديدة ودفعوا حرّيّتهم في الخيار إلى مدى بعيد، هو الحقّ في اختيار الوطن.

أمّا الذين يختارون إفقار أنفسهم، ففضلاً عن إضرارهم بها يُضرّون بالبلدين: الذي غادروه والذي قصدوه.

ودائماً يبقى السؤال الحارّ والحارق: كيف نحوّل الحنين والألم إلى طاقة فاعلة تُثري صاحبها وكلّ من يحتكّ بها، وتنمّ عن إدراك منّا بأنّ العالم لم ينشأ لحظة لجوئنا، وليس نسخة عنّا. إنّه كثير لكنّه قابل دوماً للتكثير ولاستقبال إضافتنا إليه التي تجعله أكرم وأجمل.

عن الحب والقبائل في نظام عالمي جديد

إلدين سولجيتش



زرت قبل فترة جزءا من العالم الذي كنت أسميه بتصرّف "بلادي". تلك البلاد التي كانت واحدة أصبحت الآن سبعة.

إذا بدا هذا مثل لغز – فهو كذلك.

أستخدم الكلمة "بتصرف" بشكل ارتجاعي لأن بعض الناس مثلي؛ مخطئين كانوا أم مصيبين، كانوا يعتبرون ذلك الجزء من العالم بلادهم. في حين، بالنسبة لأشخاص آخرين من الجزء نفسه من ذلك العالم، لم تكن تلك بلادهم بشكل كامل. ربما كانوا يصادقون على جزء منها فقط باعتباره بلادهم الحقيقية أو المتمناة.

إذن، حين أذهب إلى هناك الآن فإنني أمشي بحذر. بعد كل شيء ربما، لا يمكنك

أن تسمي بعض الأجزاء من العالم بلدك لأنه قيل لك مرة أنها لك، أو فقط لأنك تجولت في جبالها، أو سبحت في بحارها، أو عبرت مساحات واسعة منها في قطار الليل. لا يمكنك أيضا أن تدعي ملكيتك لمدن تلك البلاد التي همست فيها بأول كلمات الحب.

لكن، ظاهريا، قيل لي، إنني يمكن أن أدعي ملكيتي لمدينة قمت بالسيطرة عليها بالنار والدمار؛ أيّ مدينة كانت.

وأتساءل إن كان المرء يستطيع فقط أن يزعم أن قطعة صغيرة من الأرض يقف عليها هي بلاده، في الوقت الذي تتهاوى الأجزاء الأخرى من تلك الأرض وتتجه بعيدا.

هناك، في ذلك الجزء من العالم الذي زرته في وقت مضى، شاهدت غابات، جبالا، سماء زرقاء وبحيرة. كل هذه الأشياء كانت قديمة وتبدو في موقعها الصحيح، في سلام مع نفسها وكل شيء آخر. هناك كنت، في تلك البلاد، التي قيل لساكنيها قبل أن يحبوا بعضهم البعض لسبب ما. رغم ذلك، أولئك الناس يعرفون من تجربة طيلة أن إنتاج ذلك الحب أكثر صعوبة من إنتاج الكراهية.

يحتاج الحب من الإنسان أن يتواجد مع آخرين. لا يمكن للحب أن يتواجد حين يكون المرء وحيدا. يحتاج الحب احتراما متبادلا ومساواة. يحتاج أن يدعم القويّ الضعيف والأكثر صحة المرضى. هذا النوع من الحب يتواجد عادة ضمن العائلة ويتوسع نحو القبيلة؛ حيث أن الروابط تتكون بسبب الضرورة والقرابة. رغم ذلك، فإن حبا من هذا القبيل له ثمنه والتضحيات مطلوبة دائما مقابل هذا الحب.

لكن هنا، سكان تلك البلاد سئلوا أن يوسعوا حبهم خارج قبائلهم. لكن تلك القبائل تحمل انقساماتها وتتمسك بالجروح التي حصلت من مظالم الماضي. ممارسة الحب هو العمل الأعلى بين واجبات أن تكون إنسانا. رغم ذلك، حتى تعاليمنا الدينية والروحية تجد غالبا طريقا لتبرير "عدم الحب".

لهذا، وبشكل لا يمكن الهروب منه، تنتصر الكراهية وتتزايد النزاعات في بلادي. من تلك النزاعات، يجتمع الرابحون والخاسرون – كل واحد في عالم لوحده.

كلهم يعميهم رفض رؤية نتائج أفعالهم؛ بقلوبهم المليئة بتجاهل آلام الآخرين.

لكن الكراهية، بتعريفها، ليست سببا جيدا كفاية لتتواجد. حالما يتم الانتصار على العدو لا يعود هناك أحد باق لتكره ولا مناص حينها من اتجاه الرابحين والخاسرين نحو بعضهم البعض بنوع من عرض الحب. حب ببطاقة سعر.

هناك، في ذلك المكان من العالم، الذي كان يوما بلدي، التقيت بالكثيرين من التجار المحترفين من كل الأنواع: البارعون في السيطرة على الآخرين، أصحاب المهمات، المرتزقة، المغامرون، مجربو الحظوظ، والخارجون من كل أنواع المثاليات الموسمية؛ كل هؤلاء يسوقون لحب خارجي.

في عالم أعمى، ثنائي الحب والكره، الجيد والسيء، يتم صنع عالم خيالي للجيد، عبر كل أنواع من الأفعال السيئة.

كل تلك البلاغة تنتمي بدورها إلى قبيلة أخرى. قبيلة أقوى من القبائل المحلية. في الحقيقة، تلك القبيلة هي الأقوى منهم جميعا. مسلحون بالميثولوجيات والأساطير الحديثة، يقومون بالسيطرة على أجزاء من التاريخ، العلم والتطور؛ زاعمون أنهم "سيجعلون العالم أفضل". "في النهاية"، يقولون، "أنظر كم هو

جيد الآن، بالنسبة للإنسانية الحديثة، أين وصلنا. لم يكن العالم أحسن من ذلك من قبل". بالنسبة للبعض، هو بالتأكيد أحسن. بالنسبة لقلة، هو أفضل بكثير. وأولئك القلة يسعون لإدامة الأشياء كما هي عليه.

لكن بالعودة إلى بلادي تلك، كما بعد كل نزاع، بالنسبة للبعض الأمور أحسن. الرابحون، كالعادة، يدعون أن ربحهم عائد لقوتهم الأكبر واتحادهم؛ القتال كان لأجل قضية عادلة. لم يتم التفكير في الانتصار باعتباره شيئا خسره آخرون. والخاسرون يتركون لعد خسائرهم – وللدفاع عن أنفسهم.

هذا هو الحيز الذي تقوم بطانة من الزائرين بالانتقال إليه. يفتش الأقوى دائما عن متطوعين جدد لزيادة قوتهم أكثر. كما يفعل المتوحش لاستعباد الآخرين لزيادة ثروته.

بعد ذلك يجيء خدمة الله الذين يبحثون عن أرواح جريحة؛ ليقوموا بشفائها. في ذلك الجزء من العالم، الذي كان يوما بلادي، خدام الله أولئك كانوا حاضرين دائما. Domini Cani – كلاب الله. أولئك الذين إضافة إلى بناء المعابد، حين يحتاج الأمر، يقومون بإعادة تركيب روح الإنسان مقابل أجر.

لو أ، الأكثر قوة والرابحون هم الذين يحددون بوصلة الأخلاق، ما الذي إذن يبقى للمهزومين والخاسرين؟

إذا كان شعار حزبي، أو رسالة من التعاليم الدينية هما كل ما يحتاجه المرء لحياة جيدة، فهل هناك مكان للشكاكين والمنشقين؟

ماذا يفعل الضعيف حين تأتي المساعدة على شكل مكان للعبادة؟ وحين تنتشر فكرة أن المساعدة مرتبطة بالتقى؛ والالتزام بقبيلة قديمة – جديدة هو طريق التقدم، حتى لو كان ذلك هو انفصال أعمق بين الرابحين والخاسرين؟

كل تلة عالية في المنطقة حول المدينة التي ولدت فيها هي اليوم محتلة بجامع جديد أو كنيسة. بعد كل شيء، ألم نولد لتكون لنا فائدة ما؟ ولكن، لصالح من؟

وعلى ما يبدو، فإن الطريق لحياة جيدة بسرعة أصبح أمرا واضحا. كلنا نؤمن بالأشياء نفسها وكل شيء سيكون جيدا. أليس كذلك؟

باستثناء، أن العالم اليوم، على ما يظهر، يعمل حسب المبادئ الديمقراطية. نختار ممثلينا وممثلونا سيحملون أهم مصالحنا في قلوبهم. باستثناء، أنه أحزاب القبائل الجديدة – القديمة تشكلت باعتبارها أحزابا قومية. ضع الفقير والغني في ذلك المزيج وستجد بسرعة أن الانخراط في السياسة وإبقاء النزاعات القومية حية هو الطريق الأكيد لبقائك في عملك.

وأين في كل هذا حيز الإبداع؛ والفنانون المضطرون للإجابة على الأسئلة؟

في مسقط رأسي، العمدة هو كاتب لديه كتب منشورة. إضافة إلى مهامه العديدة، يشارك في إدارة مهرجان أدبي سنوي حيث يتم الاحتفال بأفضل كتاب الإقليم. هذا إقليم الذي كان حقلا للقبائل المتحاربة، التي تتكلم ظلالا من اللغة نفسها.

بالنظر لكل ذلك، فإنه شيء عظيم أن يدير كاتب مدينة؛ ولكن على الجانب الآخر من

المسألة، فإن كل الإقليم يتداعى اقتصاديا وينحط ثقافيا.

مثل كل مكان آخر، تلفزيون الواقع والنجوم الجدد يشكلون مركز الوحي للجيل الشاب. تلفزيون الواقع والنجوم الصغار هم أدوات قوية في أيدي البطانات التي ذكرناها.

في الوقت نفسه يحتاج السياسيون القوميون نخبة ثقافية حولهم. المفارقة أن أوضاع بعض الفنانين الناجحين هي أفضل من أي وقت مضى. مهرجانات السينما تفتتح دوريا، والمشاهير من كل نوع يظهرون في تلك المهرجانات. غير أن الفن كقوة اجتماعية كبيرة في تراجع، حيث تناضل صالات الفن التشكيلي والمسارح للبقاء.

هل يبدو هذا اعتياديا؟ أليست هذه طريقة تصرف المجتمعات الحديثة القوية؟ أم أن ذلك هو امتياز للمجتمعات المنتصرة؟

المجتمعات القوية، في الآن نفسه، المجتمعات التي حصلت على قوتها عبر التوحش، تستطيع التمتع بـ"حرية التعبير"، التفكير النقدي، الفن الاستفزازي، وكذلك التجريب مع أشكال جديدة من الاجتماع، تلك "الحاجة لتجريبها قبلا في مكان آخر".

ماذا إذن بالنسبة للمجتمعات الضعيفة، المكسّرة مثل تلك التي انبثقت مما كان بلادي؟

قدم الفن دائما ما لم تستطع الأديان المؤسساتية والسياسة تقديمه – الإلهام والصدق، لكن الفن لم يكن قادرا للبقاء حيا بقواه الذاتية فحسب.

إذن، حرية التعبير، الرقابة، والفن الاستفزازي، كلها أجزاء من الوسائل التي تجد المجتمعات قوتها بها؛ مكتشفة طريقا للوجود في عالم يقوم فيه القوي بسحق الضعيف كشكل من أشكال حفظ النوع.

ماذا تفعل إذن حين تتم "بلقنة" بلاد كبيرة قادرة على الاستمرار؟

يمكنك أن تحصل على واحدة أخرى، أصغر، وما تزال بلدا قويا، ولكنك ستحصل أيضاً على عدة بلدان ضعيفة وستكون مناطق خصبة للبطانات العالمية، ولجيش الباحثين عن الحظ، وكلاب الله.

وهكذا، يستمر الأقوياء والمنتصرون باستخدام بوصلتهم الأخلاقية للحصول على عملية تجنيد. الحب المزيف المستورد يبذر بذور الكراهية.

أتساءل أحيانا إن كان سكان تلك الأرض التي كانت بلادي فيما مضى سيستطيعون في يوم ما أن يعيشوا معا مجددا كما كانوا في تلك الأمة الميثولوجية الأسطورية.

حيثما أنظر إلى تلك الغابات، الجبال والبحيرات، أفكر أن ذلك ممكن. أناس جيدون ينبعون من تلك الأرض. الحب هو الدواء الذي يلي الكراهية. لكنني أتساءل أيضا إن كان ذلك الحب الذي ذكرناه هو حقاً امتياز لعائلة واحدة، أو لقبيلة واحدة. الأقوى. (ترجمة: ح. م)

لا فردوس مفقوداً لدى الكاتب السوري

راجي بطحيش



عندما أطلقت في شهر آب من عام 2014 موقع "أنبوب" للكتابة الراديكالية، كان ذلك في عز جهنم حقيقية حيث الحر والحرب على غزة والمجازر اليومية والشعور بتفتت كل شيء وسط هذه النار الحقيقية والاستعارية، حيث اقتنعت وقتها أو كنت مقتنعا أصلا أن التفكيك وشد الحدود وانتهاك اللغة في النصوص الأدبية التجريبية في زمن العبث والحروب والقهر والخسارة بحاجة لإطار يبرزه، يتوجه ويضعه في مركزه متجاوزا الضوابط الأخلاقية والأدبية التي قد تواجه النصوص، وحينها توقعت أن يكون معظم كتاب الموقع ممن بدأوا معي قبلها في الكتابات الجنسانية في موقع "قديتا.نت" وبالأساس من المصريين والفلسطينيين، ولكني تفاجأت خلال أشهر أن الموقع تحول إلى بيت للنصوص السورية القادمة من دمشق المحاصرة ومن المنافي السورية التي كانت تتشكل بتسارع، فصرت وعلى مدار ثلاث سنوات وأكثر أحرر وأعيش داخل نصوص قادمة من الدياسبورا السورية الجديدة، تلك البعيدة كل البعد عما عهدناه في سنوات الثمانينات من هجرة ثقافية إلى أوروبا من بلاد الشام تتسم بنوع ما من الراحة والرفاهية النسبية، نصوص من أرصفة العواصم الأوروبية ومدنها الهامشية ونصوص من المخيمات ومحطات القطارات والهوامش عامة.

خلال ثلاث سنوات من التعامل مع نصوص المنفى السورية وأحيانا العراقية كان لا بد لي كفلسطيني أن أقارن بينها وبين أدب المنفى الفلسطيني السرمدي سواء داخل الوطن /المنفى أو خارج حدوده.

تتميز الحالة الكتابية السورية الشابة في هامش المنفى بملامح ما بعد حداثية بامتياز كونها تفتت جسم المعرفة للنص الحداثي كتتمة طبيعية وتلقائية على تفتت جسم المعرفة للدولة الوطنية العربية وفي هذه الحالة الدولة البعثية في سوريا والعراق حيث يحتمي القمع والعنف المبطن ومن بعدها المباشر ببلاغة اللغة العربية وجسدها المنضبط لدرجة النفي المعنوي لما هو غيرها.

يختلف الكاتب السوري الشاب عن مثيله الفلسطيني أو اللبناني أو المغاربي على سبيل المثال بكونه جاء أو نشأ في بلد لا تزاحم العربية فيه بحق لغات أخرى، لذا تبدو اللغة العربية المصبوبة بالنص تداعيا لنفسها وليس للغات أخرى ما يبرز بوضوح في كتابات المنفى حيث يُكتب المنفى بعربية خالصة دون وسيط ما بعد استعماري آخر أو دخيل لغوي آني عنيف كما هو الحال بالنسبة للعبرية للكاتب الفلسطيني من الداخل، أما بالنسبة للمنفى

ذاته بالنسبة للكاتب السوري فهو ككل منفى عبارة عن مقاطع غير مترابطة من الحاضر والوطن والذكريات وصور لا علاقة لها بأي شيء وحالة من عدم التصديق لمادية المنفى وحقيقة وجوده أصلا، هي حالة من التحليق في فضاء صامت مفرغ. تتكرر في نصوص المنفى السورية الشابة ثيمة الرجولة المهزومة الواضحة، حيث يفترض في عالم ذكوري أفضل أن يكون الكاتب او الشاعر الأربعيني في قمة تحققه ومساهمته في بناء وإطالة عمر دولته الوطنية القائمة على احتكار الرجال ولكنه بدلا من ذلك يجد نفسه في منتصف حياته الافتراضية يبدأ من جديد ويضطر أن يجلس على مقاعد الدراسة ليتعلم لغة بلد اللجوء كشرط للعيش فيها وذلك لدى "آنسة" قد تكون شريرة تصغره بعشرين عاما، وهي وفق إسقاطاته سفيرة منظومة استيعاب اللجوء الرأسمالية، مع تدافع النصوص والشهور تتحول مغامرة منتصف العمر هذه لدى معظم الكتاب من تجربة انهيار للدولة الرجولية/ الوطنية التي تحولت لكابوس نازف إلى حالة من ولادة الفرد والفردانية من بين الأنقاض محاولا البقاء على قيد الحياة عبر البقاء على قيد النص الذي يكتبه المكان الجديد وذلك المكان الآخذ بالابتعاد يوما بعد يوم. تعلم الكاتب الفلسطيني عبر سنوات الشتات الداخلي والخارجي الطويلة أن الوطن هو نقيض الدولة وأن الدولة (أي دولة)هي قوة إحلالية في الوطن فيما يعتبر الإسرائيلي مثلا وخاصة ممن ولدوا بعد إنشاء الدولة بأن الدولة والوطن متطابقان وبالتالي فإذا ذهبت الدولة سينهار معها الوطن والبيت وشرط الوجود على الأرض، بناء على ذلك لا زال مفهوم "الفردوس المفقود" يطغى على الكتابات الفلسطينية وحتى أكثرها عبثية وتجريدا حيث ثمة مكان ما ينطلق منه النص ولا بد أن يعود إليه وبشتى الطرق والتقنيات الأدبية والفنية، فحتى الكاتب الفلسطيني الذي يعيش داخل "الدولة" أو ما يسمى إسرائيل يعيش في نصوصه تلك المسافة الميلانخولية بين الوطن والدولة التي سرقت الوطن، أي أنه يعيش في الوطن وضياعه المتمثل باللافتات ورموز السلطة في آن وذلك ما يبقيه على قيد الحياة أو النص... ذلك التجوال بين الوطن وسرقته وبين الدولة ونصها السفلي الخفي، وهو بذلك يتحول بشكل متواتر ومتذبذب من ذلك الكائن الذي يمثل جماعة مهزومة وسوداوية تنقب تحت كل متر مربع عن حيوات قديمة كانت تعيش بتناغم وهناء مفجع في الفردوس المفقود وبين كائن يريد مع كل ذلك أن ينجح ويحقق فردانيته وهويته المنتجة والاستهلاكية في المدينة الإسرائيلية التنويرية والتعددية، ولكن لا الفردوس المفقود كان على الأرجح فردوسا بمعناه الحرفي ولا المدينة الإسرائيلية بالتأكيد نموذجا للتنوير والتعددية.

وضمن هذا السياق يغيب الفردوس المفقود تماما عن نصوص المنفى السورية بشكل ملفت ومثير للغاية، فبينما يحن الفلسطيني إلى المجهول وإلى ما لم يره أو يتذوقه أبدا، لا يحن السوري الذي يمضي الوقت في بلدات نائية بعيدة عن العواصم المشتهاة بحكم قوانين اللجوء، إلى دمشق أو حلب أو حمص قبل 2011، قد يكون الوقت لا زال مبكرا

سوريا والعراق... وطنان ومنفيان

فاضل السلطاني



كتبت مرة أن الثورة السورية هي من أعظم الثورات في عصرنا الحديث. وهاج من هاج. لكني ما ازال مؤمناً بذلك. إنها من أعظم الثورات قياساً بحجم القمع الرهيب، المتأصل على امتداد نصف قرن في بلد لا تطير فيه ذبابة في الفضاء من غير أن ترصدها أجهزة المخابرات. ومع ذلك، خرجت تلك الجموع لترقص في الشوارع والساحات غير عابئة بالرصاص الذي يتساقط فوق رؤوسها من أسطح المنازل.

لا أنسى في حياتي ذلك الشاب الذي هرب مع غيره تحت انهمار الرصاص، لكنه عاد مسرعا لسحب شاب قتلته بندقية صوبت من أحد السطوح باتجاه رأسه، ليتمدد إلى جانبه... قتيلا.

هي من أعظم الثورات، لكنها أيضاً من أكثر الثورات حزنا في العصر الحديث. كم كانت وحيدة! قتلتها الوحدة، لا الميليشيات الإيرانية والعراقية، ولا "حزب الله"، ولا "داعش"، ولا أمراؤها الحربيون. قتلها صمتنا نحن، وقتلها صمت العالم الذي ينام ضميره مطمئنا كلما حدثت مذبحة هنا وهناك... كم كان السوريون وحيدين! كم هم ما يزالون وحيدين!

لا يوجد أشد فتكا من الصمت. لا المنفى، ولا حتى الموت نفسه، أشد مضاضة من الشعور بالوحدة وسط عالم لاه عن حياتك ووجودك وموتك.

وحشة رهيبة أن تكون وحيدا أمام الموت... أن تكون وحيداً في المنفى. جرب العراقيون ذلك من قبل. كم كنا وحيدين أمام صدام حسين، أمام العالم! كم هم السوريون وحيدين الآن أمام بشار الأسد، أمام العالم!

مرة أخرى، الثورة السورية هي من أعظم الثورات، ولكن قتلها الإخوة!

هي من أعظم الثورات، لكن قتلها سوء الفهم.

وجاء المنفى الفاغر فاه يلتهم الملايين، لتكتمل كل عناصر التراجيديا بمعناها الكلاسيكي، كما اكتملت عناصر التراجيديا العراقية من قبل... هل اكتملت؟

والسؤال الآن: هل ارتفع الأدب والفن السوريان إلى مستوى هذه التراجيديا، أم بعد؟ وقبل ذلك، هل ارتفع الأدب والفن العراقيان إلى مستوى هذه التراجيديا، أم بعد؟ التساؤل مشروع، فالحالتان العراقية والسورية تستدعي إحداهما الأخرى وتذكر بها. فسوريا والعراق مستنزفان منذ منتصف القرن الماضي. استنزفتهما، على خلاف البلدان العربية الأخرى التي عرفت فترات استقرار طويلة على المستوى الاجتماعي على الرغم من الهزات المتوالية، الانقلابات العسكرية الدموية المتكررة، والقمع الداخلي والإبادة الشاملة.

ما إن يهدأ هذان البلدان عقدا من الزمان، وإن متعثراً، حتى يعصف بهما، عقد تال من الدم والخراب... كأنما يراد لهذين البلدين ألا يهدآ... ألا يكونا بلدين طبيعيين.

ما إن حدث انقلاب عراقي في الثامن من فبراير (شباط) من 63 قتل فيه في الأقل

50 ألف إنسان في غضون أيام، وسجن وعذب ونفي آلاف آخرون؛ من العالم الفيزيائي الشهير عبد الجبار عبد الله، إلى الشاعر محمد مهدي الجواهري، وبينهما المئات من المثقفين؛ شعراء وكتابا ورسامين ومعمارين، حتى حدث انقلاب سوري في الثامن من مارس (آذار)، أي بعد شهر واحد فقط. وكلاهما على يد واحدة: حزب البعث العربي الاشتراكي. هي مدرسة القمع والقتل ذاتها.

ولو عددنا كل الكوارث التي مرت بهذين البلدين في التاريخ، لما عادلت الخراب المادي والاجتماعي والثقافي والأخلاقي الذي أحدثه هذا الحزب الذي تشكل على يد ميشال عفلق وصلاح البيطار في دمشق عام 1947 متأثرا أساسًا بالمنطلقات الفكرية لحزب هتلر النازي في تبنيه للفكر الشمولي الذي أراد من المجتمع كله أن يؤمن به بالقوة تحت شعارات هائمة، مثل الوحدة والحرية والاشتراكية، التي هو أول من أساء إليها.

الفرع العراقي لهذا الحزب، أفرغ العراق مرة أخرى في نهاية سبعينيات القرن الماضي، حين جاء بانقلاب آخر، من خيرة علمائه ومعمارييه ومثقفيه وكتابه، لتبدأ واحدة من أكبر التراجيديات الثقافية في القرن العشرين، بعد التراجيديا الثقافية الألمانية على يد هتلر. ولم ننتظر طويلا حتى حصلت التراجيديا الثقافية السورية على يد الحزب نفسه، ولا تزال مستمرة لحد الآن. مئات المثقفين السوريين موزعون الآن بين المنافي، ومئات أخرى تحت الأرض في الوطن المنكوب تحت أنظار العالم المتواطئ، بشكل من الأشكال، عربيا وعالميا، كما تواطأ من قبل في أمكنة كثيرة، لتكون أكبر تراجيديا ثقافية في هذا القرن لحد الآن.

هذه التراجيديات الإغريقية بكل معنى الكلمة قد لا يمكن استيعابها وهضمها حسيا وذهنيا في فترة قصيرة لتتحول إلى أعمال أدبية تقترب من فجاعتها. إنها تحتاج إلى زمن طويل، وإلى استقرار شخصي واجتماعي يتيح التأمل في طبيعتها وأسبابها، ومساراتها ومآلاتها، وانعكاساتها المدمرة على الشخصية الإنسانية. فالإبداع تتحكم به قوانينه الخاصة، ويتطلب شروطا معينة، وأولها الشرط الذاتي الخاص بالمبدع ذاته، ليستطيع أن يقدم لنا عملا مستوفيا شروط الإبداع الفني، يكشف فيه عما حصل، وكيف ولماذا حصل، وأين انحرف التاريخ، عبر رؤية شاملة تتجاوز الحدث، من دون أن تفقده واقعيته المهولة.

علينا أن ننتظر ونرى.

لقد احتاج تولستوي، على سبيل المثال، إلى أكثر من نصف قرن ليكتب روايته الخالدة «الحرب والسلام» عن حملة نابليون على روسيا.

وبالطبع، هناك استثناءات دائما، وحالات خاصة. فرواية مثل «صمت البحر» لجان بريله، الذي اشتهر باسمه المستعار فيركور، قد كتبت وسط هدير الدبابات الألمانية في شوارع باريس عام 1942 عندما كانت فرنسا تحت الاحتلال الألماني. وكشفت هذه الرواية القصيرة مشهد الرعب كله بسوية فنية عالية، ولهذا السبب قرأها الملايين في كل أنحاء العالم، وسيظلون يقرأون.

لإنتاج الحنين، ولكن يمكنني وضمن ثنائية الدولة /الوطن أن أخمن أن اختطاف الدولة للوطن لأكثر من نصف قرن وتواطؤ الوطن وصمته على ذلك في أحيان أخرى وانتفاء صفة الفردوس عن هذا كله لبرهة أو لأزمنة طويلة.

صورةٌ واحدة لمنافٍ متعدّدة

إياد حياتلة



ربّما أكون قد سمعت بمدينة غلاسكو الإسكوتلنديّة للمرّة الأولى في خريف العام 1976، وذلك عند ورودها بقصيدة الشاعر مظفّر النواب عن تلّ الزعتر (سبحان غلاسكو... سبحان وفاق الدبّين) حيث قصد بعبارته تلك لقاء القمّة بين الرئيس الأمريكي فورد والزعيم السوڤياتي بريجينيف الذي جرى قبل ذلك بوقت قصير في تلك المدينة الباردة من أجل لملمة وإعادة ضبط ما خرج عن سيطرتهما من أدوار الفوضى المتقاسمة بينهما بعدل وإنصاف.

لم أتصوّر للحظة حتّى وأنا في أكثر حالاتي الخياليّة جنوناً أنّني سأبدأ ترتيب منفاي الإختياريّ/الإجباري في غلاسكو بعد حوالي عقدين ونيّف من الزمن، وأنّني سوف أعتاد شوارعها وساحاتها كما اعتدت شوارع ومعالم مخيّم اليرموك ودمشق طيلة أربعين عاماً، وأعرف تفاصيل طقسها المتباينة في تطرّفها كما أعرف خبايا نفسي الدقيقة، والأكثر من هذا وذاك أن أدشّن بها فرعاً جديداً لمقبرة العائلة لينضمّ إلى الفروع الأخرى المبعثرة في جهات العالم الألف.

كنّا نتحلّق منصتين إلى صوت الشاعر القادم من آلة التسجيل البكر القديمة التي أحضرها والدي معه بعد عودته مطروداً بسبب آرائه السياسيّة الفطريّة من منفاه الثاني الذي اختاره ليعمل به مدرّساً لأبناء جلدته من الحجازيّين في السعوديّة، أربع سنوات من الغربة والإغتراب أتاحت لنا الإنتقال من بيتٍ متهالكٍ مسقوف بالزينكو في مخيّم العائدين في مدينة حمص إلى بيتٍ إسمنتيٍّ جديد في مخيّم اليرموك بدمشق، يومها قال جدّي الذي فقد بصره طفلاً في قرية الشجرة بفلسطين: "يابا يا عاطف صار لازم ننتقل عالشام، لازم نقرّب شويّ عالبلاد، مش قادر أشمّ ريحتها هون، وإذا الله راد وصارت الرجعة بنكون قاطعين نصّ الطريق، بس دير بالك هه، ترى أنا بسكنش غير باليرموك مع أهلنا وربعنا".

جدّي الأعمى أبو هويّن، الذي تمنّى ألّا يعود إليه بصره لئلا يرى بلاداً غير فلسطين، كان يصعد إلى سطح دارنا في المخيّم، ويقف مواجهاً الجنوب الغربي في زاوية محسوبة بأدقّ أجهزة مساحة قلبه المفطورة على الشوق والوجد ويفتح صدره للريح الجليليّة القادمة من الشجرة ليعبّها كلّها، زوّادة يستعين بها حتّى يحين أوان العودة، جدّي الأعمى ذاك قال لي مرّة وأنا ابن عشر سنين: "بس نرجع يا جدي عالشجرة بدي أورجيك كيف كنت أنشل ميّ من العين"، لكن جدّي لم يرجع ومات في المخيّم، وتبعته جدّتي بعد سنوات قهر وحرمان، وكذلك فعل أشقاؤه وشقيقاته وأولاده وبنته وبعض أحفاده، والده أيضاً مات قبله منفيّاً في سجن أضنة التركي بعد سقوط الدولة العثمانية، وعمّه كذلك مات قبلهما غريباً في اليمن مع الإنكشاريّة، وأنا حفيده الذي ولدت هناك في المخيّم الملتبس بين الوطن والمنفى، قد أموت هنا في هذا المنفى الغامض الأكثر التباساً ووضوحاً في آن معاً، ومع ذلك فقد رجعت وحيداً بدونه إلى الشجرة بعد أربعة عقود ونصف بفضل جواز سفري البريطانيّ الذي منحني إيّاه منفاي البغيض الذي أحبّ هذا، ورأيت آثار أقدامه المشقّقتين على الحجر

الذي كان يجلس عليه محرّكاً دولاباً خشبيّاً برجليه الحافيتين لينشل الماء من قعر العين إلى خارجها واهباً الحياة لشجرتنا التي ما زالت تحيا هناك.

عشيّة إعلان بن غوريون الذي عاش فترة من شبابه في مستعمرة قريتنا قيام دولة إسرائيل في العام 1948، فقد بات جليّاً أنّني وكثيرون غيري سنولد لاجئين منفيّين حتّى قبل أن نتشكّل في أصلاب وأرحام والدينا، بعد اثنتي عشر سنة من ذلك التاريخ فتحت عينيّ على صخب هذه الدنيا في أحد البركسات التي كانت تؤوي الجنود الفرنسيّين قرب حمص قبل عودتهم إلى بلادهم، والتي وزّعت بدورها على عائلات اللاجئين الفلسطينيّين بعد تشرّدهم من بلادهم، والبركس عبارة عن هنغار كبير بسقف من الصفيح على شكل مثلّث جرى تقسيمه على عدد من العوائل بحوائط رقيقة تفضح الأسرار الخصوصيّة لها، عرفت عندما قدمت إلى بريطانيا أنّ هذه المفردة إنكليزيّة وتعني ثكنة للجيش. في تلك الليلة الخريفيّة الباردة، وعلى وقع موسيقا عويل الرياح بين صفائح الزينكو، ناولتني الداية أم إبراهيم لوالدتي لكي ترضعني الرضعة الأولى، كان حليباً ممزوجاً بنكبة شعب كامل ستتبعه نكبات.

بعد أربعة عقود، وفي ذات النهار الخريفي غادرت مخيّم لجوئي الثاني في متّسع الوقت الفائض عن حاجتي، حزمتُ حقائبي على تفاصيلي التي خلّفتها ورائي وأغلقتُ قلبي دونها بعشرة أقفال، تركتُ كلّ شيء خلفي لقدرِهِ وهَربت، لم أته في البوادي والصحاري، لكنّ آثار ضربة شمس قويّة ما تزال تنخر رأسي كلّما رأيت مشهدً مماثلاً للاجئين فارّين من الموت إلى الموت. لم أمت من العطش، لكنّني غصصتُ مع كلّ شربةِ ماء اشتهاها طريد ولم يجدها، لم أركب البحر في قارب نجاة مثقوب، لكنّني غرقت مراراً والتهمت الحيتان قلبي وكبدي وأطرافي التي نسيت عددها، ضيّعت نجم الشمال سنيناً، وضيّعتني نجوم الجنوب عقوداً طويلة، وصلتُ إلى برّ الأمان منهكاً، محمّلاً بأوزار قرون من تاريخي الذي كتبه المنتصرون عليّ، مثقلاً بأربعين عاماً من البحث عن وطن يمنحني لجوءاً يجبُّ لجوئي الأوّل لأجد نفسي في البلد الذي كان السبب في لجوئي الأوّل ذاك، فأيّة مفارقة هذه!!

- "إذاً، تريد أن تقدّم لجوءٍ هنا؟
- نعم سيّدي
- من أين أنت؟
- فلسطيني
- أتيت من المناطق الفلسطينيّة إذاً؟
- كلاّ، أتيت من سوريا.
- أنت سوري إذاً؟
- لا، فلسطيني
- منذ متى تعيش في سوريا؟
- منذ ولادتي.
- لماذا لا تحمل الجنسيّة السوريّة إذاً؟
- لأنّي لاجئ فلسطيني.
- هل لك أن تفسّر لي ذلك، أنت لاجئ أصلاً وتريد أن تتقدّم بطلب لجوء جديد هنا، لماذا لا تعود إلى مناطق السلطة الفلسطينيّة؟
- لأنّني لست من هناك.
- سوف تجعلني أفقد عقلي، كيف تكون فلسطينيّاً ولست من مناطق السلطة الفلسطينيّة؟
- لأنّني من منطقة أخرى في فلسطين.
- وأين تلك المنطقة؟
- تسمّى إسرائيل الآن.
- وكيف حدث ذلك؟
- تسألني أنا، حدث ذلك بسببكم.
- بسببي أنا!؟
- كلاّ، لا أقصدك أنت شخصيّاً، أقصد اللورد آرثر بلفور الذي أعطى اليهود تصريحاً بإسم ملكة بريطانيا لإقامة وطن قومي لهم في فلسطين.

– وما علاقتي أنا بأشياء حدثت قبل مائة عام، أنا أصلاً إنكليزي وبلفور الذي تحدّثت عنه اسكوتلندي!".

ليس بعيداً عن مسقط رأس بلفور ذلك انتهى بي الترحال مع عائلتي الصغيرة، في المدينة الإسكوتلنديّة ذات التاريخ الصناعي المسروق، مدينة الاختراعات الكثيرة وأحواض بناء السفن العملاقة سابقاً، مدينة الإضرابات العمّاليّة والشغّيلة والطبقات المتوسّطة والمسحوقة التي صوّتت بكامل دوائرها للاستقلال عن التاج البريطاني انتقاماً من عهد تاتشر الذي سلبها مصانعها الصغيرة، مدينة الغلاسكويّين الذين يتكلّمون الإنكليزيّة على طريقتهم السريعة الحادّة، يخطفون الكلمات خطفاً ويلفظونها مبتورة الأطراف نتراً من صدورهم بعد دمجها ببعض وكأنّها عبء يريدون التخلّص منه ورميه بأقصى ما يستطيعون. في تلك المدينة الوسيعة الحدائق والمنتزهات والمتاحف، قال لي رجل نصف سكران بآثار طعناتٍ واضحة على وجهه قبل سبعة عشر عاماً على موقف الباص: "مرحباً بك أيّها الغريب في مدينتنا الصديقة، لكي تفهمنا وتفهمها يا عزيزي يجب أن تنتبه لشيئين هنا وتختبرهما جيّداً، الطقس المتقلّب المتطرّف في كلّ شيء، وكرة القدم الأكثر تطرّفاً التي تجمعنا وتفرّقنا مع فريقي سلتيك ورينجرز، عندها ستكون بخير".

أمّا أنا الذي لا تعنيني كرة القدم، فقد صرت أحبّ فريق السلتيك منذ ذلك الوقت، وأتقنت فنّ التعايش مرغماً مع جوّ غلاسكو البارد ذي السماء المثقوبة التي تنزّ مطراً على مدار العام، فكلّ المنافي وأجوائها مهما تباينت تظلّ سواء حيث لا وطن، يتوقّف المطر فينزل دمعي عليّ وعلى كثيرين هم ما بقي لي من حياة هنا وهناك في أماكن متعدّدة، من قبرٍ مشرع لعويل الرياح على سفح تلّة يضمّ لميسي هنا في أقاصي الشمال، إلى قبورٍ أخرى تحتضن بعضي في اليرموك وعين الحلوة وحيث لا أعرف أيضاً، إلى بيت أمّي في نزوحها المتجدّد منذ تسعة وستّين عاماً في صيدا.

في منفاك الأخير تستحضر كلّ منافيك الأولى وحيواتك السابقة، تضعها آخر الليل مبعثرةً أمامك على طاولة الوجد لتعيد ترتيبها، تخرجُ من الأولى حزيناً منكسراً لتدخل الثانية مبتسماً شبه منتصر بخسارات أقلّ، في المنفى قد يكثر بكاؤك ويقلّ كلامك، وربّما تتعلّم التأمّل في الفراغ التام، ومن المحتمل أن تتطوّر لديك تقنيات الشرود إلى ما وراءه وما قبله وما فوقه وما تحته وما بين بين، يتطاول بك المنفى ويقصر، يستطيل ويعرض، يرحبُ ويضيق، يسرع ويبطئ، يعلو وينخفض، يكشّر عن أنيابه ويبتسم، يغضب ويرضى، يضحك لك ويبكي عليك، يضمّك بحنان ويلفظك بقسوة، وعلى غير انتباهٍ منك قد يتحوّل إلى أيّ شيء، ولكنّك تظلّ أنت ثابته الوحيد الذي لا يتغيّر.

هنا، في منفاي المتأخّر الأخير هذا، أجلس على شرفة عمري المتهالكة مبحلقاً في اللاشيء، أنتظر ما لا أعرف وما قد لا يجيء، أرتشف قهوتي الباردة مستأنِساً بصوت أركيلتي، يضيء قلبي كلّما توهّج جمرها ويظلم كلّما خبا، ومع كلّ نفثة دخان تحملني (يذوّبني الحزن بجفاك وانت العيد) وتسافر بي بين اليرموك وصيدا ومقبرة غلاسكو، وما بين اليقظة والنوم، والصحو والحلم، أرى صورتي على زجاج النافذة المغبّشة من أنفاسي الحارّة فلا أعرفني، أمعن النظر فيما وراءها قليلاً فتظهر لي أمّي نصف النائمة على صوفا التهجير في صيدا، تنتبه من غفوتها وتحدّق بي مذهولة لدهر، بينما نظراتها الشاردة تقول: يمّا يا إياد، إيمتى بدنا نرجع على بيتنا بالمخيّم!

شكرا غزة... جعلتني بلجيكيا في بلاد الناس

زياد بركات



في خريف 1981 كانت الرحلة قصيرة نعم، لكن مخيبة لآمال الفتى.

رأى حياته أمام عينيه تتهاوى وما من عزاء. آنذاك اكتشف أنه فلسطيني، وللدقة غزاوي، ولا يحق له بالتالي التقدم للدراسة في الجامعة الأردنية على قوائم التنافس التي تقدم لها زملاؤه في مدرسة طه حسين.

كانت المدرسة تقع في الطرف القصي من مخيم كان اسمه "شنلر" وأصبح بعد ذلك "حطين". كان بيته الفقير في وسط المخيم، في منطقة منخفضة من المخيم، ومنه كان يمشي صباح كل يوم نحو كيلومترين على الأقل ليصل إلى مدرسة حملت اسم واحد من أكبر الرواد العرب في الأدب كما في النظرة الحداثية للحياة، طه حسين.

اكتشف الفتى لاحقا أن الحياة ضريرة، أن الكون أعمى، وعلى خلاف طه حسين كان عمى الكون مطبقا ومن دون تجليات تعوّض، أو خيال يسعف.

قال له موظف القبول والتسجيل من خلف الزجاج بنبرة ناهرة: قلت لك جواز السفر، هذا ليس جوازا، ثم أعطاه أوراقه كمن يرميها في وجهه.

- غزاوي... لا لا يوجد شيء، فكّر حاله أردني. قال الموظف لزميل له يسأل.

عاد الفتى مُهاناً، لقد دار من مكتب إلى آخر، وحده كان يدور في مكان حلمه الكبير والمغدور، قبل أن يفهم ما كان عليه أن يعرفه بداهة، إذ لا مكان هنا لك أنت وحدك أيها الفقير، الصغير والأبله القادم من مدرسة طه حسين، من مخيم شنلر المليء بالوحل والماء الآسن، لا مكان لك هنا.

رأى في ذلك اليوم زملاءه أنفسهم في " طه حسين" وقد جمعتهم رهبة المكان فتكتلوا حول بعضهم البعض، رآهم يبحثون عن الكافيتريا، ورأى البريق، بريق المنتصر في عيونهم، ها هم يدخلون الجامعة أخيراً، وها هي المسافة تنأى بهم عن وحل تركوه هناك، حيث ستعود أنت.

كنت أريد أن أدرس الفيزياء، لا الهندسة كما فعل أغلبهم، وليس الأدب الإنجليزي كما حدث معي في الجامعة نفسها بعد عام تحت عنوان "دراسات خاصة" قبل أن يتم قبولي ضمن دفعة العرب والأجانب في اليرموك

بعد ذلك بنصف عام لأنتهي إلى دراسة الأدب العربي رغم أنني مسجل لدراسة الأدب الإنجليزي.

في اليرموك تغيّر العالم في عيني الفتى. في بيئة حزبية بالغة الحيوية ويسارية على الأغلب نسي الفتى آنذاك أنه غزاوي ليجد بعد تخرجه من يذكّره بها: كان يتصعلك في وسط البلد في سنوات عطالته عندما أوقفه شرطي مرور: هيبيبه هيبيبه ألا تذكرني؟؟!!! قال له شرطي المرور، فحدق ولم يتذكر، وعندما فعل استغرب الشرطي عطالته واقترح عليه أن يتقدم بطلب توظيف لديوان الخدمة المدنية، فقال له أن ذلك غير مسموح له لأنه فلسطيني، فنظر له الشرطي، زميله المفترض في جامعة اليرموك، باستغراب أكبر قبل أن ينطق بتعبيره الغريب الذي ظل يرن كجرس أجش في أذنيه حتى يوم الناس هذا.

قال له الشرطي: بلجيكي... يعني.

أصبح الفتى فجأة بلجيكيا، وضحك عليه أحد أصدقائه آنذاك لأنه لم يكن يعرف أنه بلجيكي من الأساس.

شكرا غزة إذ أفردتني عن الخلق، إذ رميتني في الحياة وحدي، إذ بهدلتني في بلاد الناس.

شكرا غزة إذ رسمت حدودي في فراغ مشاعر الآخرين، إذ تركتني تحت رحمة ما تيسر من شفقتهم إذا فعلوا، أو تفضلهم إذا ساعدوا لتسهيل معاملة حكومية أو التوسط لدى رب عمل ما في هذا الكون الحقير، اللامبالي، الأصم تماماً والأعمى.

بعد سنوات أسعفته الموهبة ربما والصدفة حُكماً في العمل في صحيفة "الدستور" بعد عطالة مديدة وفقر مقيم، أيامها، كيلا أظل أكرر آنذاك، كتب كبغل، وقرأ كحمار، وشاهد أفلاما سينمائية ومسرحية بلا عدد، لا لأنه يحب ذلك، وهو كذلك بالتأكيد، ولكن "ليبني نفسه" وللدقة لينتشلها من وحل عالق في الأحذية والقدمين والقمصان والأصابع والشعر الأسود الطويل.

شكرا غزة، يا لعنتي، يا فخاري، يا أمي المخذولة، أيتها المرمية على أبوابهم كبحر ميت في حقول سبانخ وفجل وبصل مسوّرة بالصبار.

شكرا غزة لأنك كنت أمامي دائماً تذكرينهم بأنني البلجيكي التائه، البعير الأجرب الذي عليه وحده أن يكد أكثر، وأن يظهر حسن نيته أكثر ودائماً ليفوز بمجرد مقعد في الحافلة ولاحقاً في الطائرات.

شكرا غزة، واسمحي لي أن أسرد على مسامعك الكريمة قصصاً قصيرة، بارقة، وحزينة، عن رجل يستغرب معارفه أنه محترم على الرغم من أنه من غزة، عن رجل تعوّد أن يُنادى عليه متأخراً، وأن يدخل الجامعة متأخراً، وأن يجد عملاً متأخراً، وأن يسمح له دخول بلاد الآخرين متأخراً وهو ينتظر رحلة جواز سفره بين المكاتب هناك... فيما هو ينتظر وينتظر في ليل المطار البارد أن يسمحوا له بالدخول، فالفيزا موجودة، والموافقة موجودة، والبرد قارس، ولا سيارات في الليل لتقله إلى حيث سبقه زملاؤه، والى حيث سيصل دائماً متأخراً عنهم هناك.

شكرًا غزة... لأنك جعلتني أشتري السيارة قبل أن أحصل على رخصة القيادة في الأردن. شكرًا غزة، ولك أن تتخيلي: لم يصدقوا كلهم... كلهم، حتى الله لم يصدق آنذاك أن القانون ينص على ضرورة أن يقدّم

البلجيكي وثيقة بملكية سيارة قبل أن يتقدم لامتحان السواقة... حتى الله، وهو في المناسبة إله الجميع فيما أعلم، من بلاجكة وروماں وسويسريين وأردنيين وسوريين ومصريين وغيرهم من أمم، حتى الله نفسه لم يصدق.

شكرا غزة لأنك صدقتني وحضنتني وأحببتني، ولأنك سمحت لي أن أحبك كما تحب الأم طفلها المُقعد والمشوّه، وكما يحب المازوشي ضرب نفسه بالنعال.

شكرا غزة لأنك رغم كل ما فعلته بي تظلين مثلي، فلقد خلقتني على هيئتك: كثير التسامح، عظيم الصبر والتحمل والبلاهة، تخيلي أنني ما زلت أصدق أكاذيبهم، وفي سري أضحك... أضحك... أضحك، يا لبؤسهم ويا لحزنك يا حبيبة عمري كله... ولعنتي التي أعلقها في عنقي كحجاب محبة وغفران

*

بالنسبة لكثيرين يقدم إدوارد سعيد خبرة مختلفة وكاشفة لكنها ليست كذلك لفلسطيني فقير ظل يكتوي بنار تلك التجربة. ليس هذا انتقاصاً من فتوحات الرجل الأكاديمية في المنفى وسواه بل محاولة لتحرير التجربة الفلسطينية من الصورة التي أنتجها والتي لم تعد تلائم خبرة الألم نفسه وهو يتكثف ويأخذ أشكالاً جديدة. وجد الرجل نفسه في كلية فيكتوريا، وسط أبناء الطبقة الأرسطوقراطية. كان ثرياً مثلهم ومسيحيا مثل بعضهم، ويرتدي الشورت كبقيتهم لكنه كان يُفرد كل مرة، يُعزل تلقائياً، يغدو وحيداً عند باب الكلية وهم يغادرونها.

حسناً، لقد كان خارج مكانه، خارج جماعته الأم، بينما تتكرر حالته على نحو أكثر تعقيداً مع الغزّي، أي أبناء غزة ويطلق عليهم وصف الغزازوة للتحقير لا للتميز، ويندر أن يطلق عليهم وصف الفلسطينيين.

في حالة الغزي فإنه لا يُطرد خارج المكان بل خارج الجماعة الفلسطينية، خارج قبيلة الألم المعترف بها، فهو أقل من أن ينتسب لمدن فلسطين الكبرى، ولجوؤه أقل قيمة من لجوء ابن القدس أو حيفا، ولاحقاً حدث الأسوأ، فقد انفصل عن الجماعة الأم التي طردته من قبيلة ألمها وتحوّل رسمياً إلى مواطن "القطاع" وللدقة ساكن القطاع، فحتى الجغرافيا هنا أصبحت أكثر تعويماً لألمه، وبالطبع إنكاراً.

أنا الآن في الخمسين... وأنا أغبط منفى رجل مثل إدوارد سعيد، فلقد كان منفى معترفاً به على الأقل، وهذا يعني أن هناك صدراً جاهزاً ومتفهماً ينتظره في كل مرة إذا أراد أن يبكي عليه، بينما في حالتي، وهي ليست فردية، فإن عليّ أن أشرح وأوضّح كما في الفقرة الأولى ليعترف الآخرون بمجرد حقي في الألم.

هل عليّ أن أواصل النباح؟!

هناك من هو أقل من أن يكون فلسطينياً، أقل من أن يكون إنساناً حتى في صفوف جماعته الأم.

نعم فلأواصل النباح...

*

تشبه الحيوانات بعضها البعض بالنسبة لنا، تختلف الأرانب في ألوانها لكنها تظل أرانب. الأرنب هو الأرانب كلها، بماضيها وجيناتها وركضها السريع في حقول القرنبيط.

لنفترض ما سبق مقدمة لتأمل صور اللاجئين السوريين في الغرب لا الدول العربية، فهناك دائما وأنت تَقَلِّب الصور ثمة فتاة صغيرة في السن ترتدي معطفاً أحمر. لسبب غامض تتابع حركة تلك الفتاة في الصور التي بثتها رويترز. إنها تقبض على طرف ثوب والدتها التي يصدف أن تكون شابة وجميلة لكنك لن ترى جمالها. لن تلحظ أبداً في مشاهدتك الأولى للصور أنف أخيها الأصغر على الأغلب وهو يرشح. فقط سترى تلك الدهشة في نظرات الفتاة، أقصد الدهشة السلبية، الأقرب إلى الصدمة، الأقرب إلى البلاهة: إننا هنا نتأمل يا "س" أرنبة صغيرة وسط حقل شاسع من الألم المُنكَر على حدود بلغاريا.

نميّز الفتاة بلون معطفها الأحمر، يا للدلالة! وإذ نفعل تختفي الألوان الأخرى فالصورة بالأسود والأبيض، البقية بالأسود والأبيض، ما يفسر عدم انتباهتنا لجمال الأم وأنف الأخ الذي يرشح.

إذ نفعل هذا تحضر السينما على الفور. قائمة شندلر لسبيلبيرغ، وتحديداً تلك الفتاة اليهودية التي تتجول وسط الدمار بمعطف أحمر.

لعله الألم هنا هو القرابة الوحيدة التي تربط بين جميع البشر. ربما، لكنها الألوان هنا تنفجر، فلأوضّح:

كان كاتب المقال يقيم في مخيم على حدود العاصمة الأردنية عمان. كان طفلاً بالتأكيد عندما اكتشف الكبار أنه يرتدي فردتي حذاء بلونين مختلفين فضحكوا، وضحكنا نحن أكثر عندما كبرنا قليلاً واكتشفنا أننا نلبس معاطف نسائية أحياناً وردية اللون، أو قمصاناً بياقات عريضة حمراء فاقعة، وكان ذلك لا لأننا فقراء وحسب بل لأننا لاجئون، ولأن اللاجئين يتلقون مساعدات من وراء البحار، جزء منها ما بلي من ثياب الأوروبيين فتركوه أمام الأبواب ليُجمع ويُوضع في كراتين ضخمة تجد طريقها عبر السفن إلى مخيمات اللاجئين. هناك كانت تُوزع كيفما اتفق في "بقج" صغيرة يصدف أن تكون في إحداها فردة حذاء وفي أخرى الفردة الأخرى، إلخ، إلخ.

ماذا يعني كل هذا الهراء؟! ليس تسول التعاطف بالتأكيد بل التمييز بين الأسود والأبيض الخاص باللاجئ والألوان القادمة من خلف البحار، وأظن أن الفكرة قد تكون ساذجة لكنها كاشفة.

كأن الألم الحقيقي، الأعمق من فكرة الاقتلاع، ألم التحديق في الموت، ألم المطرود من الإجماع والجماعة، يُراد له أن يُنسى... فإذا به يقاوم الرغبة المتسلطة بمحوه بتمييز لونه بالأحمر.

اللاجئ الفلسطيني الصغير والأبله يُرِد فيُلبَس من حيث لا يدري أو يرغب ثوباً بلون فاقع، يحدث هذا للسورية الصغيرة بمعطفها الأحمر على بوابة أوروبا بعد نحو خمسين عاماً، ويحدث هذا لفتاة سبيلبيرغ اليهودية، أختي أنا الفلسطيني الأقل من أن يُعترف به بين قومه، وشقيقة تلك الفتاة السورية التي إن دققت النظر سترى أن ذقنها الصغيرة ترتجف من البرد.

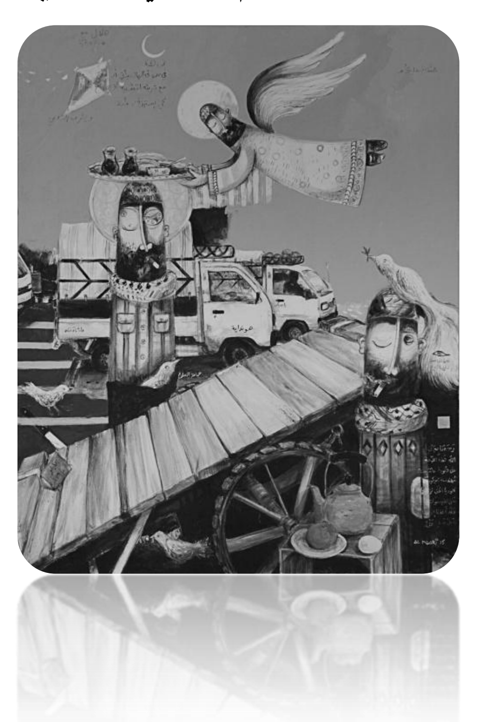
شكراً للألم، جعلنا أقرب إلى الحيوانات في هذا الكون.

ليتنا كنّا أرانب يا "س".

جنسية المهاجِر

ابراهيم محمود

يتحرك المهاجِرُ عكْس عقارب الساعة "وهنا تكون الانطلاقة من البلد الذي ينتمي إليه"، وهو يصبح لاجئاً "في البلد الذي يحط رحاله فيه، أو يكون قد حط رحاله برغبته أو ضدها لأن ظروفاً لم تساعده في بلوغ النقطة التي كانت أفكاره ومشاعره تتمحور حولها، نقطة الوصول في الدولة المعنية تماماً"، بعكس الحركة التي نشهدها في الطبيعة أيضاً: هناك من اليمين إلى اليسار، وهنا من اليسار إلى اليمين، لكن عقارب الساعة صنعة إنسانية، وقد صمّمت في وضعية معينة ومكان معين من خلال ارتباطها بانحسار ظل الشمس: كلما تحركت الشمس، بالمفهوم الحسي البشري، وليس الفلكي، كان هناك انحسار لظلها، وهذه بداهة، فهي تتبع خط رحلتها المعهودة من الشرق إلى الغرب "، أما الساعة فبمفهوم الشمال تتبع خط تحرُّكٍ من اليسار إلى اليمين، تأكيداً على اختلاف مفهوم الزمان بين نصفيّ الكرة الأرضية، إنما لا بد أن يؤخَذ في الحسبان دورُ السياسة وخاصيتها المكانية في هذا التحديد .



إنما - أيضاً - ما علاقة كل ذلك بموضوعة المهاجر وحركته؟

ربما حتى الآن، وفي منظور الآخذين بالمفهوم الديني "الإسلامي"، فإن الحركة الطبيعية، والتي تتم من اليمين إلى اليسار، وأن مثال الطواف حول الكعبة، وهو من اليمين إلى اليسار، تأكيد على دقته، تجاوباً مع موقع القلب وسلامته حيث الالتفاف صوب اليسار بدءاً من اليمين. ومن المعلوم فالطواف يحوز الحركة ويؤمّمها له وليس العكس.

هنا، ولتأكيد الـ" هنا " يلتقي دوران عقرب الساعة مع طواف "المسلم المؤمن" حول الكعبة! إنما له " كعبته " المرتسمة حديثاً، وتُحمَل معه!

المهاجر نقيض الحركتين، حيث إن حركته ليست منتظمة، باعتباره يتبع توجهاتٍ بالكاد تكون عائدة إليه، وإن كان يريد الوصول إلى بلد من بين بلاد كثيرة "أوروبية إجمالاً"، هي توجهات دليله التاجر الخاص "المهرّب". إن كلمة

أن الحركة قديمة وليست صنعة إسلامية بطابعها الطقوسي، لمن يتابع الموضوع، وبالتالي يكون المضفى على هوية الجانب العقائدي السياسيّ التوجه، هو هذا الجاري، وخصوصاً عند تبيُّن فعل "الطواف" وهو أكثر من مفهوم " الحركة "، كونها ذات مغزى شعائري، ولو أنه "الطواف" موصول بما هو طبيعي، لاعتُمِدت الكلمةُ الدقيقة والخاصة بالطبيعة "الحركة"،

المهرّب هي أدق تعبير عما يجري. إنه ضد القانون السائد بغضّ النظر عن محتواه القيمي في بلد المهاجر/ اللاجئ " ولا ندري ما نوع العلاقة بين هذا القانون في عمومه، وحركة الطبيعة وعقرب الساعة؟!"، المهرب ليس له اتجاه محدَّد، منتظم، وإلا لبطل أن يكون مهرّباً. والمهرَّب "سلعة بشرية" وهنا تكون المفارقة، مفارقة أن التهريب استثنائي في اسمه ومسماه، عندما نكون إزاء ظاهرة كوكبية وفي سياقات معينة، إذ المعهود هو أن التهريب يطال سلعاً، أما أن تكون السلعة أشخاصاً، وبكميات لافتة، فهنا يهتز القانون، بقدر ما يكون الافتراق عن حركة عقرب الساعة الذي يعمل ضمن فسحة محمية من المؤثرات الخارجية، وهي الرقعة المحمولة في معصم اليد الآن في أجهزة كثيرة: الموبايل، أجهزة الكومبيوتر، وغيرها للتأكيد على إمكان معاينة الزمن في كل شيء، ومن وراء هذا الإنشاء؟!"، المهرَّب إنسان من لحم ودم، وهو بالطريقة هذه يوجَّه في مسارات مجهولة، حيث تتوافر مجموعة احتمالات، وقد تقل عددياً، أو تنعدم، طالما أن الخطة الموضوعة يقوم بها أناس يعملون ضد القانون ونظام الطبيعة معاً، حيث ينتشر أشخاص ربما لا تكون تلك العلاقة التي تصلهم بعضهم بالبعض الآخر وبالنسبة للمهرَّب: الإنسان عموماً، مترابطة كما هي حلقات سلسلة طويلة في خطوط غير مستقرة. بالعكس! ثمة تكتُّم على هذا النظام "اللانظام: نظام التهريب" وهي عبارة متناقضة، طالما أن التهريب كاسم يعايَن بوصفه غير مشروع، لهذا لا يعود النظام المعهود بقانون خاص به يسيّره ويعرَف به. وفي بلدان مختلفة، وبلغات تتفارق هنا وهناك، توجد كما يتم تبنّي لغة متبعة أحياناً هي الإشارات، وفي الغالب، ومن جهة القيّمين على الموضوع، لا ينبغي أن يعرَف المساهمون الأوَل في مضمار التهريب من خلالها. أي إن الأدلّاء وهم مهرّبون، يتقاضون عملة، إنهم مأجورون تماماً، وقد يتعرضون لأسوأ العقاب "يقضى عليهم، يلاحَقون، كما يجري الآن هنا وهناك"، سوى أنهم باقون، من داخل هذا البلد أو ذاك، حتى في أكثر الأوضاع سوءاً في التشديد، والعملية في كل مرة مرتبطة بعروض أسعار: "ثمة عرض وثمة طلب طبعاً"، والقيّمون الكبار يفرضون أسعارهم، وهم يُسمّون نقاط العبور، لمن يطبّقون تعاليمهم، وهي محتملة الفشل، حتى وإن كان هذا القيّم أو ذاك متنفذاً بشكل استثنائي في هذا البلد أو ذاك، لكن العمل لا يكشَف عنه، فهو إذاً يعمل داخل نظام استثنائي أو شبه معروف بطريقة ما، لا يسمح بالكشف عنه، باعتباره خرْقاً! فالقيّم هذا مقيم في "علٍ". إنه جغرافي ممتاز من منظور حِرفي وظيفي لا بد منه، يعرف الثغور القائمة، أو كيفية إيجادها بطريقته الشمّية الخاصة. "ها قد استعنَّا بحاسة الشم بصيغتها الحيوانية"، نعم، الشم ميزة بارعة، استثناء الاستثناء لدى القيّم الذي يكون المهرّب الأعلى الأكثر نفوذاً طُرّاً، ميزته أنه يبز كل الوسائل الأخرى، وهي المتَّبعة والمعهودة في سلّم العلاقات الاجتماعية والسياسية داخل المجتمعات، فيما بينها... الخ، بما أن الشم يعمل في صمت، ويتوافر على علامة فارقة بالنسبة إليه، من ضمن علامات كثيرة ومتفاوتة، وهي الصمت المخترق لجسم النظام أي نظام. شمّام الأثر هو الحواسيُّ الذي لا يجارى في هذه الصنعة "الكار"، ضمن مسافات بعيدة، وتحديداً عندما يستحيل تحديد المسافة الفاصلة بين مركزه الحكومي، الرسمي، أو نصف الحكومي " قد يكون موظفاً، وله إسهام في أعمال خاصة به أو بغيره! "، وتلك النقطة/ النقاط التي تعنى بالعبور، حتى الرسمية منها، التي يحدث لها أن تتعرض لفعل تعطيل، ويجيّر نظام عملها الترانزيتي، أي يكون هناك "اكتراء" لهذا الخط/ النقطة، أو من

هذه الجهة / الموقع، وسواهما. إن تدبير زمن مقتطع من الزمن السائد، يتناسب واقتطاع أمكنة حسابية/ هندسية: خطوط اتصال متقطعة، تؤمّن على ممرات أو معابر لهؤلاء الجاري تهريبهم، وهم مرئيون أحياناً، حيث يختل القانون، ويكون هناك التعدي عليه، من ضمن التدابير التي لا يكشَف عنها. وهذه نقطة مهمة، وغاية في الخطورة، لحظة التعرُّف إليها: أعني بها أنها خطة لا توضَع على الطاولة ويجري التقيُّد بها بشكل ظاهري، إنما في العتمة، أعني في السر. إن خطة القيّم الأكبر والذي يضم مجموعة أشخاص، كل منهم يعمل آمراً على إحداثية معينة طبعاً، في منطقة معينة طبعاً، هو ولي أمرها، ودونما استقرار طبعاً، إخلاصاً لحِرَفية التهريب، وبالمقابل دائماً، لهي خطة ضاربة ضارية تعمل وفق مبدأ " قلب الطاولات والكراسي معاً "، لأن تلك تعني التروّي، تعني تلفزتها، أو الإعلام عنها، تعني الفسْح في المجال للمعنيين بها لأن يغطّوا أنشطتها، أما هنا فالوقوف وربما بتوتر، وفي زمن محسوب بدقة، وأحياناً عبر إشارات خاصة، ينعدم فيها الأشخاص بأسمائهم" المعروفون أشخاص عاملون في التهريب، وليس الميع، أما المهرَّبون فلا تهمُّ أسماؤهم أو جنسياتهم إجمالاً، إنما العدد/ الكم، لأن ثمة مقايضة، سمسرة في منطوق مافياوات التهريب بامتياز، الوقوف بالمعنى الدلالي "السيميائي" يناظر آمراً ناهياً على الزمن المعهود والمكان المعهود، إنها لعبة شيقة، خطيرة، لا تخفي ميتاتها، أو حتى قد تكون الخطة الواحدة منتهية بكارثة إنسانية (غرق سفينة تخرق النظام البحري هنا بالتأكيد، التعرض لقافلة بشرية بنهبها وربما القضاء عليها)، ومن الصعب جداً، وأحياناً من باب الاستحالة معرفة مصير الذين يتم تهريبهم دائماً، حيث يجرَّدون من هوياتهم، وتنعدم المسؤولية بما أنهم تسلعنوا، بالعكس، وكما سنرى، يخضع كل مهرَّب لآلية فعل المجهول، وهو هنا محتوى في نطاق "اللاجئ، إذ يكون مهاجراً"، إنه يسعى جاهداً كما هو موجَّه لئلا يُكشف عنه حتى لحظة بلوغه النقطة "النهائية" أشير هنا، لمن يهمه أمر اللاجئ/ المهرب، إلى أن نسبة ملحوظة من اللاجئين المهاجرين في الأيام الأخيرة، بدءاً من الخامس من أيلول 2015، وهم ينطلقون من المجر باتجاه النمسا ومنهم إلى ألمانيا، وهم يتحركون في صفوف منتظمة، وثمة من كانوا يقدّمون لهم حلوى، أو ما يشبه الحلوى، وبعضهم كان يمد يده لتناولها والبعض الآخر يخفي وجهه، حتى وهو داخل المدينة الألمانية، خوفاً من التعرض لملاحقة ما، ربما لأنه يتبع ما موجّه به تعليمياتياً؟! ".

القيّمون في تهريب الأشخاص يعملون بمبدأ "الوقوف"، وإعطاء الأوامر/ التعليمات، بما أن الجلوس إلى الطاولة يعني اقتطاع زمن محسوب، ولفت أنظار. إن شمام الأثر يقتفي الآثار، يلتقط الإشارات، ولكل شمام أثر منطقته التي يتقاضى عليها أجراً، والأجر "إجر من دون جسد"وبالكاد يعرف المهرّبون هؤلاء بعضهم بعضاً، وربما يقضي بعضهم على الآخر عند التعرض لخطر ما يتهدده في موقعه واسمه، كما لو أن الفعل هذا يقابل الثمن المدفوع لإخفاء أثر الجريمة.

شمّام الأثر لا يُرى بسهولة، لأن الصمت يخفي ما في الداخل، إنها عتمة أخرى لا تنفذ بيسر، والذين يهاجرون قد لا يعيشون هذه الحالات، أو هم على إدراك مما يتم أو يجري، ربما العكس هو الدائر: تعطيل فعل الحواس الذاتية والائتمار بالآخر: المهرّب وكيفية التحرك، إنه المصير المعلق في المجهول، رغم التطمينات، والمخاوف قائمة، حيث المبلغ المدفوع وحده لا يعني تأميناً على الحياة، بالعكس أيضاً: إن أول ما يجب أن يؤخَذ في الحسبان، هو أن كل ما يفكّر في الهجرة، وصنعة اللاجئ، ما

أن يخطو الخطوة الأولى حتى يتنازل مرغماً عن اسمه وتفكيره، لئلا "يتبلبل" أعني: "يتبهدل"، وبما أنه يكون في طواعية المهرّب، لأن أي اعتراض في نقطة ما قد ينهيه، وفي الحالات كافة، فإن لدينا مجموعة مصائر مجهولة، أو مصيراً مجهولاً في مفهومه العام، حيث التنازل عما يميّز المهاجر غير "الشرعي" يوحي إليه بأن ذلك من مصلحته، وتلك بداهة أخرى في سلسلة البداهات المنتمية إلى هذه الخطوط غير المرئية إلا من جهة متعهديها ونسبتهم البليغة إلى خانة " غسيل الأموال "، لأن المبلغ المدفوع من قبل كل شخص وهو لا يستهان به، مبلغ ضخم، ربما كلّفه الكثير عند تأمينه ووضعه عند شخص ثالث، هو الوسيط، صاحب مكتب أو سواه، وربما يكلّفه حياته فيذهب المبلغ نفسه في مأساة مركَّبة، يكون الوسيط نفسه داخل عتلة اللعبة، أي يعمل بنسبة معينة، وقد يكون متعدد أدوار أحياناً: داعية تهريب، سمساراً، متعهداً، مؤمّن خطوط اتصال، متقصي أخبار هنا وهناك، يعمل في الضوء حيث لمكتبه أحياناً اسم تجاري معلوم وزبائن ومهنة رسمية وضرائب مدفوعة، وربما مكانة أو اعتبار داخل الكيان التنظيمي للدولة هذه أو تلك، ولكنه شمام أثر، وعمله وهو " واقف " وفي صمت قد يكون مدراً عليه مكاسب أو أرباحاً أكثر، حيث مكتبه في أوقات معينة ينفتح لعرض آخر المستجدات وإنهاء ما يصل بها سريعاً.

المهاجِر اللاجئ يعرف ما هو فيه أو عليه، إذ قد يكون حامل شهادة جامعية عالية، تضطره ظروفه، أو هو يندفع في هذا المسار لأن يصبح داخل اللعبة مسلّماً أمره لمن لا يستحق النظر قيمة واعتباراً، لكن موقعه، أو ارتباطه بالذين يمارسون هذا النشاط المتعدي لحدود دول قد يصعب حصرها، هو الذي يضفي عليه قيمة محروسة بجلاء، وبالطريقة هذه يتساوى الأشخاص المهرَّبون: بوصفهم مهاجِرين، ولعله المجال الوحيد الذي يتساوى فيه الناس: لا فرق بين رجل وامرأة، وربما بين الصغير" بعمر معين، ودائماً حسب الاتفاق المبرَم " والكبير، كون الأكثر تحملاً للمشاق يحيل الطريق إليه، إذ العمولة الحاصلة في مضمار النشاط القائم تلغي التفاوتات فيما بينهم، وربما أمكن تلمُّس التفاوت بين هؤلاء وهم ضمن قافلة أو طابور، ولصالح الأكثر تميزاً بعدم المعرفة عندما يكون الأكثر طواعية لمن بات معنياً به وبصلاحيات زمنية ومكانية محددة، خلاف الذي يحاول أحياناً التعريف بنفسه أو ثقافته، الأمر الذي قد يستثير " جماعته " ونقمة الآمر عليهم جميعاً، بما أن مجرد الدخول في لعبة التهريب تصريح مباشر بأنه لم يعد من حقوق معتبرة لأي منهم، وهنا ربما يمكن الكشف عن تلك المكبوتات التي تعرّف بالذين يديرون الشبكة، بالذين يعملون داخلهم، ممن تكون ثقافتهم محدودة، وقد تنمَّروا وأظهروا أو يظهرون شدة أو عنفاً، وربما ما هو أحط قيمة بالسلوكات التي يجسّدونها في هؤلاء المهاجرين باتفاقيات جانبية مع أشخاص لا يدخلون على خط تحركاتهم في هذه الجهة الجغرافية أو تلك فحسب، إنما يتعقبونها ويتربصون بها وينالون منهم. وتلك صفقات أخرى تتداخل فيها الأهواء والميول، ودسائس السياسات، ورموزها. والرابط الوحيد الذي يشد الأمّي إلى متسنّم أعلى سلطة اعتبارية في جسم الدولة في هذه العملية المرعبة هو " المال " الذي يقبَض وقوفاً أو على عجل هو الآخر وفي صمت!

استكشاف معكوس

راتب شعبو



.1

على الطريق الطويل الذي قطعته السيارة بين مطار شارل ديغول ومنزل الأصدقاء الذين احتضنوا غربتنا الطازجة، وبينما كانت زوجتي تؤكد أن لهذه القارة رائحة خاصة التقطتْها منذ لحظة خروجها من الطيارة، رحت أتأمل ملامح أوروبا لأول مرة: البيوت ذات السطوح الحمراء المنحدرة التي طالما رأيتها في الأفلام وطالما اعتدت على رسمها دون أن أدري كيف، الغابات الصغيرة التي تتوسط السهول الزراعية، المراعي الواسعة المسورة حيث ترعى أبقار وخراف سمينة لا تشبه أبقارنا وخرافنا، الشجر الكثيف والعالي الذي يحف بالطريق السريع من الجانبين، التخطيطات البيضاء المنتظمة على الطريق السريع الذي تنحني فوقه وعلى كامل طوله مصابيح الإنارة الليلية، شمس الصيف التي تغيب قبل منتصف الليل بقليل، أنواع السيارات التي تحيل الطريق السريع إلى نهر استعاض عن مائه بالسيارات (سمعت طوال تلك الليلة التي لم أنم فيها، صوت نهر يهدر قريباً من البيت، في الصباح استفسرت عن اسم النهر الذي يمر في تلك المدينة، وعلمت أنه لا يوجد أي نهر قريب، وأن هذا الصوت هو صوت الطريق السريع المجاور. للطريق السريع صوت هدير النهر أيضاً)، المراوح العالية الضخمة التي تدور ببطء لتوليد الكهرباء، هواتف الطوارئ على الطريق، المساحات الصغيرة نصف الدائرية المتواترة على يمين الطريق بما يسمح بركن السيارة عند الضرورة ..الخ.

غير أن ما أسر نظري هو التمثال الضخم المنصوب إلى جانب الطريق أمام بناء أحد المعامل. هيكل ضخم لرجل عار بكامل تفاصيل جسد الرجل سوى أنه يستعيض عن العينين بعين واحدة تقع في المنطقة الفاصلة بين الجبين وجذر الأنف. لم تكن ضخامة التمثال ما لفتني، ولا حتى تلك العين "السيكلوبية"، بل التفاصيل العادية فيه، التفاصيل غير المثالية. وجه مغضن بتجاعيد ظاهرة على الجبين، أنف لا يراعي أي مقياس للجمال سوى الألفة، صدر متهدل كصدر غالبية الرجال الكهول، بطن مرتخ، خاصرتان نافرتان وهابطتان قليلاً، قدمان كبيرتان بإبهامين ضخمين كما هو الحال لدى رجل "عادي". إنه اعتراف أو تقدير للعادية. قالت الكاتبة الفرنسية فرانسواز جيرو مرة: "أحب الرجال بأقدامهم الكبيرة".

تكرر مرورنا بجوار هذا النصب فيما بعد، في الليل يبدو أكثر جمالاً بفعل الإضاءة التي تنعكس عليه من الأسفل. اصطلحنا على تسميته "أبو عين"، وقد جعلته الصدفة في منتصف المسافة التي تفصل بيتنا لاحقاً عن ذلك البيت الأول، فصار مركزاً لإحداثيات الطريق: "صرت قريباً من (أبو عين)" أو "تجاوزت (أبو عين) من عشر دقائق" ..الخ.

في أواخر العام 2015، ستروا عري ذلك التمثال بلباس عمالي على شكل أفرول، كما قطعوا عنه الإضاءة الليلية. لا أدري إن كان ذلك بتأثير الخوف الذي سببته سلسلة الهجمات الإرهابية التي وقعت في باريس في تشرين الثاني/نوفمبر 2015، ربما افترضوا أن العري يمكن أن يتسبب في استهداف التمثال وأصحابه. في صيف 2016، استبدلوا لباس العمال بلباس لاعبي الفريق الوطني لكرة القدم بمناسبة انطلاق بطولة كأس الأمم الأوروبية. بدا لي أن تلك البطولة كانت فرصة لستر دافع الخوف بغطاء "وطني". احتاج الأمر لعامين من "الستر" والتعتيم، قبل أن يتحرر "أبو عين" مجدداً ويستأنف عرض عريه وتفاصيله على عابري الطريق السريع ليلاً ونهاراً.

.2.

على خلاف المستكشفين الذين ينطلقون عادة من المركز إلى المحيط، من بؤرة ضوء (حضارة) إلى بقاع الأرض المظلمة، يغامرون، مسلحين بقوة تفوقهم، كي يكتشفوا وينقلوا ما تراه عين "الحضارة" في مجاهيل الأرض من كنوز أو غرائب، كنت على خلاف هؤلاء "أستكشف" من موقع مهزوم. مهزوم كفرد من مجتمع يراكم فشله في إدراك الحضارة، ومهزوم كفرد من معارضة سعت إلى تغيير الحال وفشلت أيضاً وتدفع الثمن بأشكال شتى. حركتي معاكسة لحركة المستكشفين المعروفة، فهي انتقال من المحيط إلى المركز، من بقعة مظلمة (حضارياً) إلى بؤرة ضوء، ولا شك أن شعوري لا يشبه شعورهم أيضاً. إذا كانت رحلاتهم الاستكشافية طوعية فإن رحلتي هذه ليست كذلك. وإذا كان سلاحهم في الاستكشاف هو قوة التفوق الحضاري، فإن سلاحي هو الضعف. نعم يمكن أن يكون الضعف سلاحاً، فهو ما يحرض في داخلي كل طاقة للملاحظة ومعرفة الفروق. بيني وبين المستكشفين فارق هو الفارق بين رسول حضارة وطريد تخلف.

في الفترة الأولى هنا، تذكرت كلاماً طفولياً لرفيق سجن درس الهندسة في الاتحاد السوفييتي (السابق طبعاً)، قال إنه تخيل أن يجد، حال وصوله إلى هناك، النظرية الماركسية تتدلى كالثمار من الشجر أو تنبت كالحشيش في الحدائق، أن يصادف شذرات هذه النظرية في الشوارع وأن يراها مزهرة وخضراء في كل مكان مثل أشجار الكرز الياباني. وجدت نفسي، مثله، أنظر إلى كل شيء في أوروبا كأنني أستنطقه عن السر الذي يفتح باب التقدم، ها أنا وجهاً لوجه مع المجتمع الذي قرأنا عنه كثيراً وعرفنا ثقافته عن بعد، وحلمنا باللحاق به، المجتمع الذي تصنفه الكتب في العالم الأول، بينما تصنف مجتمعنا في العالم الثالث أو الرابع أو أكثر. تخيلت أنني يمكن أن أعثر على السر في

الشارع أو في الساحات والحدائق أو في الوجائب الخضراء بين الأبنية أو على واجهات المحلات. في كل شيء كنت أبحث عن الفرق الذي قد يفيد اكتشافه في علاج مرضنا المزمن الذي لا يزول، في علاج الاستبداد السياسي والتخلف الاقتصادي والتمييز والعنف وضعف اعتبار الكرامة البشرية ..الخ.

مع الوقت تراجع انشغالي الطفولي ذاك، وعدت إلى قواعدي الأولى: لا علاج إلا بالديموقراطية، هي العلاج الوحيد والطريق إلى التقدم. حرصت على حضور أول إجراء ديموقراطي في فرنسا منذ وصولي، كانت انتخابات الأقاليم الفرنسية في ربيع 2015. دفعتني رغبة عميقة إلى أن أتابع وأراقب المجريات، رغبت في أن أتحسس بيدي هذا الشيء الذي ينقصنا والذي نشقى ونسجن ونموت بسبب غيابه، ونعتقد أن فيه علاجنا. صالة واسعة فيها الكثير من الأمكنة المعزولة بستائر تضمن سرية الاختيار، وطاولات عديدة يجلس إليها متطوعون من أهالي المنطقة، ترتيب واضح وهدوء يشبه جو الامتحان، وعلى وجوه الجميع علامات الاعتياد. يمر الوقت ويبقى عدد الذين جاؤوا للاقتراع قليلاً، غالبيتهم من كبار السن.

كان بجانبي عجوز شيوعية فرنسية سبق لي أن تعرفت إليها من قبل، ولبيت دعوتها لحضور اجتماع منظمة حزبها في المنطقة. عقد الاجتماع في صالة تابعة للبلدية بطاولات وكراس للاجتماع، مع مستلزمات إعداد القهوة. غالبية المجتمعين عجائز وفقراء، الأصغر سناً بينهم تجاوز الخمسين. لا يزالون يرون في كوبا وكاسترو ما كاناه منذ نصف قرن، ولا يزال انشغالهم يتركز على السلم العالمي و"الإنسانية"، التي اختاروها اسماً لمجلة الحزب الاسبوعية. قلت في نفسي ربما كان هذا قاسم مشترك للشيوعيين: يكبرون ولا تكبر أفكارهم.

سألت "الرفيقة" عن هذه الحال، لماذا لا يقبل الناس على الانتخابات، أم أن هناك من يقاطع مثلاً؟ قالت إن الناس هنا ملت الانتخابات، يرون إنها لا تغير شيئاً. وأضافت، أنتم تموتون في سوريا من أجل هذا، والناس هنا تفقد اهتمامها فيه. ثم استدركت قائلة إن غالبية المصوتين يأتون في المساء عادة. غير أن مشاركة الناس في المساء لم تكن أكبر بكثير. أغلقت الصناديق، وأعلن رئيس البلدية النتائج التي تقدم بها اليمين واليمين المتطرف. سألتها عن فوز اليمين وحلول المرشح الشيوعي في ذيل القائمة، قالت بنبرة فيها غضب ويقين، ذلك لأنهم يسيطرون على الإعلام، (هنا أيضاً يلتمس الشيوعيون العذر لإخفاقهم خارج ذاتهم)، ودعتني العجوز وخرجت ببطء وهي تتكئ على عكازها.

عائداً إلى البيت من جولة الاستكشاف المسائية، قلت في نفسي، يا له من عيد حين أجد السوريين وقد ملّوا من الانتخابات التي لا تزوير فيها ولا سلبطة ولا عنف من أي نوع.

المنفى السوري
موزُ الثمانينات

سليم البيك

في الثمانينات، أمضيت طفولةً ما في سوريا، في حلب تحديداً، بقي في ذهني منها صورٌ عديدة، وهذه أذكرها بتفاصيلها: كنت أمشي مع أمّي في أحد شوارع المدينة الفرعية، أذكر برداً وشتاءً خفيفاً ومساءً في تلك الصّورة، لكنّي أذكر اللون الأصفر الفاقع كان آنذاك، للموز المعلّق عند باب أحد محلات الكوكتيلات، الصّورة عندي متوقّفة هنا، كيف مشينا بعدها وأين صرنا وما الذي حكينا به أمي وأنا، لا أذكر منه شيئاً، الصّورة توقّفت عند الموز، عند لونه كأنّه أضواء نيون صفراء منحنية معلّقة على زاوية باب المحل.

كانت حياتي آنذاك أكثر بساطة. كنتُ، باختصار، طفلاً. يعني أنّي لم أعرف ما الذي يعنيه حافظ الأسد كما أني لم أعرف لماذا كان الموز آنذاك غالياً، عزيزاً، أراه ولا أحصل عليه. اليوم، وقد صارت حياتي أكثر تعقيداً، لدرجة أجدني فيها أكتب عن الموز والأسد، أجد معنى المنفى السوري، اليوم وأنا في فرنسا، في الموز أمس في سوريا، بل هي أكثر تعقيداً مما ظننت، فالموز الذي لم أستطع طلب شراء حبّة منه آنذاك (يكاد بيتي اليوم لا يخلو من الموز) صار اليوم عندي رمزاً استعادياً للمنفى المسبق في سوريا، المنفى غير التقليدي، غير المتعلّق بابتعادٍ جغرافي لأحدنا عن بلده. هو، أكثر، منفى البلد عن أهله وليس الأهل عن بلدهم.
لم يبدأ المنفى السوري اليوم، أو في السنوات الأخيرة مع اللجوء إلى خارج سوريا تجاه البلدان المحيطة أولاً وأوروبا والعالم كلّه ثانياً. هي الفكرة الأولى للمنفى، هي التعريف المعجمي المبسّط للمنفى، المُطبّق ميكانيكياً على كل مهجّر من بلده، لكن السوريين (والكلمة تشمل دائماً فلسطينيي سوريا كذلك) لم يتعرّفوا فعلياً على المنفى هنا، في أوروبا مثلاً، إنّما عاشوه أكثر في سوريا، دون أن يطابق ذلك التعريف المعجمي لما هو المنفى، ودون أن يشعر آخرون بمنفى السوريين في بلادهم.
ما كنتُ لأكترث بالموز لو لم أره، ما كان ليخطر لي أصلاً. كيسٌ أحمر صغير من ''بطاطا ديربي'' أمكن أن ينسيَني أن هنالك موزاً في هذه البلد وأنّه، وهو الأهم، لا يُنال أو لا يتوجّب نيله. كأنّ هنالك قراراً رئاسياً بتوفير الموز بالقدر الكافي ليراه السوريون وبالسعر الكافي ليعجزوا عن شرائه.
في ندوة أقيمت في برلين الصيف الماضي، سألني أحدهم إثر قراءتي لورقة عن منفى فلسطينيي سوريا، أجبته بكلمتين، لا موز فيهما، لا أذكر سؤاله لكنّ جوابي كان قصيراً

وكان فكرةً أتتني، لا أعرف كيف، لحظتها: لا، ليس المنفى الجديد للسوريين هو ما حصل اليوم، المنفى الحقيقي هو ما عاشه السوريون في بلدهم، وقد تكون سوريا عندهم اليوم، وهم منفيون عنها، أقرب إليهم مما كانته قبل أعوام.

كان هذا، على ما أذكر، كل ما قلته، ليس بهذه الدقّة في التعبير طبعاً وأنا شبه واثق أن فكرتي لم تصل لسائلي كما أردتُها أو أريدها هنا. قطعتُ كلامي وصرت أفكّر به، فأثناء الإجابة وبعدها خطر لي أن حديثاً كثيراً يمكن أن يُقال في ذلك، فكّرت أكثر بالموضوع لاحقاً إلى أن تذكّرت ''حادثة'' الموز، فقلت لنفسي بأنّ أي أمر آخر يمكن أن يصوّر المنفى السوري ما قبل 2011غير الموز في الثمانينات!

ليس عدم القدرة على شراء موزة منفى فعلياً إلا إن كانت الموزة أمامك، تعرف أنّها هنا دون أن تجرؤ على مدّ يدك لتناولها أو لمسها، وتعرف مسبقاً ما سيكون ردّ أمّك إن قلت لها ''ماما، بدّي موزة''. لا أعرف إن كان لغير السوري أن يدرك قلق طفل في الثمانينات من أن يحاول سؤال أمّه عن موزة في ''سوريا الأسد''.

لا يعنيني الموز كثيراً ما لم يكن أمامي، لكنّه سيعنيني حتماً، أمس واليوم، إن كان أمامي مع رغبةٍ في نيله وعجزٍ عن ذلك. وذلك تحديداً هو المنفى السوري في زمن الديكتاتورَين، منفى السوري في بلده، السوري الذي لا يرى غير بلده، شوارع ومبان وأشياء وأناس، ويعرف تماماً أن البلد كلّها كالموز، أمامك ولا تناله.

حتى المنفى السوري تهجّر، نُفي المنفى إلى أوروبا، ليمارس السوري هناك ما لم يكن يستطيعه في بلده، من شراء الموز إلى الحديث في السياسة في الأماكن العامة، إلى شتم ماكرون وميركل (عطفاً على الأسد). المنفى الذي عرفه السوري وتوارثه في بلده، لم يعد موجوداً، أقلّه لإشارة أحدهم بأنّه: أووووف من زمااان لم نقل ''للحيطان آذان'' أو ''وراء الشمس'' أو ''الموز غالٍ'' أو غيرها من الصّور التي اقترنت بمنفى السوري في بلده. لن أنسى أبداً كيف انتشلت مني خالتي مرّةً صفحةً من جريدة عليها صورة بالأبيض والأسود لياسر عرفات وخبّأتها دون أن أعرف أي خطأ ارتكبتُه في التجوّل علانية في البيت بهذه الصورة.

لا أقول بأن لا منفى للسوري اليوم، بل هو منفى إنّما يعرف السوري فيه أنّه منفيّ، يعبّر عن منفاه، عن حالته، عن علاقته بالمنفى وبالبلد التي نُفي عنها، عن علاقته بالدولة المنفي فيها، بالمجتمع والناس هناك، بأصدقائه وأهله ومعارفه، جدداً وقدامى، المشتركين معه في إقامته الجديدة، منفيين كانوا أم مقيمين ومواطنين.

المنفى الأشد والأقسى هو الذي عاشه السوريون داخل بلدهم، طوال ٤٠ عاماً من حكم آل الأسد، المنفى الذي يعجز المنفيون عن الاعتراف به، عن مجابهته، عن التصالح معه. هناك حين كانت علاقتهم ببلدهم مضطربة وقلقة، العلاقة التي صارت أقل اضطراباً وقلقاً هنا في منفاهم الجديد. المنفى السوري الفعلي هو ما سبق 2011، هو المنفى غير المعجمي وغير المطابق للمعايير البشرية لما هو المنفى.

لا أعرف إن كان المنفى الحالي، في أوروبا، هو استرداد الكلمة في السياق السوري لمعناها العادي، من السوريين، لتكون سوريا أقرب إلى السوري خارجها منها إليه داخلها، ليستعيد السوريون في منفاهم معنى الوطن والحنين الذي سُلب منهم لعقود وأجيال، وطن وحنين ومعانٍ لها حُرّم على السوريين التصريح بها لأربعين عاماً.

لا أجوبة لديّ عن كل ذلك إنّما ما أعرفه تماماً الآن هو أن صورة سوريا لدى أهلها المنفيين عنها استعادت معانيها، صارت سوريا بلا يوميات أسديّة، من غلاء الموز إلى ضرورة رشوة الموظّف إلى سماع أحدهم في الشارع يصرخ في وجه آخر إن كان يعرف مع من يتكلّم.

''سوريا الأسد'' تتلاشى لدى السوري المنفي، وهذا بحدّ ذاته يمهّد لاستعادة، من خلال المنفى كبعد جغرافي، لصحّية العلاقة مع سوريا حين يعود يوماً أهلُها إليها.

أسئلة المنفى السوري المعقَّد

ماهر مسعود



لماذا نكتب! ولماذا علينا أن نشرح أنفسنا ونتكلم عن هذه التراجيديا التي لا تعرف لها نهاية؟ ما الفائدة؟ هل لنزيد فهم العالم لقضيتنا! وعلى افتراض أن العالم لا يفهم ما يحصل في سوريا؛ وهو يعرف ويفهم، ما الفائدة إذا فهم أكثر، وما الذي فعله أو يفعله الفهم لتغيير طريق المأساة السورية العابرة للقارات والمؤبدة في زمن السوريين منذ 7 سنوات عُجاف! هل غير فهم الحدث التاريخي التاريخ يوماً لكي يغيره اليوم! إذا كان البشر لم يتعلموا من تجاربهم سوى التكرار، فما هي فائدة الكلام والفهم والتوضيح سوى العرض المأساوي للمأساة؟ أليس الكلام عن سوريا كمنفى، وعن السوريين المنفيين في شتى بقاع وبحار وجزر وصحاري الأرض هو نوع من استجداء العواطف المقيت، والمخالف لكل أنواع الكرامة التي حملت ثورة السوريين مثلما حملت نعوشهم! أم أن وظيفتنا هي التأريخ لمأساتنا كمن يبادل الموت بالوعد!

أليس المفروض أن نتوقف عن الصراخ ونتألم بصمت، ونموت بصمت، طالما أن من نصرخ في وجهه يستمتع بصراخنا في عالم أصمّ، وطالما أن صدى صوت الألم السوري بات يغيب في ظلمة الفراغ اللانهائي لطول المأساة، وكثرة تفاصيلها، وخفوت وهجها، وفقدان الأمل منها.

لكن ومن جهة أخرى، أليس صمتنا هو الجائزة التي ينتظرها النظام منذ 7 سنوات؟ ألم يكن هدف النظام الأول مذ خرج السوريون في وجهه هو إعادتهم إلى الحظيرة الصامتة "الآمنة" التي ورثها عن أبيه. لنتذكر أنه بعد سحق الإسلاميين في الثمانينيات، وسحق اليساريين بجريرتهم، وسحق المجتمع كاملاً بجريرة الإثنين معاً، لم تتحول سوريا إلى أكبر معمل للمخابرات في المنطقة فحسب، بل أصبح المجتمع الصامت مجتمعاً مرعوباً من نفسه، قبل رعبه من السلطة التي يتنفسها في الهواء الآسن للخوف المقيم، وأصبح المواطن الآمن يذهب للبيعة للقائد الخالد كما يذهب القطيع للجزّ أمام مقصلة النعم، وبات فوز القائد الرمز في "الانتخابات" يفوق فوز الرسول في البيعة، بحيث لم يجد حرجاً في أن يعلنه

100% في عام 1985 ثم 99.99 في عام 1991، وذلك بعد انتصار الأب المطلق على المجتمع "الإرهابي"؛ مثلما يحاول أن يفعل اليوم، وبعد انتصاره على العالم؛ مثلما يجري اليوم، عبر تأدية بعض الخدمات الإرهابية هنا وهناك، والمراهنة؛ مثل اليوم، على أمن إسرائيل وحاجاتها الحيوية والحياتية إليه. لنتذكر أيضاً أن الدور الذي أدته العربية السعودية والأردن وعراق صدام في دعم الإسلاميين ثم في خذلان السوريين في الثمانينيات، هو ذاته الدور الذي قاموا به اليوم مع تبديل صدام بإردوغان والعراق بتركيا.

لم يخرج سورياً واحداً منتمياً للثورة لكي يَقتُل أو يُقتَل، خرج الناس رغبة بالاعتراف بهم وبكرامتهم وبحياتهم وحريتهم، بعد أن كانوا مُعنفين ومُغيبين وغير مرئيين من نظام لا كرامة له، ولا كرامة عنده للبشر، ولا اعتراف منه في أحد سواه، ولا حرية فيه إلا لنفسه، تلك الحرية التي لم تعن سوى حريته بقتلهم واعتقالهم كما يشاء وبالطريقة التي يشاء.

لكن اليوم، بعد أن قُتل السوريون وعُذبوا وغُيبوا بوحشية أكبر من السابق، لا ينطرح السؤال عن معنى الكتابة وحدها، بل عن معنى الفعل، جميع أنواع الفعل، العسكري والسياسي والفني والأدبي والإعلامي والافتراضي والواقعي _داخل سوريا أو وخارجها_ ضد نظام الأسد، هل هناك أي معنى للفعل طالما أنه لا يجلب للسوريين إلا المزيد من القتلى والمعتقلين والمهجرين؟ وفي السؤال عن معنى الفعل تنطرح أكبر معضلة أخلاقية واجهت الثائرين على النظام منذ المظاهرات الأولى حتى اليوم، فقد كان السؤال وما يزال، هل علينا أن نمضي قدماً رغم معرفتنا منذ الخطاب الأول لبشار الأسد أمام مجلس الشعب أنه اختار المعركة، اختار القتل، وبأنه لن يتنازل إلا مقتولاً، تخيلوا... رئيساً مُنتخباً _على رأي الشاعر_ يخاطب شعبه (إذا أردتم المعركة فأهلاً وسهلاً)، أنا أو المعركة، أنا أو لا أحد، أنا أو أحرق البلد! بالفعل لم تكن تلك الشعارات التي خطَّها جنوده في كل مكان في سوريا سوى تتمة طبيعية... ترجمة لخطابه.

نعود للسؤال المعضلة، هل نتراجع أم نمضي قدماً! وهل بإمكاننا التراجع أصلاً دون فقدان الكرامة مثلما فعل العديد من العائدين لحضن الوطن! وإن تراجعنا كأفراد، هل سندفع الآخرين للتراجع مثلنا مع معرفتنا بأن التراجع لا يعني سوى الذل، والعودة لحياة أكثر ذلاً من الحياة التي خرجنا لنجعلها قابلة للحياة! هل سنقف على الحياد في مقتلة يذهب ضحيتها شعبنا ذاته، هل يمكنك فعلاً أن تقف على الحياد أمام مقتل طفل في الصين وليس في بلادك! ألن تميل نفسك ببساطة لتدين القاتل، ألن تشعر ببساطة أن القاتل مجرم! حياد السوري اليوم لا يعني سوى أحد أمرين: إما صمت المرعوب المُغطى بالحياد (وهذا يذكرنا بسوريا السابقة، حيث كان يمكنك أن تشعر بمدى حيادية المجتمع المرعوب تجاه الدولة وسلطتها، فهو لا يتدخل بقرارات دولته المتعلقة بأشياء تخصه،

وكأنها قرارات دولة أخرى عن حياة أحد غيره، هو صامت وحيادي)، والمعنى الآخر هو الحيادي المُقنّع، المشارك بشكل أو بآخر للسلطة بامتيازاتها وقتلها للبشر.

لكن بالمقابل، أليس المضي قدماً هو انتحار وجنون، وهل ندافع عن الجنون عندما يكون ثمنه موت الآخرين، أليس هذا "توريطاً" للناس بموتهم شبه المحتم! ثم هل يحق الكلام لمن هو خارج المعركة، خارج سوريا، لماذا لا ننزل للقتال بدل البسطاء الذين يتلقون القصف والقتل ليل نهار، بدل التأمل والكتابة والعمل السياسي والنشاط المدني والانساني الخ! لكن هل الثورة عملاً مسلحاً فحسب، وهل نوافق أصلاً على العمل المسلح لكي نشارك به، ثم ماذا فعل العمل المسلح حتى اليوم، ألم نعرف منذ البداية أن نسبة النجاح لأي ثورة مسلحة لا يتعدى الـ 3 بالمئة، ألم يكن السلاح هو إحدى أكبر إشكاليات الثورة المُختَلف عليها بين السوريين؟ ثم عمّن ندافع ومن يمثل صوتنا على الأصعدة السياسية والعسكرية، إذا كانت الساحة السورية قد أصبحت ميداناً لآلاف الأعداء، وأعداء الثورة من ممثليها ليسوا أقل من أعدائها المحاربين ضدها.

عمّن ندافع، إذا كان الممثل العسكري المفاوض باسم الثورة قادم من جيش الإسلام، خاطف رزان زيتونة ورفاقها، أبناء الثورة الأكثر نبلاً وأصحاب أهم مركز لتوثيق الانتهاكات أنتجته الثورة، وإذا كان التنظيم الوحيد المنظم سياسياً في المعارضة هم الإخوان المسلمون، أكبر تنظيم انتهازي بتاريخ المنطقة، وأهم تنظيم مساهم بإفشال الربيع العربي من أوله لآخره.

في البداية كان الأمل ببناء سورية ديمقراطية وصالحة للحياة كبيراً، بينما يبدو السوريون اليوم كمن فقدوا هذا الأمل، مثلما فقدوا الخيارات، وتبدو مجمل خيارات الناس اجبارية، من رحل رحل مكرهاً، ومن بقي بقي مكرهاً، ومن يقاتل يقاتل حقده، خساراته، أكثر من كونه يقاتل ضمن أمل واضح واستراتيجية مفهومة. الجميع يعرف أنه لا شيء يعوض خساراته، الجميع ينتظر نهاية ما لكابوس واقعي ولا يُصدَّق في آن معاً.

من باب العدل؛ الذي لن يجد له طريقاً لهذا العالم، ربما كان حريٌّ بالعالم أن يشعر بالذنب تجاه السوريين ويعاملهم "كنبلاء حرب" بدل الهرولة نحو مجرم الحرب الذي شرّدهم، وبدل تحميلهم ذنب مجمل مشاكله دفعة واحدة، بحيث لم يبقى عنصري على سطح هذا الكوكب المريض إلا ووضع مشاكل بلاده فوق ظهر السوريين وبسببهم، وكأن وجودنا ذاته بات جريمة وعلينا أن ندفع كفارته بالموت، مع أنه، ومن باب العدالة أيضاً، كان حري بالعالم أن يحاكم نفسه ويغسل عاره بعد أن سقط في اختبار الكرامة الإنسانية الذي وضعه السوريين به، أمام نفسه، وأمام قيمه التي كانت تنهار واحدة تلو أخرى مع كل ضحية جديدة تسقط في المقتلة الجماعية السورية، تلك المقتلة التي حدثت مكشوفة جداً "كقصة موت معلن".

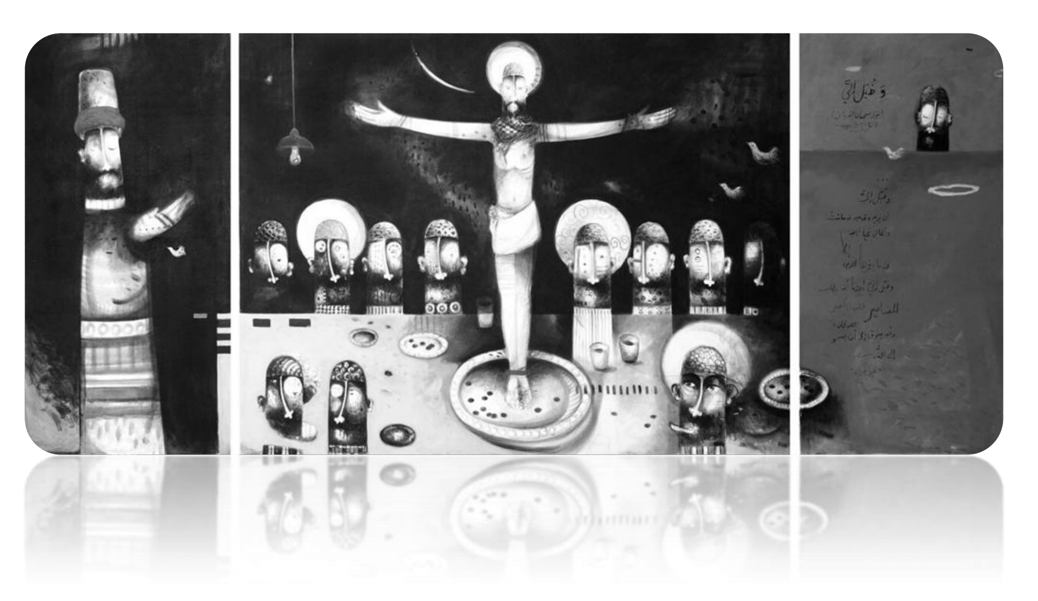
لا تبدو واضحة، ولا سهلة، كيفية التمييز بين سوريي الداخل والخارج عندما يكون الحديث عن المنفى، فقد يُعرَّف المنفى على أنه ابتعاداً جغرافياً قسرياً عن الوطن لأسباب سياسية، وربما كان من شروط المنفى، لكي يكون منفى، انعدام القدرة على العودة لأرض الوطن طالما أن النافي على قيد الوجود، في الحكم أو في الحياة نفسها. لكن هل المنفى السوري منفىً جغرافياً فحسب، وهل بقي أصلاً معنى لسوريا نفسها لكي يكون المنفى هو مجرد خروج منها، هل يستطيع المهجر من داريا إلى إدلب العودة لأرضه، وهل يمكننا أن نسمي أهالي إدلب نفسهم الذين يعيشون تحت حكم جبهة النصرة، على أنهم يعيشون في إدلبهم التي اختاروها وخرجوا لأجلها، إذا كان علم الثورة يُداس في إدلب، كما تداس كرامة الناس في أرض النظام بعنزة لشهدائهم، أو بساعة يعلقون عليها زمنهم الأسود.

خرج السوريون ضد عدو واحد، فبات لديهم ألف عدو، أعداء من الخارج وأعداء في الداخل، ميلشيات غريبة تحتل أرضهم وتقتلهم، وميليشيات صديقة تحتلهم ولا تمثلهم، تقبض على مجندين في ميليشيا الأسد، لتجد جلهم؛ إن لم يكونوا كلهم، هاربين من الجندية مقبوض عليهم على الحواجز، ومرسلين إلى أرض المعركة، حيث تَقتُل لكي لا تُقتل. وكأننا نعيش في دوائر حلزونية لا تؤدي سوى إلى الجحيم.

كمن يحمل صخرة سيزيف، يحمل السوريون فشل ثورتهم فوق أكتافهم أينما حلّوا، وأينما كانوا، فلم يُنف السوريين عن بلادهم وحدها، ولم يُنفوا داخل بلادهم فحسب، بل باتوا منفيين عن بعضهم في منافٍ لا تكف عن الضيق والانقسام، معارضة تنفي معارضة، وثقافة تنفي ثقافة، ونظاماً ينفي الجميع ليبقى. ضحايا يمارسون العنف والإجرام والحقد على ضحايا مثلهم، ومنفيون يمارسون النفي على منفيون مثلهم، بحرٌ معقد من المنافي الغارقة في ظلماتها وتوحدها، ولا شطآن بادية في الأفق، لكن لا عودة، ولا طريق أمام السوريين إلا الأمام، فقد مر زمن بعيد على تلك الفكرة القائلة بأن الفشل يعني اليأس... على العكس، على كثر ما يأس السوريين، لم يعد يعنيهم اليأس، إلا كمرتكز تحت أقدامهم للوقوف، للمحاولة، لبداية جديد، من جديد.

ذات صباح برفقة بوبي

عمر قدور



تنتزعني من شرودي عينا بوبي الصغيرتان؛ كان ممدداً قبالتي، ساقه اليمنى مسترخية أو متهدلة فوق ساقه اليسرى. سأظن أن عينيه لمعتا لحظة التقت نظراتنا، بالتأكيد هي أشعة الشمس التي دخلت الصالون حينها، وانتزعتني من شرودي في الشجرة التي أراها كل يوم. سأقول له: صباح الخير بوبي. لا أدري إن كنت قد نطقتها حقاً، لكنني سمعت صوتي يقولها، ربما تخيلته وهو يلفظها خافتاً مع ابتسامة خفيفة ساخرة، ساخرة مني بالطبع.

هذه هي المرة الأولى التي أنفرد بها ببوبي في البيت، سوسن في الجامعة ودفا في المدرسة، وأنا وبوبي بمفردنا، صامتين، هو صامت كعادته، وأنا أيضاً صامت كعادته. أفكر: ربما لو أمسكت بيده لسرى بيننا كلام صامت مثلنا، كلام مفهوم يصعب

قوله أو شرحه. ما كان عليّ التفكير هكذا، لأنني

سأتذكر آخر لقاء لي بصديقي محمد، كان على سريره في المستشفى، دخلت وصافحته، أبقى يدي في يده وأشار لي بأن أقرّب

الكرسي لأجلس إلى جانبه. لا أدري كم من الوقت مضى وهو ممسك بيدي؛ بقينا بلا أية نأمة، فقط عندما يصل الحديث الصامت إلى ذروة ما كنا نتبادل الضغط برفق على اليد، إلى أن شدّ على يدي مكتفياً ومودِّعاً.

أشعر لوهلة بوحشة تشبه تلك التي انتابتني عندما سمعت بوفاة صديقي محمد قبل أربع سنوات، مع أن الصباح رائق، ولم أفتح صفحتي على فيسبوك لتطالعني أخبار القتلى ممن هم أقرباء أصدقائي الافتراضيين أو الواقعيين أو عموم القتلى. وكنت للتو أراقب من النافذة سنجاباً أوقع من على الشجرة كمية ضخمة من ثمار الكستناء في حديقة البناء الذي أسكن فيه، كنت أكرر لنفسي أنني لو قُيّض لي اختيار الكائن الذي أعيشه فسأكون سنجاباً. في

درس الفرنسية، عندما طرحت علينا المدرّسة لعبة "لو لم أكن لتمنيت أن أكون" على أن تنحصر التمنيات بكائنات أخرى، اخترت القول بأنني لو لم أكن بشرياً لتمنيت أن أكون سمكة. وجدت التحدث عن السمك، لتبرير الأمنية، أسهل من اختيار السنجاب بالنسبة لمبتدئ في اللغة، فنحن لا نرى أنواعاً من السناجب تحدق بنا بعيونها الواسعة في الأسواق، كما أن رشاقة السناجب تجعل القبض عليها صعباً في الحياة وفي اللغة. أيضاً في امتحان اللغة اخترت السمك، وأنا أمثّل دور الزبون في المطعم؛ يخطر لي أن المدرّسة وذاك الذي امتحنني ينظران إليّ بوصفي "الرجل السمكة" بدل السنجاب الذي أتمناه، وعليّ الاعتياد على هذا مثل اعتيادي على نُطق اسمي هنا الذي لا يُبقي من الأصل سوى حرف الميم والفتحة. على أية حال، قد يناسب وصف السمكة اللاجئ أكثر من السنجاب، إذ تحيل السمكة إلى البحر وهذا بدوره يحيل إلى قوارب النجاة أو الموت.

رأيت السنجاب مرتين فقط في سوريا، في الجبال القريبة من "وادي العيون"، وربما أعتاد قريباً على رؤيته مثلما اعتدت على منظر حبات الكستناء الساقطة أمام النافذة أو في الشوارع. هو بالأحرى ليس اعتياداً صافياً، بل ثمة فصل يقوم به ذهني تلقائياً، تصبح بموجبه هذه الحبات غير شهية وغير مثيرة للانتباه، لتبقى الكستناء مرتبطة بمدافئ المازوت هناك. لا شهية لدي، أو لا جرأة، لتذوق الكستناء المشوية سوى على النحو الذي فعلته من قبل، وفي المكان ذاته. ألتفت إلى بوبي، وكأنه يتابع مونولوجي عن السنجاب والكستناء، وأسأله: أنت، لو لم تكن بوبي، ما الذي تتمنى أن تكون عليه؟ فكّرْ جيداً، ولا تقل لي كما قال المتنبي: ليت الفتى حجر.

كانت ابنتنا دفا في شهرها السادس عندما ذهبنا لنشتري لها عربة أطفال للنزهات، في الواقع كانت النزهات تقتصر على الحي الذي نقطن فيه، الحي المحاط بثلاث جبهات مشتعلة. لم تكن النزهة تخلو من مخاطرة وقوع القذائف فوقها، الخطر الذي يبقى قائماً مع البقاء في البيت. مع مرور الوقت يتضاءل الخوف من قذائف الهاون، أي بعد أن تسقط مرات عديدة على مسافة أمتار منك. إثر شرائنا العربة لفت انتباهنا دب قطني، ترددت سوسن في شرائه بسبب حجمه الضخم نسبة إلى حجم طفلة في عمر ابنتنا، طفلة ضئيلة الحجم أصلاً بسبب الولادة المبكرة، لكننا اشتريناه وعدْنا به إلى المنزل، ولم تكترث دفا به إطلاقاً.

كانت دفا قد أصبحت في شهرها التاسع عندما صرنا في لبنان، بدت متوترة مع البيت والمكان الجديدين، حتى تلك العربة التي أَلِفتْها بقيت في الشام واستبدلناها بأخرى. ربما بعد أربعة أيام أو أسبوع كنت أحاول تهدئتها، أمسكت بالدب وافتعلت حديثاً معه للفت انتباهها، لم تنجح محاولتي لكن الاستمرار فيها تطلب أن أطلق عليه اسماً، قلت لها إن اسمه بوبي، ولا أدري من أين أتت ذاكرتي بالاسم، لكنني سأكتشف لاحقاً أن اسمه هكذا وهناك سلسلة من قصص الأطفال مكرسة لشخصيته، لكن رغم ذلك لم نعثر على نسخة من بوبي في أي مكان ارتدناه. مع نطقي بالاسم لمعت عيناها، وأخذت بوبي واحتضنته. صار بوبي جزءاً حميماً من أسرتنا، ومؤخراً صارت تضيف لاسمه اسم عائلتنا بين الجد واللعب.

بالكاد، على كثرة صورها، يمكن العثور على صورة لا تحتضن بها بوبي. في باريس سيشرح لي الأمر صديق صاحب تجربة، فالأطفال يحبون الثبات، ويتعلقون

بشدة بالأشخاص والكائنات التي تبقى مرافقة لهم، كتعويض عن المكان والناس المفتقدين، وكتعبير عن الخوف من فقدان الباقين أيضاً. ربما يكون سرّ هذه الكائنات القطنية في أنها تحتفظ برائحة المكان الأصلي، الرائحة التي لا يشمها ويميزها سوى الطفل نفسه، لأنها تعني له الأمان.

في الحضانة، وبعدها في المدرسة، سنرى الأطفال بين عمري الثانية والرابعة يبكون عندما يتركهم أهلهم. دفا لم تبكِ أبداً ونحن نتركها، أحياناً فقط رأيت على وجهها سحابة أسى عابر، لكنها تهز رأسها إيجاباً عندما أسألها عما إذا كانت تحب المدرسة. سنكتشف متأخرين أنها كانت تبكي، لكن ليس أمامنا، ولا تتوقف عن البكاء إلا عندما تحضن بوبي. نحن أيضاً وقعنا في فخ بوبي، ففي إحدى المرات نسيته في مدرسة أخرى للأنشطة وراحت تبكي بشدة، فأصررنا على عدم انتظار اليوم التالي، أخبرناهم بأنها لن تنام بدونه وأنه رفيقها منذ كنا في سوريا، وهكذا أتوا به من المدرسة الأخرى سريعاً.

في الأسابيع الفاصلة بين الحضانة والمدرسة كان بوبي قد ناله الكثير من محبتها ونزقها، ونحن أيضاً نلنا كثيراً من ذلك النزق. كانت تقترب من إتمام عامها الثالث ولم تبدأ بعد بالكلام، تتمتم فقط بكلمات غير مفهومة، وصارت مستوحشة إزاء الغرباء. مرة واحدة تفاعلت مع صديق تكلم معها بالفرنسية، لكن لم أتوقف عند هذا الأمر مطولاً. صديقة سورية مقيمة هنا منذ زمن طويل ستكشف لنا بالمصادفة أن طفلتنا تتحدث معنا بالفرنسية، الفرنسية غير المكتملة كحال لغة الأطفال الصغار، بينما نحن طوال الوقت ننتظر منها التحدث بالعربية، على افتراض أن الطفل لا بد أن يبدأ بالتحدث بلغة أهله الأم.

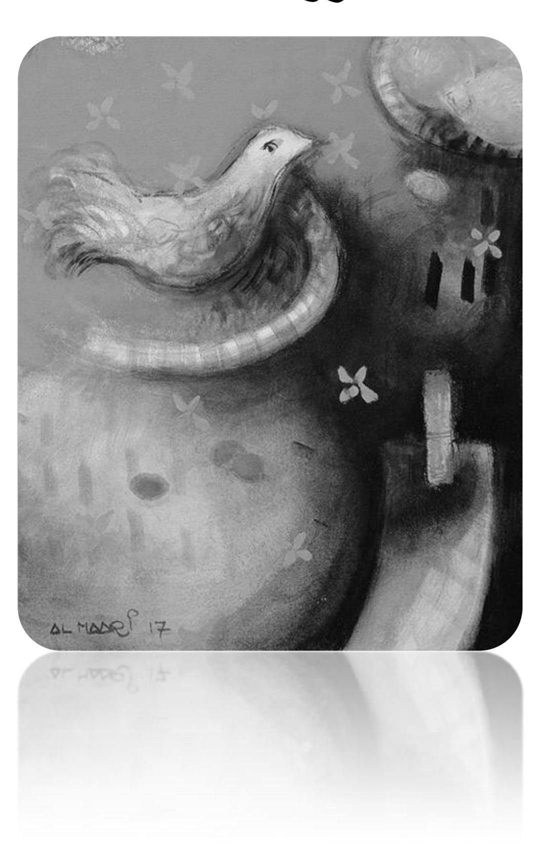
الآن، مضى على ذلك كله حوالي السنة، تصالحتْ أثناءها مع وجود لغتين، ومع عامها المدرسي الجديد تصالحت مع فكرة التخلي عن بوبي وعدم اصطحابه إلى المدرسة، وهكذا بقي قبالتي في الصالون. لكن موسم الأسئلة الصعبة يُنذر بالاقتراب، فهي قد عرفت مثلاً أن لأقرانها جدّات، بينما أفضل شرح استطعنا تقديمه أن أمي التي تحادثها أحياناً عبر فايبر أو واتس آب هي "مامي" بالفرنسية. نتحسب للأسئلة التي لا بد أن يحين موعدها، أسئلة من نوع: لماذا نحن بلا أهل هنا؟ لماذا هي بلا أقارب؟ ماذا يعني أننا سوريون؟ ولماذا غادرنا بلادنا؟ أسئلة سيكون من الصعب أن تجيب طفلاً عليها من دون أن تكسر طفولته، ومن الصعب أيضاً إفقاده حقه في أن يعرف الحقيقة.

أنظر إلى بوبي وأقول له: ربما أنت الأجدر بإجابتها على كل هذه الأسئلة. أنت الذي رافقتها أكثر منا. أنت الذي يعلم أن كل ذلك المونولوج عن السنجاب وشجرة الكستناء كان هروباً من الأسئلة المدمّاة، وأنني لا أتجرأ على النظر في عينيك وإخبارك برؤيتي إياك قبل أيام في المنام تنزف دماً، وحولك وفوقك ركام من الحجارة والغبار جراء قصف الطائرات. لا تقل لي أنك لا تستطيع النطق، فمن ينزف لا بد أن ينطق. أو، إذا شئت، تذكّرْ معي تلك القصيدة للشاعر التشيكي فلاديمير هولان، القصيدة التي عن سجين يتحدث طوال سنوات إلى جدار الزنزانة، ثم يقول: والآن أترك لكم هذا الجدار ليحدّثكم.

شَرَكُ الحواجز

نصٌ ميتا روائي يحتفي بالعبورِ من الجحيم إلى الجحيم

محمد المطرود



حاجز الكويت درعا

لم تكن مصادفة أن أقرأ رواية (رسمت خطاً في الرمال) لهاني الراهب، لأقعَ فريسة لتلك الرمال، وتلتفَ أحابيلُ فهمي للغريب الذي أنا في بلادٍ أبسط ما يقال عنها: "عربية". يمكن للداخل أن يستشعر المرارة من بوابة البلد/ مطارهُ الذي تلفهُ الوحشة والغبار، فيما لو ارتفعت عن أرض دمشقَ حيثُ بعض الخضرة والثكنات العسكرية والأسلحة المحيطة بمطارٍ يستقبلك بصفعة ويودعك بها، هنا الموظف سيد على العربي أياً كانت جنسيته، ويمكن للموظفة الكويتية أن تبيعك تذمرها، كما لو أنّكَ جئتها متسولاً أو سارقاً لمصاغها أو أثاثِ بيتها، بعدَ هذا الاستقبال ستلجُ المدينة، لتراها واضحة رغم نشوة الغبار وزهوه بنفسه، وفيما لو دخلتها بلا سندٍ من أهل سبقوك إلى المكان أو أصدقاء فسترى كم أنّكَ غارقٌ في وحشتك، وكم تتحول المدينة إلى كثيب رملي فحسب، سيمرّكَ السيّارةُ يتحدثون لغتك، غير أنّهم لن يلمحوا تلويحتك ولن ينتموا ولو للحظة إلى صرختك ولا إلى الخط الجديد الذي سترسمه وتسقط في دائرتهِ مثل حجرة ثقيلة إلى الهاويةِ. أياً يكن الأمر، رحتُ أشعل شمعتي، وأوهم نفسي بأنني بددتُ العتمة، ووجدتني بينَ كائناتٍ طيبة، شكّلت دائرتي الضيقة، فرحتُ أمارس عادة التحدي السرية، وقلتُ: الحياة ليست بائسة والأشجار القليلة والطيور خلا النوارس على الشاطئ بمائه الكاكي، ستقربني كثيراً من وطنٍ صغير قائمٍ على دعامة الأمن، ومقولة: "البعث هو الحزب القائد للدولةِ والمجتمع"، كلُّ هذهِ الألوان المائلة للبني، تحيلني إلى العسكر من طالبِ الفتوة إلىَ الجندية الإجبارية في (الجيش العربي السوري)، وتجعلُ إحساسي بالمسافةِ الصفرِ متوهجاً، حيثُ تتشابهُ كانتوناتِ الحلم/ الوهم: الوطن العربي.

ستجيء يارا بعينيها السوداوين، وشعرها الأسود، وسحنتها الخلاسية، بعد الثورةِ بشهر، وسيكونُ اسمها في اللغات القديمة: الزهرة الأولى المتفتحة على الشجرة، والمؤذنة بإتيانِ الربيع، وكذلكَ إيذاناً بدقِ ناقوسِ العودة إلى بلدٍ خطَّ الأطفال فيه أولاً: "الشعب يريد إسقاط النظام"، كانَ هذا كفيلاً بأن أستجيب لنبوءة العجوز إذ قالت: "لتكن حقيبتك رفيقتك وفي متناول يدك، أنت منذور للرحيل أكثر مما أنت منذور للموت، فلا تخف من الموت"، لقد محوت الخطَّ الذي

رسمته وأنا أتتبعُ خطى روائي على الرمال، غاص فيها كثيراً، ورجعتُ عنه حيث رأيتُ النهايات، وأردتُ نهاية غيرها!

عدتُ لوحدي، تركتُ عيني يارا، ورغم النبوءة خفتُ، غيرَ أنَّ رغبةً حدَّ الألم، دفعتني، كما يدفع صاحب الحيوان حيوانهُ، وقلتُ لا أريد للفرحة التي سيتقاسمها بلد كاملٍ بزوالِ الطاغية أن تفوتني وألّا أحظى بها طازجة وأتنفسها في الشوارعِ وأحملَ الخوف اللذيذ. وصلت درعا فجراً، أنزلني عناصر من أمن الدولة في المعبر، سلموني رسالة فيها موعد للتحقيق في الإدارة التي تتوسط دمشق وتثير الرعب في قلوب أكثر من 20 مليون سوري، في الطريق إلى دمشق رأيتُ خيمَ أهل الجزيرة الذين شردتهم سنين الجفاف والقوانين المعطّلة للحياة، فتناثروا حاملين اسمهم الجديد: "غجر الجزيرة"، كانت المسافة إلى أقدم مدينة عالمية، طويلة بفعل الحواجز النفسية والاسمنتية وهو ما عزز لديَّ شعوراً ضمنياً بصوابية قرار العودة والدخول في حياة جديدة، يتلمس فيها الإنسان إنسانيته ويخلع عن روحهِ الدرن العالق بها من عقودٍ تبعت مجزرة سميت بـ"الحركة التصحيحية"، جاءت بمجموعةٍ من الخنازير البريةِ لتحكمَ بلداً، وتسميَّ نفسها الدولة. وكما سقطتْ الدولة وصارت منظمة ربحية ومزرعة بعد مجيء حافظ الأسد، فأنَّ الدولةَ المزوّرة سقطتْ تحتَ وقعِ تلك الأصابع اللينةِ الخائفة وهي تخطُّ جملاً نوّمها السوري في سريرته كلَّ هذه السنين الطويلةِ من السجنِ الطويل.

سأصلُ دمشقَ، حاملاً رسالتي، متخيلاً أني أحمل أمر سجني القادم، وسأشارك في مظاهرة في القدم، حيث أولى بوادر نشوء الشبيحة، وسأدخلُ في السابعة مساء إدارة أمن الدولة، مودّعاً رائد وحش وسناء عون وخليل صويلح في مطعم نينار، باب شرقي، وهناك سيسألني الرائد (سمير) والذي يصغرني بعامين عن أشياء كثيرة، يعرفها عني وأخرى يستعرض فيها، ليخلص إلى طلب رأيي الشخصي بما يحدث ونصيحتي له، وسيأتي ردي: لو كنا في غير هذا المكان والزمان، أما الآن فأنتَ الضابط وأنا مشروع معتقل.

سوريا بعد 2011 معتقلٌ كبير، ولكلّ منا قصتهُ، بعضنا يكتبها، وبعضنا يقولها شفاها، وفي الحالتين نقودُ الضوء المشتعل من زيت أرواحنا إلى الأقبية المظلمة، حيث كائناتٌ عظيمة يُحبَسُ عنها الهواء!

حاجز تل أبيض اسطنبول كولن

أتّمت يارا السنة والنصف، وجهها صار أكثر استدارة، عيناها توضّحَ سوادهما، شعرها بقيَّ قصيراً، "ولم يسترسل إلى الينابيع"، وصارت بقاموسها الضعيف علامة بهجة، وقفزة إلى نصٍ جديدٍ أكتبهُ بالتوازي مع حلم شخصي أتشاكلُ فيه مع أحلامَ الآخرين، غير أنَّ هذا الجزء الأبيضَ يشوبهُ سوادٌ ينازعه مكانته، فالنبوءة بعدم الخوف من الموت، قابلها شعور عارم بالنهايةِ ووداع عيني الطفلة ويدها الصغيرة وحركتها المضطربة في المشي!

ستفردُ العجوز بظهرها المنحني وشعرها الأشيب ويديها المرتجفتين صرة الأمنيات أمامي: قطعٌ من العاج، بقايا غضار أخضر، قواقع صغيرة، كِسَر فخارٍ محروق، ونويات تمر، ستقول:" بلل نويةَ التمر بلعابك"، سأفعلُ، ثمّ أرميها بينَ أخواتها وهنَّ يتدافعنَ أمامَ نظرِ العجوزِ الضعيفِ، ستسألني عن جهةِ نواةِ التمر، سأقول:" الشمال"، ستطلقُ المرأةُ الخبيرةُ بصرتها آهٍ طويلة، ثم تلملمُ أشياءها، تنزل دمعةٌ كبيرة من عينها اليمنى، وسأسمعُ صوتها خارجاً من بئرهِ: "احزمْ حقيبتك، وامضِ إلى آخرِ الدنيا" ثمَّ ستشير

إلى خطِّ الأفق، وترسم على الهواء دائرةَ النار!

سأحملُ الصغيرة إلى حديقة قريبة من بيتي، يدها الصغيرة تتفلت من يدي، تتجهُ إلى شجيرة الورد، وتصطدم بها، تقولُ لي بابا: "وقعت". أولى جملها المكتملةِ ارتبطتِ بالسقوط، لم أقل أن ذلك فأل شر، ولم أتوسم خيراً كبيراً، غير أنَّ (منحة هاينريش بول) دقّت بابي، ورأيتُ فيها بعض النجاة وقد ضاقت عليَّ كثيراً، وكأنَ السقوط الذي عنتهُ الطفلةُ هوَ الانحدار ثانيةٍ إلى عالم الغريب الذي أكرههُ، لكني اصطنعتُ السعادةَ، وحملتُ لهبَ عشرةِ شموع، وداريتها، كما لو أنيَّ الوحيدُ على سطحِ البسيطةِ، مقاتلٌ من طرزِ الأسطورة، ينفتحُ بالضوء الذي في داخلهِ على العتمةِ ليبددها.

الكتابة خيانة، الكتابة ترجمة نفسية أولاً، ولا توجد ترجمة نزيهة، هكذا فلسفتُ عجزي عن ملاحقةِ تفاصيل صغيرة وأخرى يأخذني الخوف عنها، واربت طيلةَ الوقت، ورحت أرسمِ على الرملِ والماءِ لأمحوَ بسهولةٍ_ هكذا ظننت_ ما فعلتهُ في لحظة شرود أو إغواء، متخلصاً ولو إلى حينٍ من حبلِ الأنشوطةِ المتدلي أبداً، ومن عقودٍ أكلتها باللاجدوى والخسران، كما لو أنيَّ اليومَ أقضمُ أظافري نَدماً على أشياءَ لم أفعلها واعتذرت عنها طويلاً.

صنع لي أصدقائي، الذين توازعوا معي الحيرة والخوف وداعاً يشبه الرثاء، لم يعلموا ولم أعلم أني سأرثي الشهيد والمعتقل منهم، وسألاحق بما أكتنزُ من الحنين آثار من تبقَّ حياً، وسأحفظ أكثر من ذي قبل موسيقا خطواتهم البطيئة في قلبي. أنا كائن حنين لو جازَ لي أن أسميَّ الشخص الذي يسكنني، الشخص الذي نتقاتل أنا وهو على إقطاعيات ليست ملكي ولا ملكهُ، لكننا نلتقي عادة في المسافةِ الصفر من الحبّ والذكرى والجوع واليتم والشبابيك المفتوحة على اليباب، لانهرَ صالحَ الآنَ، يشطر مدينتي نصفين، ويخلصَ طيورَ الظمأ من محنتها!، لا أحدَ يقتل الوحش الذي في داخله ليأمنَ وحش الآخر، ولا أحدَ يملكُ مسلةً عظيمةٍ، ليخيط بخيط روحه السماء التي تتمزق.

تأخذني حافلة بيضاء من القامشلي إلى معبر تل أبيض، طيلةَ الطريق تتجاور الرايات: حماة الوطن، حماة الشعب، نصرة الأمة، أحرار البلاد، وسأجد في البوابة جنوداً يشبهونني بسحنتهم، غيرَ أنَّ ما تركت خلفي، يصرُّ أنْ يمشي أمامي، فأخبئُ دمعتي في عبرتي، وأكتمُ عبرتي في أغنية فراتية حزينة، تنبعثُ من موبايلِ شاب صغيرٍ، من الواضحِ تَنبّه لي، فأطلق عنان الصوت، وصار يستمعُ إلى بحة صوتي وأنا أرافقُ اللحنَ، وكما وجدت حالي في أغنيته، وجد هو أحداً يبكي على طريقتهِ.

الطريق من أورفا إلى أسطنبول طويلة، ورضوان المخدّر في مشفى نافذ وتعرفتهُ في المعبر، تحدثنا معاً بالكردية، فوجد أنّ ذلك مساحة طيبة للطمأنينة للحديث عن مظلومية الكرد والأربع دول المتناهبةِ لخريطة كردستان، قال أنّه جاء تركيا قبل هذه المرة، لهذا لم تكن صدمتهُ بالطرقات العريضة والمحسَّنة والكراجات والمطاعم مثل صدمتي، كنتُ أخفي في زجاج نافذة الحافلة وجهي الموشك على البكاء، لئلا يرى رفيق السفر، لكنّه كانَ يشعلُ ناراً تحتَ حطب الأسئلة، كلما رأى منظراً، لم نره في بلدنا، الذي تفصله عن هذا البلد أسلاك شائكة، لتبدأ مرثية المقاربات والمقارنات، ويسري في داخلي نهر نحيبٍ مكتومٍ، يصبُّ في اللا أبد.

سيستقبلني في أسطنبول زنار علي، المخرجُ الكردي السوري، وستكونُ تلكَ اللحظة الفراق الذي بيني وبين رضوان، زنار هو شقيق صديقي لقمان، تركتهُ صغيراً، أسمر

ونحيلٌ وشقيّ، كانَ يتفوقُ علينا باصطياد العصافير وقطعِ أعناقها، وكانَ الأكثر جدارة في تسلق الأشجار وتخريبِ الأعشاش، اجتمعنا حينَ رافقت خالي في رحلةِ الجوع التي قادته إلى قريتهم، ليكونَ راعياً للعجول، خالي قال لي وقتها: ستكونُ أفضل راع ومروّض للثيران، وكان هذا الإطراء، يجعلني أكثر ألفةً مع تلك الحيواناتِ الشرسة والكبيرة عليَّ كثيراً، فيما بعد سأكتشفُ أنَّ خالي المولعُ بالشاي الثقيل والتدخين، سيكونُ صادقاً وأنَّ الراعي الصغير آنذاك، سيروّض نفسهُ مع الحزن، وسيكتشف راعي العجول الصغير أيضاً أنَّ الحياةَ ثورٌ هائجٌ، لابدَّ ستدهسُ بأقدامها العظيمة الجميع. طوبى لمن يفلتُ بأقلّ الخسرانِ من تلكَ القيامات!

ستطلُ طائرتي على كولن كباز أشهب، وسيكون رحيلي عن اسطنبول موازياً للفقد الذي تركته القامشلي، لقد غابت الحدود تماماً، والشخص الذي في داخلي ويتفلتُ للعودة، صارَ يرى الدربَ أطول مما يظن، وأن الأحلام مثلُ الموجة، تصطدم بالصخور وترتد عنها. وسأعودُ إلى ذلكَ الذي تَتَبّع خطىَ الروائي على الرمل ومحا مارسمَ، يهبط البازُ، لا صحراء تحته ولا زهو للغبار لا الموظفةُ المتذمرة، ولا المدينةُ الذاهبةُ كأرخبيل إلى البحر الكاكي الذي يشبهُ العسكر في بلدي. سيكونُ الأخضرُ الكثيفُ صادماً بمقدار انتمائي إلى صحراء جررتها خلفي، نومتها في فراشي، وتقاسمنا أحلامَ الليل معاً.

بعدَ أربع سنوات، سآتي على ذكرها فيما بعد، ينشطرُ قلبي مثل المدينة التي يشطرها الراين إلى قسمين، فلا أنا أستطيعُ أن أعود، لطالما أجدني حمامة مذبوحة على الطريق الواصل بين كولن والقامشلي، ولا أنا منذور للصدمة الحضارية ابتداءً بالأخضر مروراً بالحدائق والسينما والدوم والعازفين المتجولين وانتهاء بالمقابر واحتفاء الموتى بالورود والفوانيس.

أنا أحدٌ ميتٌ، سيموتُ في رحلة العودة الثانية إلى مدينته، سيدخلُ من نصيبين، وهناك سيطلقُ عليه الدركَ التركي النار، وسينجو، ليغوصَ ثانية في حقلِ الشوك والأرضِ البكرِ، حيثُ الرطوبةُ والماءُ الآسنُ، وحيثُ المدينةُ لم تعد مدينة!

حاجز نصيبين القامشلي

ترتبطُ القامشلي التي أعنيها بحبل السرة الذي دفنته أمي بالقربِ من حائط مدرسة ترابية، ومن ثمَّ تقول بأنها عندما رأت كلباً يقترب من مدفنِ الحبل، أخرجتهُ ودفنتهُ تحتَ سكة القطارِ الواصل بين دمشق واليعربية/ تل كوجر، ولهذا هي تلمّست فيَّ العلاقةَ مع القراءة بوقت مبكّر، ولم يسنحْ عمرها القصير، لأن ترى الطفل الذي تبدّت ميولهُ في القراءة، وحينَ شّبَّ عن الطوق، صارَ رهناً للطرقاتِ التي تأخذه عنوة، لو أنّها سلمت، وزوادتها من الأيام لم تنفذ، ستجدُ كم هيَّ مذنبةٌ حين اختارت مما اختارتْ سكة حديدية طويلة لتدفن تحتها جزءاً منها وجزءاً مني، لربّما المرأة المأخوذة بالتنقلات، من الأهلِ إلى الزوجِ الذي طالتهُ السجون، وجدت في الرحيل الكثير منجاةٍ، لم تحسب أن فيها المقتلُ، إذا فصلتْ عن مسقط الذكريات أراض شاسعة وأنهار وأبحر وغابات، حيث يشمخُ الحنين مثل جبلٍ، يفصل القامشلي عن شمال يحاذيها، شمال إلى وقت ليس ببعيد، كانت تنزل طلقاتهُ وهي تتابعُ المهربينَ وأنصار حزب كردي، فتسقط على الأسطحِ المفروشة بالأسرة المتراصة في فصل الصيف، فتحولُ الأهازيجَ والأغاني إلى مناحاتٍ صارخة، ليختلط الدمُ بالجنس بأكواب الشاي، ويذهبُ المَني في مجاري الخوف، أكثر مما يذهبُ في تجاويفِ النساء، المؤهلاتِ للحرثِ والنسل والحروب اليومية، حينَ تصبحُ لقمةَ العيشِ همّاً وحائلاً دونَ اللذاتِ، لقمة العيش في أحد أشكالها موت، أو مجلبة لهُ.

صدمة الثقافة في المنفى

سوسن جميل حسن



السوري الذي نجا من الموت في رحلة لجوئه وتغريبته الكبرى المعاصرة، استقر به المطاف في وطن جديد وهو مترع بالأحزان والخيبات والذاكرة الموجعة. قالت لي سيدة تركت مدينتها ومرتع طفولتها وذكرياتها وبلد عائلتها أبًا عن جد عندما سألتها لماذا اختارت ألمانيا بلدًا للجوء: بعد أن غادرت حلب، كل البلاد مثل بعضها البعض.

في الواقع ليست كل البلاد أو الأوطان مثل بعضها البعض، صحيح أن هناك مشتركات في الحياة الإنسانية بين الشعوب، لكن لكل بلد خصوصيته الثقافية التي شكلتها تجاربه التاريخية، ومن هنا يمكن القول إن الصدمة الأكبر بالنسبة إلى السوريين اللاجئين هي صدمة الثقافة، ليس بمعناها النخبوي وإنما كإرث عام يصوغ الحياة ويسيّرها.

بالرغم مما توليه حكومات بلدان اللجوء، وخاصة ألمانيا التي استقبلت أكبر عدد من اللاجئين في أوروبا، إلى عملية الاندماج من اهتمام وعلى رأسها اللغة ثم التعريف بالقوانين الألمانية والحياة الألمانية، إلاّ أن هناك الكثير من المشاكل التي تظهر أمام اللاجئين من جهة، وأمام الحكومة من جهة أخرى. ومن المشاكل الشائعة ما يتعلق بأحوال الأسرة خاصة لناحية الزواج والطلاق ومن ضمنها تعدد الزيجات، كذلك ما يتعلق بالأطفال ورعايتهم وحقوقهم.

ما يميّز الحياة الاجتماعية في سوريا سطوة العادات والأعراف، والعيش بطريقة كثيفة تحت مظلة الماضي، واعتماد التربية بشكل أساسي على التلقين والتعاليم أو المواعظ والمفاهيم المنجزة، انطلاقًا من البيت في مراحل الطفولة الباكرة، مرورًا بالمدرسة التي يبدأ فيها إعداد الكوادر اعتبارا من المرحلة الابتدائية وصولاً إلى الثانوية بالتلقين وترديد الشعارات وحشو المفاهيم وتطويع الفرد بحيث يكون سلبيا ومتلقيا وغير قادر على المبادرة واتخاذ القرار، وحتى الجامعة التي لا تشذ عن هذا الأسلوب، ولقد جاء في بند سياسة التربية والتعليم في دستور حزب البعث: ترمي سياسة الحزب التربوية إلى خلق جيل عربي جديد مؤمن بوحدة أمته وخلود رسالتها، آخذ بالتفكير العلمي، طليق من قيود الخرافات والتقاليد الرجعية، مشبع بروح التفاؤل والنضال والتضامن مع مواطنيه في سبيل تحقيق الانقلاب العربي الشامل وتقدم الإنسانية، لكن في الواقع حتى هذه المفاهيم العامة الفضفاضة البعيدة عن الانشغال بأهم قضايا البناء وهي بناء الفرد ليكون عنصرا منتجا وفعالاً وخلاقا بقيت نظرية وتُرك المجتمع يصوغ منظومته التربوية بنفسه، متمسكًا بهويات ضيقة لم يسعَ "الحزب القائد للدولة والمجتمع" إلى إزالة الحدود بينها، ولم يقدم

أدوات الاندماج بين المجموعات السكانية السورية. تضافر في هذا النمط أو النهج التربوي كل من النظام السياسي والاجتماعي والديني والتعليمي وغيره.

لا يزال الفيديو الذي لاقى مشاهدة كبيرة وأثار جدالاً واسعا في مواقع التواصل الاجتماعي عالقا في البال، وهو يظهر سحب دائرة الخدمات الاجتماعية في السويد ثلاثة أطفال سوريين لاجئين من منزلهم في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني الماضي، وسط نوبة هستيرية أصابت الأم وهي تصرخ وتبكي وتولول وتحاول منعهم من أخذ أطفالها.

لو درسنا هذه الظاهرة التي تتكرر في العديد من بلدان اللجوء الأوروبية ومنها ألمانيا، فلا بد من التوقف عند قضية مفصلية هامة يمكن إدراجها تحت مسمى الصدمة الثقافية، وهي حساسة في هذا المجال لالتصاقها بقضية الأسرة والطفولة التي تنظمها الأعراف والتقاليد في المجتمع السوري أكثر من القوانين والثقافة التي يُفترض أن يصبح فيها مفهوم الطفل ورعايته ومفهوم الأسرة أكثر تطورًا وإنسانية.

في سوريا تسود مقولة: يأتي الطفل ويأتي رزقه معه. مقولة اتكالية قدرية تستند إلى الطابع الديني للنظام الاجتماعي، وبناء عليه فإن الطفل هو تحصيل حاصل لحالة الزواج، لا يتطلب من الأبوين أي جهد في التفكير والتخطيط للحياة التي تنتظره والتي من حقه أن تكون مقوماتها الإنسانية متوفرة وأن يكون مستقبله مضمونا، بينما في الدول الأوروبية فإن الطفل مشروع بحد ذاته نادرا ما يقدم الأبوان على الشروع به قبل أن يكونا قادرين على تحمل المسؤولية تجاهه، ولأنه مشروع حياتي مهم ترى أن الأسر قليلة الإنجاب حتى إن معدل النمو السكاني يتراجع، مع هذا تبقى معظم هذه الدول محافظة على المستوى الذي وصلت إليه من النمو الحضاري، ذلك لأن الطفل هو ليس مشروع طفل فقط، بل هو مشروع فرد مستقبلي من الواجب على الأسرة ومن بعدها الدولة تقديم كل مقومات الحياة الكريمة ومقومات تكوينه وإعداده وفق أسلوب تربوي يقوم على ثقافة تتناغم من خلالها الأسرة ودور الحضانة أو المدارس، ويُصار إلى تعليم الطفل حقوقه وواجباته على حد سواء، أما الطفل في سوريا فيندرج تحت مفهوم الملكية، خاصة البطريركية، حتى لو كانت الأمومة بشكلها العاطفي فائقة التمظهر، انطلاقًا من كونه ملكية خاصة بالأسرة فالعرف والثقافة السائدة والبيئة الحاضنة لهذه الثقافة تمنح الأهل، والأب تحديدا حق التصرف بكل شؤونه واتباع الأسلوب التربوي الذي يراه مناسبا، والذي غالبا لا يعدو أن يكون غير تكرار أعمى لنمط تربوي سائد يجعل من العقاب وسيلة تربوية أساسية وحكيمة، العقاب الذي يعتمد على العنف بكل أشكاله من العنف اللفظي إلى الحرمان إلى الضرب، والضرب وسيلة شائعة. كذلك فإن تعليم الطفل على التفكير يبدو غائبًا تمامًا عن أسلوب التربية، بل يكاد يكون هذا الغياب غاية بحد ذاته انطلاقًا من البيت وصولاً إلى المؤسسات التعليمية بل حتى في جميع مرافق الحياة، فالنظام السياسي والديني يسعيان معًا ويشتغلان على تغييب التفكير وتضليل الوعي وزرع الأدمغة بمفاهيم جاهزة وفكر سائد يعلم الخضوع والخنوع والاتكالية، وعدم معصية أولي الأمر من الوالدين حتى الحاكم.

انطلاقًا من هذه القاعدة فإن كل أساليب العنف الأسري، سواء تجاه الزوجات أو الأبناء تبقى شأنًا خاصًا لا يتدخل أحد من المحيط من أجل إصلاحه أو السيطرة عليه، حتى لو كان القانون ببعض مواده يحفظ حق المدعي بحمايته من العنف فيما لو اشتكى، لكن سلطة الأعراف أقوى من سلطة القانون لذلك نادرًا

ما يشتكي أحد من المستضعفين الأكثر تعرضًا للعنف: الزوجة والأطفال، كما أن القانون مخترق وفاقد هيبته والثقة به في نفوس الناس.

في المقابل هناك مؤسسات حكومية تدعي إصلاح النشء كتلك التابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بما يخص الأحداث، لكنها كباقي مؤسسات الدولة في ظل الفساد لا تفعل شيئا سوى تعقيد المشكلة ومفاقمة أزمة هؤلاء الأحداث.

ولا يمكن أن نغفل الوعي المتدني والهشاشة المجتمعية التي كشفت عنهما وعرتهما سنوات الأزمة السورية، فظهر كم هائل من المشكلات المزمنة، من أبرزها وعي الذات ووعي الآخر والعلاقة بينهما، فما إن بدأت الانتفاضة السورية حتى بدأ التضليل الإعلامي واستجاب له الشارع السوري ليعبر الخوف من الآخر عن نفسه باكرا، يمكن الاستشهاد بدليل بسيط لكنه يعبّر ببلاغة وهو الإقبال الباكر على تركيب بوابات الحديد على مداخل بيوت السوريين، تلك التي تفصل بين الجار وجاره حتى لو كان هناك "عشرة عمر" بينهما ومصاهرات ونسب، كشف الواقع عن تعايش وهمي بين مكونات الشعب السوري، لم يعمل النظام الشمولي الذي رفع شعار العلمانية على تخليصه من بداوته وقبليته بالرغم من أن دستوره يعتبر أن "البداوة حالة اجتماعية ابتدائية تضعف الإنتاج القومي وتجعل من فريق كبير من الأمة عضواً فاشلًا وعاملاً على عرقلة نموها وتقدمها". بينما لم يقدم البديل، علما بأن العشائر في سورية لديها في منظومة قيمها العديد من الجوانب الإنسانية، لكن النظام لم يعمل على جسر الهوة التي راكمها تاريخ من الانهيارات الحضارية، بين مكونات الشعب، ولم يشرك الشعب في عملية الحداثة التي فُرضت بفوقية عليه فزادت في إرباكه.

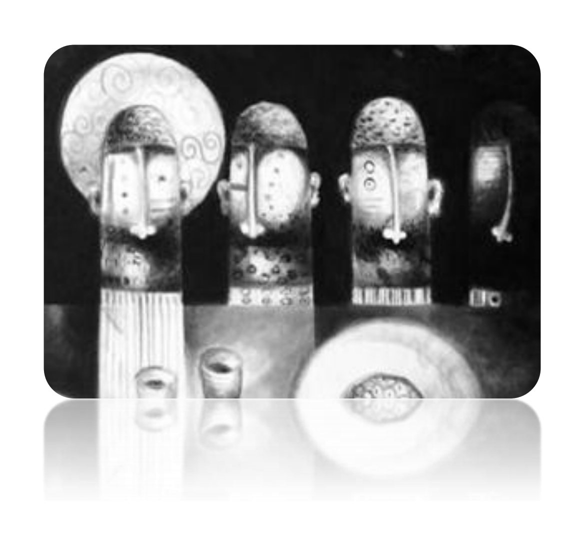
بناء عليه فإن اللاجئ السوري الذي وصل محمّلاً بما يفوق قدرته من المواجع والذاكرة المرهقة، خاصة ممن ينتمون إلى بعض البيئات التي عانت التهميش الطويل، أو تلك التي هربت من ويلات الحرب فقد فرض حوله ستارًا واقيًا يحول بينه وبين التأثر بالمجتمع الجديد، بالآخر الأجنبي الذي يعتبره البعض كافرًا ولن يقدم له غير خراب أسرته وأطفاله، وتحصن ضمن هذا الجدار يمارس هويته ربما بطريقة أعنف وأكثر حزمًا. أراد حماية أسرته وأطفاله بالمبالغة بأسلوب التربية الموروث، بالعنف بكل أشكاله، ولم يقتنع بقوانين البلد المضيف الذي يحمل عنه مسبقًا صورة نمطية تثير الرعب في نفسه بما توفر من أسباب الانحلال والتفكك الأسري، فكانت النتيجة هذا الموقف الذي تناقلت مشاهده بكثافة وسائط التواصل الاجتماعي وأثار ضجيجًا وسجالاً حارًّا حول قضيته.

الحضانة أمر مختلف في مجتمعات الدول الأوروبية المضيفة، والطفل مشروع مواطن، بينما في ثقافة الأسر اللاجئة يختلف الوضع، فلا مكان لحقوق بشكل عام، ولا معنى لكلمة مواطن إلا كترداد أجوف في الخطب الرسمية، لذلك عندما أتى موظفو الرعاية الاجتماعية ليأخذوا الأطفال الواقعين تحت العنف من أسرتهم كانت ردة فعل الأم عنيفة أيضًا، قاومت بشراسة معتبرة الموقف عملية اعتداء على خصوصيتهم وهويتهم، بينما كان الموظفون يقومون بواجبهم وفق القانون في دولة مؤسسات وقانون.

الصدمة الحقيقية أو الأولى والكبيرة للاجئ هي صدمة ثقافية بالدرجة الأولى، مع الإشارة إلى أنه لا يمكن إغفال الإنجازات التي يحققها الكثير من السوريين في البلدان الجديدة أو المضيفة، وهذه نقطة تحسب إليهم فبالرغم من فداحة المخاطر التي تعرضوا إليها ومن الموت المحدق بهم، يبقى السوريون طالبي حياة.

على هامش المنفى: أسئلة حضور وغياب

سوسن إسماعيل



سُئلَ الروائي الإيرلندي الشهير جيمس جويس مؤلف رواية عوليس الشهيرة إبان غربته في القارة الأوروبية إن كان يتوقَ إلى العودة إلى (دبلن) التي يهواها فقال: ومتى تركتها؟!

ربما هذا هو حال أي مهاجر، مُهجّر، مغترب، أو منفيّ، والحالة الأكثر اقتراباً في الوقت الراهن هي الحالة السورية.
أن تفتحَ الجرح السوري على مصراعيه، وتنقله عبر السرد من حالة ذاتية متخمة بالوجع إلى حالة إنسانية، ربما عابرة أو مشابهة تعاني حرقة المنفى، حيث ما عادت الأمكنة تستهوينا وما عادت أجسادنا إلا معابرَ للكلام، نحن الحاضرون، الغائبون، لم تستطع السنوات الأربع من الغياب عن الوطن أن تزيلَ عنا خصوصية الهوية (الانتماء).
هذه الكينونة البشرية ليست إلا امتداد طبيعي لجغرافيا الأرض، فإما أن تكتشفَ من اللغة في محاولة لدمج المكان والزمان في علاقة جدلية كالموت والحياة والشوق والحنين والمنفى والوطن، والاختزال هو كسرٌ لنوافذ البقاء.
صندوق البريد باتَ هو العالم المستجد، الأقرب، العين التي لا تتعطلُ للمغترب، ربما هو الوطن، والوطنُ كان وهماً؟
نجففُ في هذه اللغة كالطاعون الوقت والاحتراق في أوجه وما زالت الأرصفة تحتفظُ بتأملاتنا، أنهكتنا الإذاعات والقرارات، لم يكتفوا بخطوط حمر بل تجاوزوها حتى الرصاص، وبات الموت السوري كصفيح ينثرون عليه رمادهم.
نزحفُ بلا مبالاة صوب نداءات تغفو رويداً رويداً في هذه العُريّ المستديم، لا مجيبَ، لا مجيبً إلا صوت نايًّ في زحمة الفوضى اللامتناهية.
من يحوّل هذا القحل إلى ربيع!
مهمشون نحنُ أو حتى غائبون، هي وحدها اللغة ستفتحُ مدارك الوصال وتزجُ بأسئلتنا إلى منعطفات أكثر ضبطاً وربما لقواعد ولوائح تجدها صعبة التنفيذ، في الوقت الذي وجد الكثيرون في الغربة ملاذاً أو ربما الفردوس المنتظر، نجدُ على الجانب الآخر من لم يجدْ فيها إلا محطة انتظار تأملية، أو محطة للخيبات المتكررة، سيغادرها لرحيل قادم!
في الوقت الذي يرمي بك الوطن إلى ضفاف المنفى ويزجُ بك إلى عوالم وفضاءات ثقافية واجتماعية وإنسانية تختلفُ كلياً معها في كثير من الجوانب وفي طريقة التعامل بها ومعها، في ظلّ هذه الأزمات لا نجدُ إلا أنفسنا فنصنعُ تجاربنا ونحصدُ بقايا آمال وآلام، أسئلة مكثفة لهذا الحضور عن العلاقة مع المكان، اللغة، وحضور الآخر، أسئلة تنحازُ إليها بنصف إجابات غير شافية لهذا الكمّ من العذابات التي تراودك، أسئلة منشغلة بغيابها.
هذا التهجير القسري للذات السورية سيبقى السؤال الذي سيردده جيلُ الحرب إلى مدى بعيد، هل نحنُ محاطون بكل صنوف الديمقراطية ومع ذلك لم نستطع أن نقفلَ

قنوات المعاناة ونهدّئ من وهج خطابات الوجع وحلم الرجوع.
ومن القيمة بمكان عندما يتساءلُ المنفيّ / ربما السؤال الأكثر قيمة؟ هل يستطيعُ المنفيُّ أن يتجاوزَ قيودَ اللغة وإملاءات الآخر لينشغلَ بعوالم إبداعية للأمكنة الجديدة في محاولة لتجاوز الخيبات والانكسارات والعجز الفكري والحياتي أمام الهوية الطارئة والتقليل من حالة الإقصاء ؟!

للمكان سطوة الهوية، ولتحصلَ عليها، عليك أن ترتشفَ من غرائبيتها وسحرها ونجد أنفسنا أكثر عمقاً في معاييرها ولوائح قيمها متجاوزين حالة الهلع من النهايات.
الغربة كمصطلح وجداني بعيداً عن أبواب المعاجم وفصولها، أجدها عصية على اللغة في تكثيفها المعنوي والحسي بنيوياً وسيميائياً.
ودعوة المنفيُّ لتجاوز حدود منفاه، هي دعوة لمحاربة كلّ هذا الخراب الروحي وتأسيس لعتبات جمالية للمعرفة وللوجه الآخر للمنفى في محاولة لكسر التضاد الماثل بين المنفيِّ وأرض المنفى وخلق فضاءات تنبضُ بالحياة.

للغربة هواجس وظلال تأخذك إلى منافي أكثر عمقاً ولربما إلى أجراس جديدة ترغبُ في أن تُدقَّ على مسامعك، فأتذكر دمشق (2013.5.18) كانت ليلتي الأخيرة فيها، أغلقتُ بابَ الشقة وقرار العودة كان ملغياً، نعم كانت الليلة الأخيرة، ليلة كانت مُتْعبة، وباهتة جداً، لا لون لوداعي لها، كانت مواجهة صعبة ومعادلة مستحيلة، انطلقت السيارة نحو مطار دمشق، من نافذة السيارة عانقت كلّ تفاصيل الطريق من قدسيا إلى ساحة الأمويين مرورا بالبرامكة حتى الحواجز العسكرية تخطيتها بألبوم من الصور، لم أزنّرْ الروح إلا بالذكريات وحكايا كلّ حارات باب توما وبيت الياسمين ملتقاي مع الأحبة ..

نعم اخترنا الرحيل...! يقيناً لابدَ منه في زحمة الموت والقتل البشع للروح السورية، أنْ تختار الرحيل دون عنوان إلى اللاحدود هو في حد ذاته موت آخر ترتكبه في حقّ ذاتك، يقول عمر الخيام في رائعته (رباعيات):
لا تشغلْ البالَ بماضي الزمانِ
ولا بآتي العيشِ قبلَ الأوانِ
واغنمْ من الحاضرِ لذاتـهِ
فليسَ في طبعِ الليالي الأمانِ

هل يمكن لأيّ مهاجر (والسوري حصراً) أن يتجاوزَ هذا الكمّ من الأزمات الطارئة، أزمة الثقة، الثقافة، والهوية، هل يمكنه أن يتجاوزَ مشاهد الوقوف على الأطلال ويقتربَ أكثر إلى ما ذهب إليه وقصده الشاعر الروماني هوراس بأعوام قبل الميلاد: (أيّها الغدُ فلتفعلْ ما يحلو لك، فقد عشتُ يومي).

قنّينة في عرض بحر الشمال

هوشنك أوسي



... وربما أكثر من ذلك. إذًا، لا تسألني؛ لماذا؟!

لم تعدْ الرغبةُ في الكتابة لكَ، بحاجة لأسباب طارئةٍ أو ظروفٍ عارضة. كونها صارت في حكم العادة. لكن، هذه المرّة بالذات، لا تنتظر منّي أن أبعث لكَ هذه الرسالة عبر البريد الالكتروني أو الفيسبوك أو البريد العادي، لأنني سأضعها في قنينة زجاجيّة، مُحكمة الإغلاق، وألقي بها في عرض بحر الشمال، قبالة ساحل "أوستند" التي أقيم فيها منذ ما يزيد عن ثلاث سنوات. وأنا واثق بأنه سيلتقطها أحدهم، يومًا ما. ربما يكون صيّادَ سمك، أو سائحًا يجوب بزورقه البحر، أو مغامرًا يصارع الأمواج؟ وربما تقودُها الأمواج إلى مكانٍ ما، أو تعيدها من حيث أتت، كي يلتقطها أحدهم، ويظنّها، للوهلة الأولى، آتية من زمنٍ غابر، سقطت من سفن القراصنة، أو من أساطيل نابليون التي مرّت من هنا؟ أو من إحدى سفن الجيوش المتصارعة في الحربين العالميتين الأولى أو الثانية؟ ربما يظنّها ملتقطها خارطةَ كنزٍ، أو نداء استغاثة، أو رسالة عشق، خطّها عاشق مجهول لحبيبته. وحين يقرأها، مذيّلةً بوصيّة مفادها البحث عنك، وإيصالها لك على عنوانك، أو لورثتك، وقتئذ، سيعرف أن الأمر، خلافُ كل هذه الافتراضات. ولحين حدوث ذلك، تكون السنون مضت بنا إلى العالم الآخر، ولم يبقَ منّا إلاّ هذه الرسالة، تذكّرُ قارئها بنا.

إذًا، لا تقلق. ولا تخش شيئا. أنا واثق من أن هذه الأسطر، ستصلك، ولو بعد حين. ولكن، لا تسألني لماذا؟! وكيف؟!

***

ثمّة خرافة استسلمنا لها، وردّدناها، ما جعلها تترسّخ في وعينا ولاوعينا، اسمها القدر. حياتنا بكل ما شهدته وستشهده، هي سلسلة لا متناهية من المصادفات. وإذا افترضنا وجودَ شيء اسمه القدر، فهو، بكل تأكيد، فيض هذه المصادفات وتداخلها وتعاقدها، واستترارها بعضها لبعض، أثناء رسمها حياتنا بمجرياتها وتحوّلاتها من نجاحات، إخفاقات، انكسارات وخيبات. لم يكن بمقدوري اختيار أن أولدَ كرديًّا، مسلما، فقيرا، يتيمًا، مجرّدا من الجنسيّة والحقوق المدنيّة، لجرم وحيد، لم ارتكبهُ، هو أنني من أب وأم كرديين، وفي بلدة صغيرة تشطرها الحدود التركيّة - السوريّة إلى شطرين. مغادرتي مدينتي الصغيرة واتجاهي للعيش في دمشق، كان صدفة. تعرّفي على الكثير من الناس، وتحوّلهم إلى أصدقاء، كان صدفة. سقوطي في حبائل السياسة، وانجذابي

للشعارات اليساريّة والقوميّة الكبرى، كان صدفة. نجاتي من اعتقال المخابرات السورية التي داهمت منزلي، أيضا كان صدفة. تعرّفي على حبيبتي والزواج منها، كان صدفة. وهكذا، تتالت وتعاقبت الصدف، وتناوبت على التمهيد لمجريات حياتي، والتحكّم بها، لحين وصولي إلى بلجيكا، بمحض الصدفة. أمّا قرار الاستقرار والإقامة في "أوستند"، فكان عن سابق إصرار وتصميم، لا علاقة للصدفة به. لأنني أكره الضجيج والضوضاء العارمة التي تمتاز بها المدن الكبيرة المغلقة كبروكسل.

واجهتُ البحر، أوّل مرّة، في مدينة طرطوس السوريّة، طفلاً في الحادية عشرة من عمرهِ. راعني هذا الكائن الرهيب، الدائم التأرجح، مصدرًا هديرا، يقترب ويبتعد، مُدخلًا إلى نفسي الدهشة والذعر. سألت نفسي:

- ما هذا السيل العارم الذي يقترب مهددًا، ثم يبتعد متقهقرا؟ ما هي عدد السنوات التي أمطرت بأكملها، دون انقطاع، حتّى تشكّل هذا الطوفان الذي يراوحُ مكانهُ جيئةً وذهابًا؟! بكم مرّة يكبر هذا المستنقع الشاسع الهائل، ذلك المستنقع الذي كان يتشكّل على أطراف بلدتنا، أثناء هطول أمطار الربيع الغزيرة؟!

أثناء عَومنا في ذلك المستنقع، ماؤهُ العكر البارد، كان يزيد من رغبتنا في التبوّل. ورغم أننا نلتمس من بعضنا البعض عدم التبوّل فيه، إلاّ أن أحدًا منّا لم يكن يلتزم بذلك. شخصيًّا، لم أجبرْ نفسي على حبس البول. وحال شعوري بالضغط، أحرّر ذَكَري من الكلسون، مطلقًا العنان له تحت الماء، مع حركات مسرحيّة، تخفي مظاهر التبوّل عنّي. وبعد الانتهاء، أعيده إلى حيث كان، وأخرجُ من المستنقع فورًا، معتبرًا نفسي الوحيد الذي انتهك التحذير، دون أن يُنكشف أمري، شاعرًا بالغبطة لأنني تركت بقيّة الأولاد يعومون في بولي. بينما كل الأطفال يفعلون ما أفعله، دون إخبارِ أحدنا الآخر. كنّا نسبح في بركة طينية ماؤها، خليط من الأمطار العكرة الممزوج ببولنا، ويضيق العالم بالفرح والسرور المتدفّق منّا.

ما أن وطئت قدماي الحافيتان الرمل، ولمست يداي ماء بحر طرطوس، حتّى بدأ الخوف يتراجع تباعًا ويتبدّد. منذ ذلك الحين، يراودني حلم أن يكون لي منزل قريب من البحر.

المرّة الثانية التي واجهني البحر فيها، كان في بيروت، سنة 2001. وتتالت اللقاءات، في اسطنبول، أثينا، لحين إقامتي في "أوستند".

فائض القمع، الاضطهاد، والفقر الذي عشته في وطني، أشعرني بأنني قضيت سجنًا مؤبّدًا، لِست وثلاثين سنة، ما خلق لديّ رغبةَ الطيرِ في التحليق، فور تنفّسه هواء الحريّة. لديّ رغبة في رؤية كل البلدان، والتجوّل فيها لنهل المزيد من ذاكرتها. الرغبة في ملاحقة المدن، والتعرّف عليها، ربما مردُّها الخوف من الموت، قبل الإحساس بالشبع من رؤيتها. أريد الرحيل إلى العالم الآخر، بذاكرة بصريّة زاخرة عن المدن والأوطان والشعوب والثقافات، كي أقصّ على أسماع الموتى، شغفي ومغامراتي المتواضعة في البحث عن الحريّة

والسعادة والمتعة التي افتقدتها طيلة سنواتي الماضية.
يحضرني الآن قول لكَ كرّرته على مسامعي أكثر من مرّة: "المدن كالنساء، إنْ أحببتها، أحبّتك. إذا لاحقتها، تمنّعت. إنْ هادنتها، عاركت. إنْ جافيتها، تناست. وإذا أحبّت، أغدقت، وإذا كرهت، كادت، محقت وأحرقت".
طباع الأماكن من طباع أهلها، والعكس صحيح. طباع من يسكن الجبال، ليست كطباع من يسكن السهول. وخصال من يسكن المدن الساحليّة، ليست كمن يسكن المدن الداخليّة. المدن بشعوبها. والشعوب بمدنهم، تعكس ثقافة ووعي وذوق وأخلاق سكّانها، لجهة نمط الحياة، والتناسق والهندسة وفنّ العمارة. المدن إن تأدلجت، تخندقت. وإذا تخندقت، خنقت واختنقت. لذا، فهي كالبشر، الحريّةُ أوكسجينُها. إن قلّت الحريّة فيها، ذبلت المدن. وإنْ انعدمت، تموت.
أمّا "أوستند" وبحرها، ونوارسها وغزلانها الشقراوات، فبيني وبينها قصّة حبّ من طرفين، بخلاف حكاياتي مع المدن الأخرى، التي مررت بها.

دفعتني الصدفة للاستقرار في بلجيكا. لكنها الآن، وطني. دعني أقول لك إنني خلُصتُ، في الآونة الأخيرة، إلى نتيجة مفادها أنّ الوطن ليس المكان الذي تولدُ وتعيشُ فيه، دون اختيارك، ويجرّدك من حقوق المواطنة ويسلبك حريّتك وكرامتك، بل الوطن هو الأرض التي تشعرك بإنسانيّتك، وتمنحك الأمان، الحريّة، الكرامة، فرصة العيش الكريم والعمل، التعليم والإبداع. أدركتُ متأخّرًا أن منتهى الخطأ والمازوشيّة الالتزام بمقولة الشاعر العربي الذي يقول: "بلادي وإن جارت عليّ عزيزةٌ... وأهلي وإنْ ضنّوا عليَّ كرامُ". تأكّد لي، أن أسّ الاستبداد والفساد والضلوع في إنتاجهما وتغذيتهما، هو الانقياد وراء هكذا أقوال. لأن الوطن الذي قوامهُ القمع والفقر والاستبداد والفساد، هو سجن. ومن يحكمه، جلاّدون وفاشيون، حتى لو كانوا أهلي وعشيرتي. ورغم ذلك، أتمزّق من الأعماق، في اللحظة ألف مرّة، نتيجة ما يحدث في سورية.
اخترت العيش قبالة بحر الشمال، في "أوستند"، لأن فيها الكثير من خصال المدن التي زرتها. قرأتُ في ملامحها، قلقَ الشاعر، هدوءَ الحكيم، تبرّجَ الحسناء وصخب مفاتنها، وتجهّم العجوز، حرارة جدلَ الفلاسفة، وبرودة نقاشات البليدين والمتطفّلين، طيشَ المراهق، ولباقة واتزان وكياسة ورزانة الاستقراطيين وغرورهم أيضاً. "أوستند" في الليل، تكتب الشِّعر، وفي النهار، تقرأه على أسماع البحر وزوّاره ونوارسه. هي الآن، في هذه اللحظة، تعرفُ بأنني أكتب عنها لك، وتسعى إلى إلهامي، ومساعدتي في ترتيب الأفكار، واستحضار الصور. هذه الآن، وعبر هذه الأسطر، تريد إيصال نفسها إليكَ.

***

حالَ شعوري بالضيق والكدر، ألوذ بالبحر قصدَ التأمّل والبوح. قبل أيّام، تفاقم ضجري، مصحوبًا بحزنٍ وألم شديدين على ابتلاع البحرِ المزيدَ من المهاجرين السوريين الهاربين من أوار

الحرب في بلادهم إلى الفضاء الأوروبي. ذهبتُ لمواجهة البحر، كي أفاتحهُ بما يعتصرُ قلبي ويجول خاطري، كجمهرةٍ من السكاكين المسنّنة.
بتثاقلٍ وئيد، تميدُ الشمسُ صوبَ الغروب، كأنّها غصّة حارقة في حلق الأفق. الموجُ في تململهِ، يرتعشُ كلسان كلبٍ خائفٍ ومُنهك. الغيم متناثرٌ في السماء كقطعانٍ مذعورةٍ وحائرةٍ، فرّقتها عواء ألف ذئب جائع. صوتُ النوارس بدا محتقنًا، وأقربَ إلى الزعيق منه إلى المعتاد، مختلطًا بخفوتِ هسهسة الموج، زادَ من شحوبِ المشهد والتباسهِ، تعبيرًا عن الخيبة والخذلان، فصرت أسائلُ نفسي؛ أهو البحرُ شديدُ القلق والضجر، هذا اليوم؟ أم أن غياب عصف الريح يزعجهُ ويفتح قريحته على المزيد من الصمت الجارح؟! أم أنا متلبّد الأفكار والهواجس؟ أمْ ماذا؟!
لا أعرف لماذا قفزت إلى ذاكرتي، فقرات من قصيدةٍ لسان جون بيرس عن البحر: "... الخشوع لشاطئك، أيها الجنون، يا بحر اللذة الأعظم. الحال بائسٌ على الأرض، لكن ملكي هائل على البحار. يحيط بي البحر الشامل. الهاوية الملعونة، نعيمٌ لي، والانغماس فيها إلهي... امتيازي في البحار، هو أن أحلم لكم هذا الحلم عن طريق الواقع. سمّوني الغامض، وكنتُ أسكن البحر".
تذكّرت أيضًا "سنتياغو" بطل رواية "العجوز والبحر" لهمنغواي، ونهايته الكارثيّة المؤلمة. وقفزت إلى مخيّلتي مشاهد الزورق المطاطي الذي أبحر بنا من إزمير التركيّة إلى جزيرة خيوس اليونانيّة، وكيف صارعنا الموج الذي كاد أن يبتلعنا.
ظلامٌ دبقٌ، شديدَ الحلكةِ والحموضةِ، لم أعرف له مثيلًا في حياتي، ممسكٌ بخناقِ المكان وتلابيبه. ما أن لمحنا إشارةً من المهرّب، حتّى انحدرنا، ككومةِ حجارة، تتدحرج من أعلى التلّ المكسوّ بالأشجار والشجيرات الشائكة، نحو زاويّة ميّتةٍ على شاطئ البحر. ومع بدء مساعديّ المهرّب "القاجاغجي" بنفخ الزورق المطاطي "البُلُم"، أحسستُ وكأنّه ينفخني أيضًا. ولأن الأرض مفروشة بالحجارة المدبّبة، اضطررنا لحمل الزورق نحو عشرين متر أو أكثر، لئلا يصاب أسفله بالخزق أو التمزّق، حتّى وصلت المياه إلى ما فوق ركبنا. بعد ثلاث أو أربع محاولات فاشلة، أدارَ المهرّبُ المحرّكَ، وأمرَ بالقفز إلى الزورق. بخفّةٍ وهلع، قفز الجميعُ إليه، وكنتُ آخرهم. دفع المهرّب وأحد مساعديه الزورق، ولم يبق فيه من جماعته سوى السائق. شابٌ طويل القامة، يحمل في يده موبايلًا، يتحدّث مع الكابتن، المهرّب، كل خمس دقائق.
لا أعرف كيف وصلتُ إلى مقدّمة الزورق المحشو بستة وعشرين شخصًا، عدا السائق، وهو لا يتّسع إلاّ لعشرة أشخاص؟!. كل موجةٍ عاليةٍ تضربه، تضربني في البداية. ما أن أصبحنا في عرض البحر، حتّى تغيّر مزاجه، وبدأت الريح تعربد وتهدد، وتحثّ الموج وتُألّبه علينا، وتستنهض فيه وحشيّةً نائمة. نجونا بأعجوبة، لأنّ الأمواج العاتية كادت أن تقلب زورقنا أكثر من مرّة. رأيت كفني ممدّدًا على الماء، وسط دامسِ الظلام. بصحبتنا

امرأتان، الأولى تحمل رضيعًا، لم يتجاوز عمره أربعين يوما، والثانية بثلاثة أطفال. عويل المرأتين، وبكاء الأطفال، كان كافيًا لإيقاظ شعبٍ بأكمله من أسماك القرش. صرت أضحك قائلًا في نفسي: ليس هكذا، ينبغي أن تكون نهايتي. فما زال للحزنِ والألم بقية.

زرقة بحر إيجة في صيف 2009، ورماديّة بحر الشمال في صيف 2015، تتقابلان وتتحاوران في مخيّلتي. استبدّت بي مشاعر هوجاء، هي خليط من الافتتان والوله بالبحر، والحنق عليه، الغضبِ منه، التحدّي له، والعتبِ عليه. لكنّي بقيتُ صامتًا، مشدوهًا، كتمثال أجوف من البرونز، تلعقُ وتنخرُ الريحُ داخلهُ بصفيرها الحاد. تمثال يحدّقُ في البحر، بشغفٍ وزجر. بدا لي البحر أيضًا يتأمّلني، ويبادلني نفس المشاعر، كأنَّ كلًّا منّا يغوص في الآخر. لم أعدْ أشعر بالمحيطين أو من يمرّون بي. برقت في ذهني كتابة نصّ، حين لمحتُ نورسًا يشاركني إمعانَ النظر في البحر. ولئلا أنسى فكرة النصّ، فتحت الموبايل وبدأتُ تسجيل صوتي:

النورس الأعمى

رُحماك يا بحر الشمال...
لستُ جنديًّا أطعنُ في الظهر، ولا ملكًا خائنًا على رقعة شطرنج.
لا تحسبني قاربًا محطّمًا على شاطئك.
أنا بقايا مجزرة.
أحملُ في قلبي صليبي وضريحي، وتحت لساني، أواري ذاكرة وطني عن أعين البرابرة.
الحزن كأسي، وآلاميَ النبيذُ.
لا تحسبني ربّانًا خانته سفينتهُ والريّاح.
وطنٌ تواطأت عليهِ جهاتهُ أنا، وقصيدةٌ تبكي، ما زال يكتبها نبيٌّ أعمى، لفراخ السنونو.
حتّى أنت يا بحر الشمال...؟!
أدرتَ ظهركَ لي؟!.
لستُ إسكندرا غازيا، ولا نابليونا.
أنا محضُ صدى...
محضُ هزيمة...
محضُ جثّةٍ هامدة، تبحثُ عن قبر، منذ ثلاثة آلاف سنة.

الكارثة ليست هنا، بل في عدم تقدير أنها جرت هناك، ويصل أصداؤها إلى هنا. ومن ذلك، أنني لم أرَ يهوديًّا في حياتي، إلاّ في بلجيكا، ولم أرَ معبدًا يهوديًّا في حياتي، إلاّ في "أوستند". أثناء المرور من أمام السيناغوغ في ساحة "فيليب فان مايستريخت"، تنتابني رغبة جامحة في التعرّف على ما بداخله. هذه الرغبة، عزَّزت لديّ هاجس أن يكون لي أصدقاء يهود، أتعرّف إليهم، بعيدًا من التقييمات التقليديّة التي وصلتنا عنهم، من خلال مناهج التربية والتعليم في سورية، ومن الأحاديث التي يتداولها العامّة، الخاضعة للتأثيرين الديني والقومي.
توحي واجهة الكنيس اليهودي، وكأنّه مبنى مهجور، ولم تقام فيه صلاة، منذ عقود، شأنه شأن حي اليهود في دمشق. والفارق بين الموقعين، أن النظام السوري، سطا على بيوت اليهود السوريين وممتلكاتهم، بينما المعابد اليهوديّة هنا، جزءٌ من التراث والمواقع الأثريّة البلجيكيّة.
سيناغوغ "أوستند"، أشرف على بنائه مهندس يهودي يدعى يوسف ده لانغه

سنة 1910، وافتتح في آب 1911. تعرّض للسلب والنهب أثناء الحرب العالميّة الثانيّة. واجهته، نسخة طبعة الأصل عن كنيس موجود في فرانكفورت. مبنى الكنيس، محشور بين منزلين، ضمن رتل مقوّس من المباني المتلاصقة. يقابله قوس آخر من المنازل المتلاصقة، مشكّلين نصف دائرة، هي ساحة "فيليب فان مايستريخت" الملاصقة من الخلف، لكنيسة القديس يوسف.

كلّما مررتُ به، أقف قبالته متأمّلًا، لدرجة صرت أخشى أن يظنّ الناس بي السوء! أشعر بأن حديد الدرابزين، يريد الإجابة عن تساؤلاتي، إلاّ أن شيئًا ما يعقدُ لسانه، ويمنعه من ذلك!؟ يفيض خاطري بصور تتخيّل فترة البناء، ولحظة الافتتاح. قفزت إلى ذهني أسئلة غريبة: هل يا ترى، كل المشاركين في بناء هذا الكنيس، كانوا يهودًا؟! وهل يمكن لشخص مسيحي أو ملحد المشاركة في بناء معبد لديانة لا يؤمن بها؟ أو هو على نقيض من تعاليمها ومعتقداتها؟
يتناهى إلى مسمعي أصوات التراتيل والصلوات والأدعية التي تقام في داخله. أتخيّل سطو الجنود الألمان عليه، ونهبهم له، أثناء الحرب العالمية الثانية. أشعر بالتعاطف مع هذا المبنى، باعتباره ما زال شاهدًا حيًّا لأكثر من مئة عام، على ما شهدته هذه المدينة. مئة عام من التأمّل في أحوالها وتحوّلاتها. مئة عام من السرد الصامت لذاكرة من مرّوا من هنا، سواء أكانوا غزاة، برابرة، نبلاء، مواطنين عاديين، لاجئين، مهاجرين، لصوصًا، قتلة، عشّاقًا، مؤمنين، ملحدين، مثليين، سكارى، مدمنين، صادقين مخلصين، منافقين، دجّالين وأدعياء...! مئة عام من الإنصات لما يسرده البحر، وما تفشيه النوارس، أثناء تحليقها، من أسرار هذه البيوت، الشوارع، الحجارة، الأشجار، البشر.
ذات يوم، وأنا واقف أمام الكنيس، لاحظت باب المنزل الملاصق له إلى اليسار، ينفتح. خرجت منه سيدة عجوز، في العقد الثامن من عمرها. نحيلة الجسد، مقوّسة الظهر، بعينين زرقاوين غائرتين. خطواتها حذرة وبطيئة، رغم توكئها على عكّاز. بشرتها البيضاء، شديدة التغضّن، توحي وكأنها مومياء تسير على قدمين. اقتربت منّي، وعلى شفتيها الرقيقتين المزمومتين، ابتسامةٌ خفيفة، وقالت بصوتٍ مرتعش:
- أكثر من مرّة رأيتك تقف هنا، أمام هذا المعبد، وتتأمّله. واليوم أيضًا، أثناء جلوسي بجوار النافذة، رأيتك مجددًا. عمَّ تبحث يا بنيّ؟ ملامحك توحي بأنك غريب، ولست من "أوستند"، أليس كذلك؟ إذا كنت تبحث عن منزل للإيجار، فمنزلي معروض للإيجار منذ عشر سنوات.
لم يثر من كلام العجوز استغرابي إلاّ قولها "منزلي معروض للإيجار منذ عشرة سنوات". فسألتها:
- أي منزل؟ ولماذا بقي كل هذه المدّة دون أن يستأجره أحد؟!
أشارت بعكازها إلى بيتها وقالت:
هذا. ألا ترى الشاخصة، المكتوب عليها "للإيجار - Te huur"، الملصقة بالنافذة؟ لم يستأجره أحد، ليس لأنه يجاور المعبد اليهودي، وليس

بسبب الرنين والطنين المزعج الذي تصدره نواقيس كنسية القديس يوسف كل ساعة، بل لأنني أقول لهم الحقيقة. حقيقة المنزل، وأنه مسكون بأرواح ثلاثة أشخاص، هم المهندس يوسف ده لانغه، والمشرف على العمال الذين بنوا الكنيس -والدي أندرياس فان كوبن-، والكاهن شالوم موشيه مزراحي الذي قتله الألمان حين حاول منعهم من دخول الكنيس. أرواح هؤلاء الثلاثة، تعيش معي. وستعيش مع أيّ ساكن جديد لهذا البيت.

كل مساء نجتمع، نحن الأربعة، حول الموقد. نشرب النبيذ، ويبدأ كل منّا بالحديث عن نفسه وذكرياته. ذكر ده لانغه أنه هاجر من أمستردام واستقرّ مع عائلته في أنتويربن، ودرس في مدارسها، لحين حصوله على إجازة من أكاديمية الفنون. وأن جدّه كان حاخامًا يرفض قيام دولة يهوديّة في فلسطين، فقتله المتطرّفون اليهود. أثناء الحرب العالمية الأولى، هرب ده لانغه إلى لاهاي. وبعد اندلاع الحرب الثانية، هرب إلى نيويورك. ومات بعد انتهائها بثلاث سنوات.

رغم أنّ والدي لم يكن يهوديًّا، إلاّ أن الصداقة التي جمعته بالمهندس ده لانغه والكاهن مزراحي، كانت عميقة وقويّة وأكثر متانة من صداقته مع أصدقائه الكاثوليك!

- هل تعيشين وحيدة في المنزل؟

- نعم. أخي كان جنديًّا بلجيكيّا، قتل في الحرب الثانية. بينما مات زوجي بالسرطان سنة 1966. ابنتي تعيش مع صديقها الفرنسي، وتنتظر موتي، كي ترث البيت.

- وماذا عن والدتك؟ ماذا جرى لها؟!

- كانت تصغر والدي، بعشر سنوات. وماتت بعده بسنة. ولا أعرف لماذا روحها غائبة عن المنزل؟ ما أذكرهُ أنّها لم تكن تحبُّ الضيوف، وتستقبل أصدقاء والدي على مضض.

- معذرة، لم تقولي شيئًا عن زوجك، فقط أنه مات بالسرطان؟

تأفّفت العجوز، وارتسمت على وجهها علامات الانزعاج، ثم تنهّدت بعمق، وأجابت:

- كان شيطانًا ولم يكن زوجًا. يكبرني بسبع سنوات. مات ميتةً بشعة. روحه الآن، تنال جزاءها في الجحيم. كتلةٌ من الكراهية والعدوانية في التعامل. لا أعرف كيف أصفه لك. كان عميلًا لفرق "إس.إس" النازيّة، وحاول تجنيد الشباب الفلامان في هذه الفرق. وأراد تحويل حصن نابليون، شرق "أوستند" إلى معسكر اعتقال لليهود والمعارضين للاحتلال الألماني. بعد نهاية الحرب، حاول الهرب إلى المكسيك، ولكن تمّ اعتقاله، وحكم عليه بالإعدام الذي خُفّف إلى السجن مدى الحياة. ومات، بعد أن أذاقه السرطان عذابًا شديدًا.

- شكرًا جزيلًا، سيدتي. لا أبحث عن بيت للإيجار. كوني أسكن في شقّة. أشكرك على صراحتك. هل من خدمة يمكنني أسداؤها لكِ؟

- لا. شكرا.

أدارت العجوز ظهرها لي، والخيبة تقود خطواتها المهزوزة المتعثّرة بظلها الشحيح المجعّد على الرصيف كخرقةٍ باليةٍ من قماشٍ رمادي، تحرّكهُ نفحات الهواء. لربما كانت تريد التحدّث مع شخص ما، يخفف عنها وطأة الوحدة وقساوتها، وتحجّجت بالاستفسار عن سبب وقوفي أمام الكنيس، وهل أنا

أبحث عن بيت للإيجار؟ أم لا؟. أحسستُ بأنني ارتكبت خطًا فادحًا بإنهاء الحديث معها. كان عليَّ تركها تسترسل في الكلام. ولكن، لم يكن أمامي خيار آخر. فلا هي دعتني لدخول منزلها كي نكمل الحديث. ولا أنا أردتُ أن تقف أكثر على قدميها مُدةً أطول، كونها طاعنةٌ في السنّ.

فكرة ارتكابي خطأ انهاء الحديث مع العجوز، سيطرت عليّ في الطريق من الكنيس إلى شاطئ البحر. وأثناء السير في شوارع المدينة، أشعرتني أصوات النوارس كأنّني على متن مركبٍ منهكٍ وقديم في عرض البحر، يقتربُ من اليابسة، بعد رحلة توهان طويلة، وسط هيجان الأمواج والعواصف العاتية، بحثًا عن جزيرة مجهولة. صرت أعتقد أنه إذا خلا يومي من سماع أصوات النوارس، سيكون شديدَ الوطأة، الكآبة، الضجر والاحتقان عليّ. أصوات النوارس تذكّرني بأنني ما زالت حيًّا. بينما البحر، في كل مقابلة معه، يؤكّد لي بأنني الغريب العابر. لماذا لا يألفني البحر؟! لا أعرف كيفيّة إقناعه بأنني، مثلهُ، صرتُ أعشق هذه المدينة. وأنني شريكه في حبّه لها؟! كيف لي أن أقنعه بأنني لستُ خصمه، ولا يمكنني مجاراته في لفت انتباه المدينة إليّ. أواصل مساءلةَ نفسي: ما الذي اقترفتهُ بحقّ البحر من إثم، حتّى ألمسَ منه هذا الجفاء وعدم الاكتراث؟!. قلتُ له، بكثير من الثقة والأمل والعزم:

- يا بحر الشمال؛ بعد تورّطي في حبّك وحبّ المدينة، ما عدتُ غريبًا عابرًا، ألقتْ به الصدف، وجنونُ وفوضى الأقدار، إلى ملاقاتك هنا! "أوستند" تبادلني الحبَّ. وأنا واثقٌ من أنه سيأتي اليوم الذي تحبّني فيه، كجزءٍ أصيل من المدينة.

ثمّة مقهى وبار على الرصيف البحري، كثيرًا ما أرتادهُ، دون غيره. لا أعرف لماذا؟ ربما بسبب النادلة الحسناء التي تعمل فيه. فتاةٌ في مطلع العقد الثالث من عمرها. تتجاوزني طولًا، رخاميّة الجسد، عريضة الورك والكتفين، بخصرٍ نحيل. شعرها الذهبي المربوط إلى الخلف بشريط أزرق، بدا وكأنه ذنب فرسٍ أصيلة. جسمها بضٌّ، يكاد يشفّ عن العظام. في ملامح وجهها، لمسات سلافيّة وأخرى هولنديّة. عينان زرقاوان، لوزيتان واسعتان، برموش شقراء طويلة، وحاجبان طويلان مسحوبان كقوسين. أنفٌ صغيرٌ، مدبّب، مرفوع. وجنتان ورديتان مرفوعتان. فم صغير، بشفتين رقيقتين. وجهٌ مستدير، ممتلئ، صقيل، يميل بيضاه إلى الوردي. الناظر إلى نهديها الممتلئين، ينتابه الحسد والغيرة من حمالتيهما، ومن القميص الأبيض الشفاف الذي ترتديه. أمّا ابتسامتها؟! فيا سبحان ابتسامتها والسحر المنبعث منها! ويكفي المرء النظر إلى هذه الفتاة بضع دقائق، حتّى يعرف ويؤمن أن الله حقّ، وأنه خالق الكون والجمال، من دون أن يؤمن بالأنبياء والرسل ومصاحفهم.

كلما دخلت المقهى، أجد إلى جانب الطاولة الأولى، مقابل زجاج واجهته، رجلًا عجوزًا، في العقد السابع من عمره. ضخم الجثّة، سمين، بوجهٍ مترهّل، شديد التغضّن. عيناه الزرقاوان، شديدتا الاحمرار، وكأنّهما لم تذوقا طعم النوم منذ شهر. أنفه

صغير ومعقوف. يعتمر قبعة فرنسيّة، تغطي جبهته. ثمّة معطف أسود على الكرسي المقابل له، وأمامه على الطاولة إمّا كأسان من النبيذ الأحمر أو من البيرة. هيئة طاولته توحي بأنّه ليس لوحده، وأن الكأس الأخرى الممتلئة على الطاولة، ليست له، والمعطف الموجود على الكرسي، هو لشخصٍ آخر. وأنّه ربما ينتظر شخصًا ما، خرج لقضاء حاجة وسيعود بعد قليل.
أحيانًا أسمع تمتمتهُ وغمغمتهُ كأنّه يتحدّث مع شخص آخر. أحيانًا أخرى، يفاجئني بقهقهته، وضربةُ بيدهِ اليمنى على الطاولة. نجحت في التقاط عبارة واحدة فقط من كل تمتماته لك: "كل مرّة، أقول فيها لنفسي، هذه هي آخر مرّة آتي فيها إلى هنا. ولكن...".
بعد مضي نصف ساعة على الحال هذه، يخرج من المقهى، واقفًا أمام الواجهة، ليدخّن سيجارة. أراقبه بفضول واستغراب. تزداد حالة التمتمة لديه، وتزداد معها حيرتي ودهشتي. يحرّك يديه ورأسه أثناء الحديث مع نفسه. وما أن ينتهي من سيجارته حتى يعود ليشرب واقفاً الكأس الأخرى، التي ظننتها لشخصٍ آخر. ثمَّ يتناول المعطف الموجود على الكرسي، مُرتديًا إيّاه، ويهمّ بالخروج. على محيّاه ملامح اليأس والقنوط.
هذا المشهد، تكرّر أمامي عشرات المرّات، صيفًا وشتاءً، والمعطف الأسود لا يغادره. أجّج ذلك الفضول في داخلي. ذات يوم، وجدت الطاولة فارغة. سارعت بالجلوس إليها. أتت النادلة الحسناء، وقالت:
- معذرة سيدي. الطاولة محجوزة في هذه الأوقات، للسيد فريدريك أندرسون. والمقهى شبه فارغ، وكل الطاولات الأخرى متاحة لك.
- تقصدين الرجل العجوز؟
- نعم.
- معذرة على فضولي الشديد. هل لي بسؤال، من فضلك؟
- بكل سرور. تفضّل.
- ما قصّة هذا الرجل؟ أراه يرتدي نفس المعطف، صيفًا وشتاءً، ويطلب كأسين من البيرة أو النبيذ، ويتمتم ويتحدّث مع نفسه؟!
- تقريبًا، قصته صارت مرتبطة بقصّة هذا المقهى الموجود هنا، منذ أكثر من مئة عام. والد السيد أندرسون، استرالي، كان ضابطًا في البحريّة البريطانيّة اسمه والتر أندرسون. أسرهُ الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية. ادّعى أنه فقد الذاكرة. وقضى سنة في حصن "بريندونك" القريب من مِخلين، بين بروكسل وأنتويربن، الذي استخدمه الألمان كمعسكر للاعتقال، بعد احتلالهم لبلجيكا سنة 1940. ولكونه رياضيًّا قويَّ البنية، تحمّل والتر ظروف التعذيب والاعتقال في هذا المعسكر، السيئ الصيت. بالإضافة إلى أنه كان مطيعًا، يتحاشى خلق أي استفزاز لقائد المعسكر، الضابط الألماني فيليب شميت.
الضابط البريطاني تشالز أرنولد، الذي حرر سجن "بريندونك" نهاية 1944، تعرّف على أندرسون، من بين السجناء، بمحض الصدفة، ونقله فورا إلى المعالجة الطبيّة. وحوّل أرنولد الحصن إلى سجن للفلامان المتعاونين مع النازيين، والذين كانوا يحرسون الحصن، ويشرفون على عمليات التعذيب بحق أبناء المقاومة البلجيكيّة،

واليساريين الفلامان والوالون البلجيكيين الرافضين الاحتلال الألماني.
بعد انتهاء الحرب، رفض والتر العودة إلى بريطانيا أو استراليا. كَرِهَ الحرب والعسكر وبلاده التي دفعته للانخراط فيها. وحافظ على علاقته بالبحر، بقي في "أوستند"، وعمل صيّادًا. كان يرتاد هذا المقهى، وتعرّف فيه على امرأة فلامانية، أحبّها وتزوّجها وأنجب منها ثلاثة أطفال؛ جوزفين وكارين وفريدريك. ورِث فريدريك مهنة أبيه وزورقه، وارتياده للمقهى. كان مثليًّا، وقع في حبّ صديقه البلجيكي، صيّاد السمك، لوكاس فان مارتن.
فريديك وصديقه لوكاس، تعرّفا إلى بعض هنا، قبل ما يزيد عن أربعين سنة، وعاشا معًا حياةً سعيدة، في وقت كان المجتمع البلجيكي يرفض زواج المثليين. لأن تقنين هذا الزواج في بلجيكا لم يتمّ إلاّ سنة 2003. ومنذ ثلاثين سنة، وفريدريك على هذه الحال. يرتدي معطف صديقه في كل الفصول. ويرتاد المقهى لوحده. يضع المعطف على الكرسي الذي كان يجلس عليه لوكاس. ويطلب كأسًا من النبيذ أو البيرة لصديقه. ينتظر مجيئه. ولكنه، لا يأتي. فيشرب كأس صديقه ويغادر المكان. الكثير من النُدُل الذين تعاقبوا على العمل في هذا البار، يعرفون هذه القصّة. إلى جانب أن الكثير من زبائننا، يأتون لرؤية فريدريك، دون أن يزعجوه بفضولهم وأسئلتهم. صاحب المقهى، ينتابه قلق بخصوص انخفاض عدد الزبائن، إذا مات فريدريك. وبات يفكّر في إطلاق اسم أندرسون على المقهى، ووضع نصب تذكاري له، في نفس مكان الطاولة التي يجلس بجوارها، ليس فقط لتخليد ذكراه، بل لجذب المزيد من الزبائن أيضًا. ربما تبدو لك المسألة غريبة ومضحكة في أن تصبح مآسي وآلام الناس، في مرمى الاستهداف والاستثمار. أليس كذلك؟!
- وأين اختفى صديقه؟!
- هنالك قصص وروايات كثيرة حول هذا الاختفاء الغامض. منها؛ أن فريدريك ألقى به في البحر، أثناء رحلة صيد، بعد أن لمس منه الخيانة مع رجل آخر. وندم على هذه الجريمة، ويعاقب نفسه عليها. وآخرون يقولون: إن المسألة معكوسة، حيث انتحر لوكاس بالسمّ، بعد اكتشافه خيانة صديقه له مع رجل آخر. ومنهم من يقول: إن لوكاس، غادر بلجيكا، إلى جهة مجهولة، لسببٍ مجهول، تاركًا رسالة لصديقه يذكر فيها أنه سيعود سريعًا، ويلتقيان هنا، في نفس المكان الذي التقيا فيه أوّل مرّة. ولكنه لم يعد منذ ثلاثين سنة.
- هذه القصّة، مثيرة للاهتمام، وأثارت لدي فكرة كتابة عمل روائي خاص وكامل، يتناول عوالم المثليين، فيما يتعلّق بالعلاقة بينهم من الحبّ، الإخلاص، الغيرة، الغدر، الخيانة والانتقام، كونها لا تختلف عن عوالم البشر العاديين. ربما تسخرين منّي أو تستغربين من رأيي هذا. لكن أعتقد أنه يمكن لهذه العوالم، أن تكون مادة دسمة لأعمال روائيّة وسينمائيّة، بعيدًا من التعريفات والتقييمات التقليديّة.
ابتسمت النادلة، وقالت:
- هنالك كتّاب وروائيون هولنديون وبلجيك كثيرون، مثليون وغير مثليين، تناولوا هذه العوالم في رواياتهم، وهذا

ليس سبقًا يا سيدي. ولكن، هل لي أن أتعرّف بحضرتك؟!
رغبتها في التعرّف إليّ، أنستني قصة فريدريك وحبيبه المفقود، وأدخلت إلى قلبي الغبطة والانتعاش، كون هذه الرائعة تودّ التعرّف إليّ. وهذا يعني أنني تركت لديها أثرًا إيجابيًّا، وحفّزت الفضول لديها. فأجبتها:
- هوشنك أوسي. كاتب وشاعر كردي سوري، مقيم في "أوستند".
زادت من ابتسامتها، ففاض السحر والروعة والجمال منها، وأغرق المكان. وقالت:
- شانتال ديفوس. كاتبة وروائيّة. تشرّفت بالتعرّف إليك.
ما أن أنهت التعريف بنفسها، ثمّة قوّة خفيّة جعلتني أقف منحنيًا لهذا الجمال الإبداعي والربّاني العظيم، ومصافحتها مندهشًا ومصعوقًا، كمن عثر على كنز. ولعنتُ برنارد شو على مقولته المشهورة: "لا يجتمع في المرأة اثنان، الجمال والذكاء".
- روائيّة، وتعملين نادلة؟!
- عملي في المقهى، ليس بقصد الحاجة الماديّة. بل بقصد التعرّف إلى البشر، والاستماع إلى قصصهم، فربما يلفت انتباهي بعضٌ منها، وتصبح مادّة لرواية أكتبها، مضيفةً إليها الكثير من الخيال والفانتازيا.
- اتخاذ البار والمقهى كمنجم للقصص والروايات، أمرٌ شديد الذكاء، ولا يخطر في البال. هل صدرت لك أيّة أعمال؟
ذهبت، وعادت بسرعة وفي يديها كتاب، أهدتني إيّاه، وقالت:
- ما زلت في البداية. هذه روايتي الثانية، عنونها "الممسوس" صدرت قبل عام. وروايتي الأولى كانت قبل ثلاث سنوات، بعنوان "ميركاتور" تناولت فيها قصصًا متخيّلة، جرت أحداثها على متن سفينة "ميركاتور" التي هي الآن متحف، يرتاده الزوّار والسوّاح في "أوستند". وبيني يديّ الآن، رواية بعنوان "الدمشقي"، تتناول حياة لاجئ سوري مقيم في بروكسل، تعرّفت إليه بمحض الصدفة في مطعم شعبي، يملكه شخص سرياني سوري في حي "سان جوس". إنها لفرصة سعيدة جمعتني بك أيضًا، وجعلتني أتعرّف إليك. يسرّني التواصل. هذا كرتي، فيه رقم الموبايل والايميل وحسابي على الفيسبوك والتوتير. معذرةً، يجب عليّ العودة إلى العمل. ولنبق على تواصل.
غادرتني الفتاة على عجل، وتركت عطرها يحلّ محلّها، كمن أدركَ أنه أهملَ شيئاً، يريد تلافيه. وتركتني أتأمّلُ قامتها، من بطتيّ ساقيها الرشيقتين، وصولاً لشلالِ شعرها المربوط كذنب فرس، مروراً بارتجاج مؤخّرتها وحركتها الدائريّة الفائقة الإتقان والجمال، إلى جانب إمساكي بكتابها، مشدوهاً، كمن على رأسه الطير. وتبادر لذهني سؤال: هل ستكون لغتها وخيالها الروائي بهذا السحر والفتنة التي هي عليه؟!.
الغريب أنه منذ ذلك اليوم، غاب فريدريك عن طاولته. فصار زبائن المقهى، من ضمنهم أنا، يفتقدونه وطقوسه التي اعتادوا عليها. بعد مضيّ شهر من ذلك، سألتُ شانتال عن سبب غيابه، فقالت:
- انتحرَ شنقاً. ولم يكتشف أحدٌ ذلك، إلاّ بعد أن فاحت رائحة جثّته، فاستدعوا

البوليس الذي اكتشفه. وأثناء بحثهم، اكتشفوا أيضًا في قبو المنزل مدفنًا، عثروا فيه على عظام لوكاس. وبقي لُغز سبب موته حيًّا، ولم يُدفن مع جثّة فريدريك. خاصّةً أن الأطباء لم يتوصّلوا إلى نتيجة، بعد فحصهم العظام.
اللافت أكثر، أن فريدريك ترك مخطوطًا، لم يكشف البوليس عن تفاصيله بعد. وأعتقد أنه ربما تكون يوميّاته أو مذكّراته، التي يمكن الاستفادة منها، ليس في إماطة اللثام عن الكثير من خفايا حياة فريدريك ولوكاس، فحسب، وبل في كتابة رواية هامّة، تكون علامة فارقة في عالم الأدب الذي كُتِبَ عن البحر.
جرت العادة أن يكون هنالك معرض للتصوير الضوئي في الهواء الطلق، على الرصيف البحري، ينظّمه القسم الثقافي في بلديّة "أوستند". ومساء أول من أمس، قبل ميلانِ الشمسِ نحو المغيب، كان الرصيف مكتظًّا بالمشاة من المصطافين والسيّاح. بينما قلائل مَن وجدتُهم يقفون أمام المعرض، يتأمّلون الصور الضوئيّة. هذه الصور، على درجة عالية من الجودة الفنيّة والحرفيّة، وتنمّ عن عين تمتلك ثقافة بصريّة ثرّة. عين قنّاصة، تعرف كيف تختار زاوية الكادر، بحيث تمنح الصورة الملتقطة، على بساطة مفرداتها، قدرًا كبيرًا من الصدمة والإدهاش للمُشاهِد، وتحفّز المساءلة الداخليّة لديه. أذكر ذلك، لأنني أعرف مدى شغفك بالفنّ التشكيلي والتصوير الضوئي. الصور الضوئيّة المعروضة، ركّزت على التعريف بحالات الفقر، البؤس، الجوع والحرمان التي يعيشها أطفال أفريقيا. ورغم ذلك، الابتسامة لم تفارق وجوههم. أعتقد أن الفنان، صاحب المعرض، أراد القول للأغنياء المصطافين: "أيها السادة والسيدات، أثناء تمتّعكم بجمال المدينة وبحرها وأجوائها، لا تنسوا أن هنالك جياعًا وبؤساء في هذا العالم. التفتوا إليهم أيضًا". ولكن، ليس هنا بيت القصيد، بل في رؤيتي ملامحك، موزّعةً على وجوه كل الأطفال الموجودين في تلك الصور. صدمني الأمر وأذهلني. فركتُ عينيّ، وأمعنتُ النظر، مرارًا؛ نعم، هي ملامحك.
سردت الحادثة على زوجتي. هي أيضًا ابتسمت، ولم تصدّق ما أقوله. مساء أمس، أخذت معي كاميرا فوتوغرافيّة. وتفحّصتُ لوحات المعرض، واحدة تلو الأخرى. مجدّدًا رأيتُ ملامحك في كل الوجوه.

التقطت الصور لها. عدت إلى البيت، وأريت الصور لزوجتي، قائلًا:

- دقّقي في الصور، أليست هذه ملامح صديقي؟!

نظرَتْ بتفحّص وتركيز، وأجابت، دون تردد:

- بلى. بالفعل، هي!

مساء اليوم، عاودتُ السير على الرصيف البحري، وكان المشهد تكرارًا ليوم أمس، والذي قبله؛

الرصيف مكتظّ بالمشاة، سيّاحًا ومصطافين. ورمال البحر، افترشها الآلاف. ضحكات الأطفال، أصوات الناس، النوارس التي تحلّق وتغنّي، المقاهي والمطاعم المليئة بالزبائن... وكذلك معرض التصوير الضوئي... كل شيء على حاله. ولكن، هذه المرّة، حين دقّقت وأمعنت النظر في صور المعرض، لم أجد ملامحك في وجوه الأطفال الأفارقة الموجودين فيها!!

أيضًا، تفاجأت واستغربت!؟ التفتُّ ببطء وخيبة نحو البحر، وقرأت في ملامحه، وكأنّه ينظر لي وحدي، دونًا عن هذه الحشود التي تغطّي الرصيف والرمال. قرأتُ في أمواجه، هذه المرّة، نظرات ودّ وألفة ومحبّة، أنستني سبب غياب ملامحك عن تلك الصور. الآن، بإمكاني القول لك: ثمّة مدنٌ نسكنها. وأخرى تسكننا. وقليلةٌ جدًّا هي المدن التي نسكنها وتسكننا في آن.

المتعة التي أعيشها في "أوستند"، ومجاورتي البحر، وحواراتي معه، أريدُ أن يشاطرني إيّاها كل أصدقائي. ورغم ذلك، ثمّة هاجس يومي، يقلقني ويؤرّقني كل مساء، بأنني سأفجع غدًا بخبر يصيبني في مقتل. كأنْ أستيقظَ على خبر اعتقالك وسوقك، مقيّد اليدين، معصوب العينين، إلى سجون نظام الأسد! أخشى أن يفاجئني أحدهم بخبر رحيلك الأبدي منذ عشر سنوات، تحت التعذيب، دون أن أكون على علم به! أو أن يصدمني بخبر غرقك في البحر بين أزمير والجزر اليونانيّة منذ خمس سنوات! أو أن أتفاجأ باسمك بين القتلى المدنيين الأبرياء، أثناء انفجار سيارة مفخّخة في أحد شوارع دمشق منذ ثلاث سنوات. أو أن يفجعني أحدهم بخبر فقدان أحد أفراد أسرتي.

أيًّا يكن من أمر، لا أريد أن تكون قد قرأتَ هذه الرسالة بعد سنتين من موتي. أو أن تكون أعدتَ قراءتها منذ ساعتين أيضًا، لأنّك تذكّرتني فجأةً. فقط، أحاول إيصال القليل من متعة العيش هنا إليك، علّي أخفّف عنك بعضًا من آلامك وآلامي.

كما قلت لك: لا تخش شيئًا، ولا تقلق. أنا واثق من أن هذه الأسطر، ستصلك ولو بعد حين.

علبة كينوا

أحلام الإكوادور الضائعة واكتساب مهارة أن يشعرك كل شيء بالإهانة في خطوات بسيطة

رشا عباس



ربما نجا المرء من مصائر مروعة، لكن لا وجود لضمانات أنه سينجو بالضرورة من كثافة إزعاج يومي يستهدفه كل يوم على الشاشات وفي تويتر وعلى لافتات يراها في الطريق. ذلك ما دفعني لأبحث عن لائحة البلدان التي يستطيع الواحد منا أن يطفش إليها دون تأشيرة، وظننت أنني وجدت الحل أخيراً: الإكوادور.

ليس المقصود بالإزعاج اليومي مجرد ما تتفتق عنه أذهان ناشطي الشعبويات اليمينية الأوروبيين في الدعاية لقضيتهم، من منشورات وملصقات طرقية وغرافيتي، في الواقع فإن بعض التصرفات التي يسلكها أنصار"نا" عن نية طيبة لا تقل إزعاجاً، والدليل هو اضطرار المرء لاستخدام لهذه الـ"نا" الجماعية التي تذوب فيها أي فروقات فردية ضمن هذه الجماعة التي يصر أنصارنا طيبو النية أولئك على التعامل معها ككتلة واحدة.

في البداية لم تكن أمنية التصرف كفرد كونيّ، ضاغطة للغاية، كنت أسلّم من منظور فكاهي بحقيقة أنّني ابنة ثقافة وسيرة حياة تلتصق بي ولا مشكلة لدي في ذلك حتى لو تم تصنيفي وفقها، ولكن حلم "الفرد الكونيّ" هذا بدأ يتكثف أكثر فأكثر بعد التعرض لدفق إعلامي يستعرض قضية "اللاجئين" بهوس على مدار الساعة، هناك أيضاً أولئك ممن "يحبون" اللاجئين من أبناء المجتمعات المضيفة، هكذا عموماً "يحبون اللاجئين"، بعض الأصدقاء لا يتركون فرصةً تمر دون تذكير المرء بتضامنهم الدائم معه، حتى بات ما كنت أود لو اقتصر على وضع قانوني وإجرائي يتحول إلى هوية محكمة، وبت أفتقد الوقت الذي كنت فيه فرداً بملامح وسيرة لا مجرد وجه تائه في قضية، ومن ثم وجدت أنني اكتسبت بسرعة مهارة الشعور بالإهانة من أي سلوك أواجهه، إيميل دعوة إلى نشاط ثقافي، رسالة تضامن أو أي حديث ذي طابع هوياتي يتضمن أسئلة متلاحقة ضاغطة عن كيف أشعر الآن وماذا يمثل مفهوم المنزل بالنسبة إلي ولماذا يقضي السوريون الكثير من الوقت على فيسبوك، والتي كنت أجيب عنها مسبقاً بأريحية تامة.

إحدى لحظات الذروة كانت إعلان حظر السفر إلى الولايات المتحدة، لمواطني ست دول – قبل إضافة كوريا الشمالية وفنزويلا وتشاد بعد ذلك – لائحة الدول حملت اسماً له رنة شاعرية بالإنكليزية تصلح لأن تكون عنوان قصيدة سوداوية: (countries of concern) – دول القلق. رغم إحباط هذا الحظر لرحلة مهنية كنت قد خططت أن أذهب فيها إلى واشنطن، لكنني لم أشعر بخسارة فادحة للغاية، أعني من بين مساحات شاسعة يصعب عليّ دخولها في العالم متضمنة معظم الدول العربية، لم يكن مهماً جداً أن يضاف إليها هذا القسم من القارة الأمريكية الشمالية. مع ذلك كان عليّ مرة

أخرى أن أتعرض لسيلٍ من تعبيرات التضامن والتعاضد والمواساة.

قد لا يبدو مضمون الحديث أعلاه قمةً في النبل والأخلاق، إذ لم يمكن أن ينزعج أحدهم بسبب تضامن الآخرين معه؟ هذا صحيح، ولكن أيضاً قد تحل لحظات على أحدهم هذا تكون جلّ أمنياته فيها أن يترك وشأنه. في هذا التوقيت بدأت أجري الأبحاث عن الدول التي يمكنني أن أحمل حقائبي وأقصدها دون أن تعاملني سفاراتها كوباء، وهنا بدأ حلم الإكوادور.

لا يحتاج دخول الإكوادور إلى تأشيرة، ليس هناك عدد كافٍ من المهاجرين لتنشغل وسائل إعلامها على مدار الساعة بهذا الموضوع، هناك قد أعثر على أشخاص لا يعرفون ما هي سوريا، وأتجنب استجواباً مطولاً بشأن ما يحدث هناك، وبإمكاني الاستمرار في أداء عملي المستقل الذي أستطيع تأديته من أي مكان.

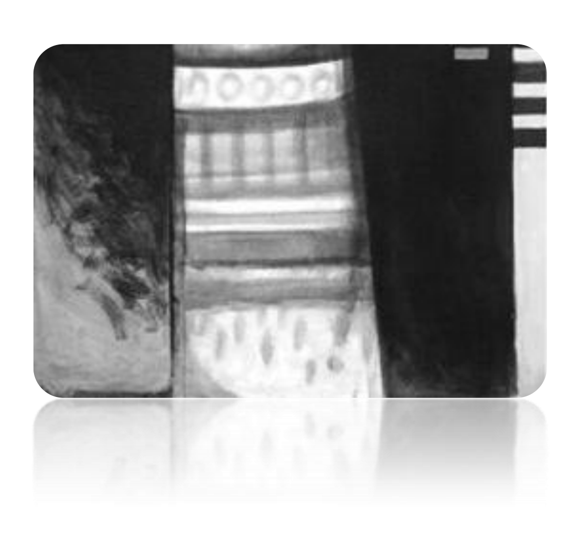
هنا بدأت المرحلة التي أصبحت فيها معنية بالشأن الإكوادوري، أتابع تصريحات الرئيس - حينها - كوريا باهتمام، وأقرأ مدونات لأجانب مقيمين في الإكوادور يقدمون فيها نصائح لمن يود السفر إليها، ويحذرون من الانجراف وراء أحلام الحياة الأمازونية وسحر الأنديز التي يجري خلفها كما يبدو، الكثير من المتقاعدين ممن يبيعون أملاكهم وينتقلون للعيش في الإكوادور ليجدوا أنّ الحياة ليست كما توقعوها.

بدأت هذه الأحلام تتهاوى، بعد أن قرأت تصريحاً لكوريا يوبخ فيه المجتمع الدولي ويتعهد بأن الإكوادور وإسبانيا ستقومان بتلقين العالم درساً في كيفية التعامل مع اللاجئين، وكذلك لأنني اكتشفت أن قدرتي على المغامرة في أسوأ أحوالها.

كان عليّ أن أعود للتأقلم مع حياتي والإصرار على محاولة العيش كأي فرد كونيّ، أتمشى في طريق المنزل حاملة المشتريات، أبتسم للمارة كأي فرد صالح، مواد أولية صحية للطهي، علبة من حبوب الكينوا لتحل محل الأرز بسعراتها الحرارية المنخفضة. أثناء طهو هذه الحبوب أحدّق في النافذة وأفكّر في سنوات صباي الأولى، سبق أن مضت فترة من الجموح في السنوات التي تسبق العشرين، كان أي جار أو فرد من العائلة ليهز رأسه مستشرفاً مستقبلاً شريداً لي في الأزقة، وفرصاً معدومة للزواج، أي رجل "محترم" سيرغب بالزواج من هذه المراهقة الداشرة التي لا تتزحزح من البارات؟ الآن في بلدةٍ صغيرة بعيدة، أتحرك بهدوء لأجهز طبق كينوا يحفظ ما تبقى من صحتي العامة ولم تدمره جرعات النيكوتين والكافيين، أسلوب حياتي الآن ردٌ حاسم على تلك الاتهامات والتكهنات بشأن مستقبلي، لا أعرف في الواقع إن كان هذا انتصاراً أم هزيمة، إذ عندما أراقب العالم من خلف هذا الساتر الزجاجي الشاحب، من مكاني فوق بخار القدر الذي يلفح وجهي برائحة الحبوب عديمة النكهة التي تتشرب أضعاف حجمها من الماء، متظللة بالجدران السميكة لحياة باهتة من عبء الأسئلة والتجارب والقوالب الهوياتية المضنية، تنسكب في رأسي كل تلك الأحلام الحارة دون أن أستطيع منعها إلا بسيل من الماء الباردة أصبه على رأسي في نهاية كل حمام. السيرة التي كان يمكن أن تنتهي إليها الفتاة الخرقاء التي كنتها، الشغف، ابتسامة تضيء المكان، أقل برودة من تلك التي أحيي بها المارة بتأدب، استقبال التجارب المزعجة برضا والتعامل مع نتائجها مقابل استرجاع ذلك الجموح الأسود الذي سبق وأن تخليت عنه بجبن شديد حين أنكروه علي، حتى ذوى مخلفاً بقايا من ظلال باردة شلتني عن الانخراط في أي انفعال، الأحلام الحارة التي تسري خلف بشرتي الجليدية، وتشق الأرض بعشق كما سبعة أنهار تجري بعيداً في الإكوادور.

المنفى: بوصلة الحلم وبحر الخيبات

هيثم حسين



هل الغريب هو ذاك البعيد عن مسقط رأسه ومسرح ذكرياته أم هو ذاك المنفيّ في ذاته؟ ألا يكون المنفى المكانيّ تحصيلاً حاصلاً لذاك المنفى المستديم الذي كان يعشّش في روح صاحبه؟ هل يمكن ترويض المنفى من خلال الزعم بالاندماج المفترض وتناسي ما كان بحثاً عن الممكن المحتمل؟ هل حقّاً اللغة هي مفتاح البلاد الجديدة أم أنّ هذا من أوهام اللاجئين لا غير؟

حين تسكن الغربة وجدان المرء فإنّها تبقيه بعيداً عن واقعه، بعيداً عن التأقلم مع محيطه، غريباً في حلّه وترحاله، غير قادر على الاستدلال إلى سبيل لتهدئة قلاقله ومخاوفه المتجدّدة، تخرجه عن سياقه الاجتماعيّ المفترض وتضعه على سكّة معتمة قوامها الأسى المتعاظم.

لا ترتبط الغربة بمكان بعينه أو زمان محدّد، بل تكون ملازمة للإنسان سواء كان في بيته، أو بلده، أو في منفاه أو ملجئه أو مهجره... ولا أعتقد أنّ تسميتنا للمهاجر ببلاد الغربة تكون دقيقة في أكثر الأحيان، ذلك أنّ الغربة التي تشير إلى البعد عن الوطن، وتحيل إلى مفارقة الأهل والأحبّاء والأصدقاء الموجودين في الوطن، تتبدّد في حالتنا السوريّة الراهنة، ولاسيّما مع تعاظم أعداد المهاجرين واللاجئين في "بلاد الغربة".

كانت بلادنا المحتلّة من قبل العصابة الأسدية الحاكمة للأسف بلاد الغربة البغيضة لأنّها كانت تعدّ إقطاعة يسرح فيها الطاغية وأذنابه، وقد وصل بهم الأمر إلى تدميرها وتشريد الملايين من أهلها، وذلك بعد رفع شعارهم المدنّس: "الأسد أو نحرق البلد". هذا الشعار الذي التزموا به على عكس عادتهم في رفع الشعارات الباهتة والمتاجرة بها لتحقيق مآربهم في إدامة السيطرة والتحايل على الناس.

كثيراً ما كنت أشعر بالغربة في بلدي، وبين أهلي وأصدقائي، كانت القراءة وسيلة للتصالح مع ذاتي، بالموازاة مع الكتابة التي كانت دليلي وسبيلي لتبديد

جزء من غربتي التي كانت تتفاقم يوماً بيوم. كانت كتابة كلّ كتاب أو مقال تحدّياً ومجازفة ومواجهة للمحتلّ المتقنّع بأقنعة النظام وشعارات البؤس اللعينة، لدرجة أوصلت الناس ليعيشوا غربة مفجعة وهم بين ذويهم وفي بيوتهم، وصحّ عليهم قول الشاعر: "أغرب الغرباء منَ يكون غريباً بين أهله".

باتت الغربة متلازمة السوريّ في بلده ومهجره، يعاني مراراتها التي تبقى مدمّرة لكيانه وروحه، وبرغم محاولات التكيّف والتأقلم مع ظروف حياته الجديدة في ملجئه، إلّا أنّه يحاول تصميم ركنه الأثير فيها، ذاك الركن الذي يعيد فيه هندسة جزء ممّا فقده في بلده، جزء من بيته، يبقي ذاكرته مستعرة كسبيل للحماية والاستقواء في مواجهة قسوة الزمن.

النظام الذي سعى إلى تغريب السوريّ عن وطنه استكمل سلسلة إجرامه بحقّ مستقبل البلاد، بحيث لم يخلق طيلة حكمه لعقود انتماء للوطن بالمعنى الحقيقيّ، بل حرص على اختصار الوطن في شخص الطاغية، وتقزيم الوطن من أجل تعظيم الطاغية الذي شوّه مفهوم الوطنية والانتماء والولاء، وكان القول الإجراميّ المفتّت للوطن: "أنا الوطن والوطن أنا"، ثمّ تنسيب البلاد له وكأنّها كانت بوراً وصحراء قاحلة قبل استفراده بها.

أشياء بسيطة تشعر المرء بالغربة القاهرة، تلذع روحه وتجلد كبرياءه، من ذلك مثلاً أن يذهب في زيارة قصيرة قريبة لبيت أحد الأهل والأصدقاء القريبين منه لاحتساء فنجان قهوة، وتمضية ساعة للحديث عن شؤون الحياة وشجونها، وتبادل أحاديث بسيطة بعيدة عن الأخبار والسياسة، لكن ذلك في "بلاد الغربة" نوع من الأحلام العصية على التحقّق، أحلام تشطر قلب الحالم المغترب.

الغربة الحقيقيّة تتجلّى في وجه من وجوهها لدى المرء حين يكون محروماً من أبسط حقوقه في الحياة، في التعبير بحرّيّة، في التمتّع بالمواطنة وحقوقها المشروعة الواجبة، في إبداء الرأي في القضايا المصيرية، وحتّى في تلك التفاصيل الصغيرة التي قد يزعم البعض أنّها لا تشكّل شيئاً في دورة الحياة.

الغربة الحقيقيّة التالية ربّما ستتجلّى في تبلور ذاكرة مختلفة للأبناء مختلفة عن ذاكرة الآباء، سيغدو للغربة جيلها الذي تشكّلت ذائقته وذاكرته وذكرياته بعيداً عن الوطن، سيصير المنفى وطناً للجيل الجديد، وسيشعر أبناؤه بغربتهم عن آبائهم حين يشتاقون لمكان يجدونه بعيداً عنهم، يعتبرونه منفى لهم غير قادرين على التفكير في العيش فيه، لأنّهم وجدوا أنفسهم ملفوظين، أو مولودين خارجه. سيبكي الآباء ماضيهم

ومستقبلهم متشبّعين بالغربة والمنفى، بينما ستكون مراراتهم وذكرياتهم بالنسبة للأبناء غريبة، وقد تدعو إلى الرثاء أحياناً. ربّما هذه الحالة تعدّ وجهاً من وجوه الغربة الحقيقيّة، وصيغة منفى متجاوزة للأجيال.

كانت غربتي الصاعقة لروحي حين كنت أعيش في المكان الذي كان يفترض أنّه بلدي، وكان النظام يتعامل معنا كقوّة احتلال واغتصاب، يحرمنا من التحدّث بلغتنا، من الكتابة والقراءة بلغتنا، يعمل على محونا وتهميشنا وتغريبنا ودفعنا إلى الهروب أو الإذعان والرضوخ لسياساته القذرة.

كثيراً ما أفكّر في بلدي ومدينتي، وحين أسأل عن احتمال عودتي، فإنّني أجد نفسي لاغياً الاحتمال فوراً، لا لعدم رغبة في العودة، بل لأنّ تلك العودة المفترضة ستكون بمثابة رصاصة رحمة لي، ستقضي على ما احتفظت به من جماليات وذكريات عن الأمكنة والأصدقاء الراحلين. أوقن أنّني سأصادف مكاناً مختلفاً عن ذاك الذي احتفظت به في ذاكرتي وقلبي ووجداني، وستكون غربتي مضاعفة، لأنّ بوصلة الحلم ستتشتّت وتضيع في بحر الخيبات.

لم تكن هناك حرمة لأحد في "الوطن"، حتّى الوطن نفسه كان مستلباً مغتصباً منهوباً. في الملاجئ، يستدلّ المرء إلى إنسانيّته المهدورة، وبرغم أنّ قهره يكون بصيغة أخرى، ويبقى مسكوناً بمخاوفه ووساوسه، إلّا أنّه يتحرّر من مخاوف قاتلة، كأن يداهم منزله بعضهم في منتصف الليل، أو في الفجر، أو في أي وقت آخر من دون استئذان، لأنّ هذه الممارسات الهمجيّة خاصّة بـ"الوطن" المسلوب، وليس ببلاد الغربة.

يحمل الغريب وطنه في قلبه ويمضي إلى غده، يحاول أن يتكيّف مع محنته المتمثّلة في البعد عن مكانه الأثير وذكرياته فيه عبر تطويع المكان الجديد وهندسته بطريقة تحفظ له توازنه النفسيّ، وتهيّئه للتصالح مع ذاته ومستقبله. ولا أشكّ أبداً أنّ البلاد التي تحفظ للمرء كرامته وتشعره بإنسانيّته هي وطنه الحقيقيّ، لا ذاك المكان الذي يريق دمه ويهدر كرامته ويبقيه نزيل الإذلال الممارس بحقّه.

يبدو أنّ الغريب سيبقى مريض الوطن الذي لا شفاء له من حنينه الذي يكون جمراً تحت رماد الذكريات وتفاصيل الحياة اليومية... مرضُ الوطن قد يصبح مرضَ العصر الجديد بامتياز!

الإنسان وحيوانات أخرى

جون غراي John Gray

ترجمة: حسام الدين محمد

كل الأديان، وتقريبا كل الفلسفات، وحتى بعض العلوم تشهد على المحاولة البطولية، التي لا تكل على إنكار البشرية اليائس لكونها أمرا طارئا. جاك مونو

العلم ضد الانسانوية

أغلب الناس يعتقدون حالياً انهم ينتمون الى جنس يمكن أن يكون سيد مصيره. هذا إيمان ديني، وليس علماً. لا نعرف وقتاً كانت فيه الحيتان أو الغوريلات ستكون أسياد مصيرها. لماذا يقول البشر ذلك إذن؟

لا نحتاج إلى داروين لإثبات أننا ننتمي إلى عالم الحيوانات نفسه. الملاحظة البسيطة لحيواتنا تقودنا بسرعة الى الاستنتاج نفسه. مع ذلك، فحيث أن للعلم الآن سلطة لا يمكن للتجربة العامة أن تخاصمها، دعونا نلاحظ تعليمنا من قبل داروين أن الأجناس كلها ليست إلا منظومات جينية، تتفاعل مع بعضها بشكل عشوائي ومع بيئاتها المتحركة. الأجناس الحيّة لا تستطيع تقرير مصيرها. الأجناس الحيوانية لم تقرر وجودها وهذا ينطبق على البشر. ينسى البشر، مع ذلك، عندما يتحدثون عن "تقدم النوع البشري". لقد وضع البشر ايمانهم في تجريد لا أحد يستطيع ان يأخذه على محمل الجد لولا أنه تشكل من مهملات آمال المسيحية.

لو أن اكتشاف داروين حصل في ثقافات التاو أو الشينتو، الهندوسية أو الوثنية فإنه كان سيغدو أحد الطرق العديدة في ميثولوجياتها المتشابكة. البشر في هذه الأديان والحيوانات هم أقرباء. بالمقارنة،

فإن ظهورها بين المسيحيين الذين يعتبرون البشر أعلى من كل الكائنات الحية الأخرى، أشعل جدالا مريرا ما زال ملتهبا حتى اليوم. خلال المرحلة الفيكتورية أدى هذا الجدل إلى نزاع بين المسيحيين والملحدين. الحرب حاليا دائرة بين الانسانويين والقلة التي تفهم أن البشر لن يكونوا سادة مصيرهم أكثر من قدرة أي حيوان آخر.

الانسانوية يمكن أن تعني أشياء كثيرة، لكن بالنسبة لنا تعني الإيمان بالتقدم. الايمان بالتقدم هو الاعتقاد بأنه، من خلال استخدام الطاقات التي تقدمها المعرفة العلمية المتعاظمة، فإن البشر يمكنهم أن يحرروا أنفسهم من الحدود التي تؤطر حياة الحيوانات الأخرى. هذا هو الأمل لكل شخص تقريباً هذه الأيام، لكن لا قاعدة يتأسس عليها هذا الاعتقاد. رغم ان المعرفة البشرية على الأغلب ستزداد نموا ومعها القدرة البشرية، فإن الحيوان البشري سيبقى كما هو: جنس حيّ كبير القدرة على الاختراع ولكنه أيضا واحد من أكثر الأجناس الحية تدميراً وافتراسا.

رغم أن داروين أظهر أن البشر مثلهم مثل الحيوانات الأخرى، فإن الانسانويين يزعمون أنهم ليسوا كذلك. يصر الإنسانويون على أننا باستخدام معارفنا نستطيع السيطرة على البيئة وأن جنسنا سيزدهر كما لم يحصل من قبل. بتأكيد ذلك، فإنهم يجددون إحدى أكثر وعود المسيحية إثارة للشك – أن الخلاص مفتوح للجميع. الإيمان الانسانوي بالتقدم هو تفريع علماني للإيمان المسيحي.

ليس هناك في العالم الذي كشفه لنا داروين شيء يدعى تقدما. لأي شخص تربى على الآمال الانسانوية فإن هذا أمر غير ممكن الاحتمال. نتيجة لذلك، فإن ما علمنا اياه داروين تم قلبه رأسا على عقب، وخطأ المسيحية العظيم – ان البشر مختلفون عن بقية الحيوانات – تم اعطاؤه عقدا جديدا للحياة.

2

سراب ثورة الوعي

البشر هم اكثر المخلوقات عرضية – انهم نتيجة لموجة تطور أعمى. مع ذلك فبتقدم الهندسة الجينية، لم نعد بحاجة لأن تتحكم بنا الصدفة. الجنس البشري – هكذا يقال لنا – يمكنه أن يحدد المستقبل.

بحسب إي. أو. ويلسون، فإن التحكم الواعي بالتطور البشري ليس فقط ممكنا بل هو محتوم.

... الارتقاء الجيني يقترب من أن يصبح واعيا واختياريا، وسوف يفتح مرحلة جديدة في تاريخ الحياة... أفق هذا "الارتقاء الاختياري" – نوع مخلوق يقرر ما سيفعله في مورثاته الخاصة – سيوفر أكثر خيارات ذكية وأخلاقية واجهتها البشرية عمقاً... ستتموضع الانسانية مثل الإله للسيطرة على قدرها النهائي. باستطاعتها، لو اختارت، لا تغيير التشريح والوعي لنوعها فحسب ولكن أيضا العواطف والحافز الابداعي اللذين يؤلفان النواة الصلبة للطبيعة البشرية.

مؤلف هذه الفقرة هو أعظم الداروينيين المعاصرين. لقد هوجم من قبل علماء الأحياء والاجتماع الذين يؤمنون أن الجنس البشري غير محكوم بالقوانين نفسها التي تحكم الحيوانات. نيلسون في هذه الحرب هو من دون شك الى جانب الحقيقة. غير أن منظوره للارتقاء البشري الواعي الذي يبشر به هو مجرد سراب. فكرة أن تأخذ البشرية مسؤولية مصيرها ستكون معقولة اذا ربطنا الوعي والهدف بالجنس البشري، لكن اكتشاف داروين كان ان الكائنات ليست الا تيارات في حركة الجينات. فكرة ان البشرية تستطيع صوغ مصيرها تفترض أنها معفاة من هذه الحقيقة.

يبدو مثمرا ان الطبيعة البشرية في القرن المقبل سيتم تعديلها علميا. اذا كان الأمر كذلك، فإن ذلك سيحصل بشكل عشوائي، كتفصيل في الصراعات في المملكة المظلمة لكبار الشركات، مؤسسات الجريمة المنظمة، والأجهزة الخفية من الحكومات الساعية للسيطرة. اذا تمت هندسة الجنس البشري فلن يكون ذلك لأن البشرية امتلكت قدرة الهية للسيطرة على مصيرها. سيكون ذلك التواء جديدا في مصير البشرية.

3

نشر تفوق (الجنس البشري)

كتب جيمس لوفلوك:

البشر على الأرض يتصرفون في بعض الأحيان مثل متعضية مرضية، او مثل خلايا ورم أو بلازما. لقد ازداد عدد البشر وفي ازعاجهم لـ"الغايا" (كلمة يونانية تعني الأرض ونظرية تقترح إن الكائنات الحية تتفاعل مع محيطها غير العضوي وتتكيف لتؤلف

وحدة متعاضدة. ح. م) بتعريف وتغيير شروطها الى حد صار وجودنا مزعجا بشكل ملموس... لقد أصبح عدد البشر ضخما لدرجة أنه أسس لمرض جدي لكوكب الأرض. الوحدة العضوية للأرض تعاني من انتشار الجنس البشري المتفوق، من طاعون من البشر.

قبل 65 مليون عام من الآن انقرضت الديناصورات وثلاثة ارباع الكائنات. السبب ليس مؤكدا، لكن العديدين من العلماء يعتقدون ان الانقراض الجماعي كان نتيجة اصطدام مذنب بكوكب الأرض. الكائنات الحية تنقرض حاليا بنسبة ستتفوق على ذلك الانقراض الجماعي. السبب ليس كارثة فضائية. كما يقول لافلوك، السبب هو طاعون البشر.

"رمية النرد الداروينية كانت سيئة للأرض"، يشير ويلسون. رمية الحظ جلبت للجنس البشري قدراته التي عنت خرابا لعدد لا يحصى من اشكال الحياة الأخرى. حين وصل البشر الى العالم الجديد قبل حوالى اثني عشر الف سنة كانت القارة مليئة بالماموث، الماستودونس، الجمال، حيوانات الكسلان العملاقة وعشرات من الكائنات الأخرى. معظم هذه الكائنات تمت مطاردتها لدرجة الانقراض. فقدت امريكا الجنوبية اكثر من 70 بالمئة وفقد شمال امريكا 80 بالمئة من الثدييات الكبرى، بحسب دياموند.

تدمير العالم الطبيعي ليس سببه الرأسمالية العالمية، التصنيع، "الحضارة الغربية" أو أي عطل في المؤسسات البشرية. إنه نتيجة لنجاح التطور النوعي الاستثنائي لأحد الكائنات العليا الجشعة.

عبر كل التاريخ وما قبل التاريخ، ترافق التقدم البشري مع تدمير ايكولوجي.

بتوازن مع الارض لفترات طويلة عبرت شعوب الانويت والبوشمن نحو نماذج حياة كانت بصماتهم فيها خفيفة. لا نستطيع ان نمشي على الارض بشكل خفيف. اصبح عدد نوع "الانسان الحكيم" ضخما جدا.

ليست دراسة عدد البشر علما دقيقا جدا. لم يتوقع احد الهبوط في عدد السكان الحاصل في روسيا الاوروبية الشيوعية سابقا، او حجم هبوط الخصوبة المستمر في عموم العالم. هامش الخطأ في حسابات الخصوبة ومعدل الحياة كبير. رغم ذلك، فإن زيادة كبيرة في عدد البشر امر محتوم. كما يلاحظ موريسون، "حتى لو افترضنا ان

تراجعا في معدل ولادة بسبب عوامل اجتماعية ومعدل وفاة مرتفع بسبب المجاعات والأمراض والابادات، فإن عدد سكان العالم الذي هو اكثر من ستة مليارات سيزيد مليارا ومئتي مليون على الاقل مع حلول العام 2050".

يمكن الحفاظ على عدد سكان يصل لثمانية مليارات بهجرة الارض فقط. اذا تم التخلص من الحياة البرية لصالح الزراعة والحضارة البشرية، اذا تم تحويل الغابة المطرية الى صحارى خضراء، اذا سمحت الهندسة الجينية بانتاج محصولات متزايدة من التربة الرقيقة – عندها سيكون البشر قد صنعوا حقبة جيولوجية جديدة، الايروموزويك، حقبة العزلة، التي سيبقى فيها القليل من الكائنات الأخرى على الأرض باستثنائهم والبيئة المصطنعة التي تبقيهم أحياء.

انها رؤية بشعة ولكنها كابوس فقط. اما ان تتمكن آليات اعادة الضبط من جعل الكوكب اقل سكانا او ان العوارض الجانبية لفعالياتهم ستجعلهم أقل على الكوكب وسوف توقف النمو الحالي في ارقامهم.

يقترح لوفلوك اربعة نتائج لانتشار الجنس البشري: "دمار كائنات المرض الذي يجتاح العالم، التهابا مزمنا، دمار المضيف، او التكافل – بقيام علاقة قادرة على الاستمرار بين المضيف والمحتل".

من النتائج الأربعة فإن الرابع هو الأقل احتمالا. لن تبدأ البشرية أبدا مرحلة التكامل مع الارض. حتى لو فعلت، فانها لن تدمر مضيفها الارضي، احتمال لوفلوك الرابع. المحيط الحيوي اقدم واقوى من قدرتهم مهما بلغت. كما يكتب مارغوليز، "لا ثقافة انسانية، رغم ابداعيتها، يمكن ان تقتل الحياة على هذا الكوكب، او حتى ان تحاول".

لا يمكن ايضا للبشر تدمير بيئتهم بشكل مزمن. صحيح ان فعاليات البشر غيرت التوازن الأرضي: غير انتاج غازات المحيط الأخضر النظام الايكولوجي العالمي بشكل لا يمكن الرجوع عنه. مع التصنيع العالمي، فإن ليس إمكانية للتغييرات إلا أن تتزايد. في السيناريو الأسوأ الذي يقتنع به بعض العلماء جديا، فإن التغير المناخي سيمحو بلدانا مأهولة ساحلية مثل بنغلادش ويؤدي الى فشل زراعي في بلدان اخرى من العالم، ناشرا الكوارث لمليارات البشر، قبل نهاية القرن الحالي.

حجم التغيير لا يمكن معرفته بشكل مؤكد. في نظام مليء بالفوضى

حتى المستقبل القريب لا يمكن توقعه بشكل صحيح. رغم ذلك يبدو محتملا أن شروط الحياة تتجه نحو ولادة مزيد من البشر، مع مواجهة اعداد كبيرة منهم بيئات أقل ترحيبا. كما اقترح لوفلوك، قد يكون التغير المناخي آلية يمكن فيها للكوكب ان يتخفف بها من عبئه البشري.

كعارض جانبي للتغير المناخي، هناك نماذج جديدة من الأمراض يمكن أن تقلل من عدد البشر. اجسادنا هي مجتمعات للبكتيريا، مرتبطة بشكل لا يمكن حله مع محيط حيوي بكتيري بشكل كبير. علم الأمراض وعلم الاحياء الدقيقة هي أدلة افضل لمستقبلنا اكثر من أي آمال او خطط.

الحرب يمكن أن تترك تأثيرا كبيرا. كاتبا في منعطف القرن التاسع عشر، اعتبر توماس مالتوس الحرب كاحدى الطرق – هي والمجاعات المتناوبة – لحفظ التوازن بين عدد السكان ومصادر الغذاء. فرضية مالتوس تمت السخرية منها في القرن العشرين من قبل ليونارد ج. لوين:

الانسان، مثل باقي الحيوانات، هو عرضة للعملية المستمرة للتناسب مع حدود بيئته. لكن الآلية المبدئية التي قام باستخدامها من اجل هذا الهدف فريدة ضمن الكائنات الحية. لتعديل الإحباط في الدورات التاريخية الناتج من نقص امدادات الغذاء، تخلص الانسان في العصر ما قبل العصر الحجري الحديث من فائض جنسه البشري عبر الحرب المنظمة.

السخرية ليست في مكانها الصحيح. الحرب نادرا ما ادت الى نقص طويل الأمد لسكان البشرية. مع ذلك فإن تأثيرها اليوم يمكن أن يكون كبيرا. ليس ان أسلحة الدمار الشامل – خصوصا البيولوجية و(قريبا) الأسلحة الجينية – هي اكثر ارعابا من قبل. الأكثر من ذلك هو أن تأثير هذه الاسلحة على انظمة دعم الحياة للمجتمعات البشرية ستكون اكبر على الأغلب. عالم معولم هو بناء رقيق. لهذا السبب يعتمد عدد اكبر من السكان على امداد الشبكات البعيدة، واي حرب بحجم النزاعات الاضخم للقرن العشرين يمكن ان تعطي تاثيرا في انقاص عدد البشرية بالطريقة التي تحدث عنها مالتوس.

عام 1600 كان عدد سكان العالم حوالى نصف مليار. في تسعينيات القرن العشرين زاد بالعدد نفسه. الناس الذين هم الآن بعمر اربعين عاشوا فترة مضاعفة الجنس

البشري لعدد سكانه. طبيعي بالنسبة لهم ان يظنوا ان هذه الارقام سيتم المحافظة عليها. شيء طبيعي، لكن هذا – الا اذا كان البشر هم حقا مختلفون عن باقي الحيوانات – خطأ.

تزايد عدد البشرية الذي حصل خلال بضعة مئات من السنين الأخيرة لا يشبه شيئا اكثر من التزايد الذي حصل في عدد الأرانب، فئران المنازل وجرذان الطاعون. مثل هؤلاء، يمكنه فقط ان يستمر لفترة قصيرة. الخصوبة البشرية تهبط في أغلب أنحاء الأرض. كما يلاحظ موريسون، البشر هم مثل الحيوانات الأخرى في تفاعلهم مع الضغط والقلق. انهم يتفاعلون مع الندرة والتزاحم من خلال انقاص لحوافز التناسل: يبدو ان الكثير من الحيوانات لديها رد فعل تنظمه الهرمونات لمواجهة الضغوط البيئية والتي تقوم بتغيير عمليات الأيض الى حالة اكثر اقتصادية كلما قلت الموارد. بشكل محتوم، العمليات النهمة لطاقة التناسل تكون الهدف الأول... البصمة الهرمونية التي تدل على ذلك لهذه العملية تم التعرف عليها لدى قرود الغوريلا المحبوسة في الاراضي المنخفضة، ولدى النساء. في مسألة الاستجابة للضغوط البيئية بالتوقف عن الولادة، لا يختلف البشر عن الحيوانات.

الارتفاع الحاضر في عدد البشر يمكن ان يصل الى نهاية لعدد من الاسباب – التغير المناخي، وموجات جديدة من الامراض، العوارض الناتجة عن الحروب، هبوط تدريجي في معدلات الولادة، او اجتماع هذه الأسباب وغيرها، من عوامل غير معروفة. أيا كان السبب الذي سيؤدي لهذه النهاية، فهذا انحراف.

... اذا كان الطاعون البشري عادياً كما يبدو عليه، فإن منحنى التداعي يجب ان يعكس منحنى النمو السكاني. هذا يعني ان حجم الانهيار لن يستغرق اكثر من مئة سنة، ومع حلول العام 2150 فسيكون المحيط الحيوي قد عاد بسلام الى عدد مخلوقات ما قبل طاعون الجنس البشري – اي بحدود 500 مليون أو مليار.

البشر هم مثل أي حيوان طاعوني. لا يمكنهم تدمير الأرض، لكنهم يستطيعون تدمير البيئة التي تحافظ على وجودهم. الاكثر احتمالا من سيناريوهات لافلوك هي نسخة من السيناريو الأول، التي يتم الشفاء فيها من هذا العرض الخطير من

خلال هبوط عالي المستوى في عدد البشر.

4

لماذا لن تتمكن البشرية ابدا من السيطرة على التكنولوجيا؟

"الانسانية" امر ليس موجودا. هناك بشر، مدفوعون من خلال حاجات متنازعة واوهام، وهي تتأثر بكل شكل بمرضي الارادة والتقدير.

حاليا هناك حوالي مئتي دولة مستقلة في العالم. اغلبها غير مستقر، وتتراوح بين ديمقراطيات ضعيفة او دكتاتوريات ضعيفة، العديد منها صدئ بفعل الفساد، او تسيطر عليه الجريمة المنظمة، منطقة واسعة من العالم – اغلب افريقيا، جنوب اسيا، روسيا، البلقان والقوقاز واجزاء من جنوب امريكا – تحكمها دول متضعضعة او متداعية. في الوقت نفسه، فان أقوى دول العالم – الولايات المتحدة الأمريكية، الصين واليابان – لا تقبل اي حدود لسياداتها. كل دولة منها تغار من حرية الاخرى في الحركة، على الاقل بسبب انها كانت اعداء في الماضي وتعلم انها يمكن ان تصبح كذلك مجددا في المستقبل.

مع ذلك فليس عدد الدول هو الذي يجعل التكنولوجيا أمرا غير قابل للتحكم به. انه التكنولوجيا نفسها. القدرة على تصميم فيروسات جديدة للاستخدام في أسلحة ابادة جماعية لا يحتاج مبالغ مالية ضخمة، او مواقع او أجهزة. التقنيات الجديدة للتدمير الشامل رخيصة، والمعرفة التي تتضمنها مجانية. من المستحيل منع هذه التكنولوجيات من أن تصبح متوفرة بشكل اكثر سهولة بكثير من قبل. لهذا السبب، فان بيل جوي، احد رواد تكنولوجيا المعلومات، يكتب:تكنولوجيات القرن الواحد والعشرين–الجينات، النانوتكنولوجي، الروبوتات – قوية لدرجة انها ستطلق طبقات جديدة من الحوادث واساءة الاستخدام. الأكثر خطورة أنه، للمرة الأولى، أن هذه الحوادث واساءة استخدامها ممكن، بشكل كبير، للأفراد والجماعات الصغيرة الحصول عليها. لن يحتاج هؤلاء تسهيلات كبيرة او مواد خام نادرة. المعلومات وحدها كافية لانجازها. وهكذا لن يكون لدينا احتمال الحصول على اسلحة دمار شامل بل سنكون على معرفة قادرة على انتاج اسلحة دمار شامل، وهذه القدرة التدميرية يتم تضخيمها بشكل كبير بقوة الاعادة.

جزئيا، فإن الحكومات هي التي خلقت هذه الوضعية. من خلال اعطاء سيطرة كبيرة للسوق على هذه التقنيات فقد ساهمت في الوصول الى هذه الحالة من انعدام السيطرة. رغم ذلك، فان تكاثر الاسلحة الجديدة للدمار الشامل ليس في النهاية نتيجة للاخطاء في السياسات. انه نتيجة لتعريف المعرفة.

التحكم بالتقنيات لا يمكن وضعه بالقوة. التعديل الجيني للمحصولات، الحيوانات او البشر يمكن ان يكون ممنوعا في بعض الدول، لكنه سيجري في بعض الدول الأخرى. القوى الدولية يمكن ان تتعهد ان الهندسة الجينية سيكون لها استخدامات حميدة محدودة لكنها ستكون مسألة وقت قبل ان يتم استخدامها لأغراض حربية. يمكن ان تمنع بعض الدول شديدة الاضطراب من الحصول على اسلحة نووية لكن كيف يمكن منع الاسلحة البيولوجية من الوصول الى القوى التي لا تسيطر عليها الحكومات؟

اذا كان هناك شيء مؤكد بالنسبة للقرن الحالي فهو ان القوة الممتلكة الممنوحة لـ"الانسانية" من خلال التكنولوجيات الحديثة سوف تستخدم لارتكاب جرائم مهولة ضدها. اذا اصبح ممكنا نسخ البشر، فان جنودا سيتم توليدهم بعواطف بشرية ناقصة او ملغية. الهندسة الاجتماعية قد تسمح بعلاج امراض الشيخوخة وفي الوقت نفسه فانها ستكون التكنولوجيا التي ستستخدم في الابادة الجماعية.

اولئك الذين يتجاهلون الامكانية التدميرية للتكنولوجيات الحديثة فذلك ببساطة لأنهم يتجاهلون التاريخ. حملات التطهير ضد اليهود قديمة بقدم المسيحية نفسها ولكن من دون السكك الحديدية، التلغراف والغازات السامة لم يكن ممكنا ان يحصل الهولوكوست. لقد كان هناك سلطات طغيان دائما ولكن من دون الوسائل الحديثة لوسائل النقل والاتصالات، ما كان لستالين وماو أن يبنيا مخيمات الغولاغ. أكبر جرائم الانسانية صارت ممكنة بسبب التكنولوجيا الحديثة.

هناك سبب عميق لعدم امكانية سيطرة "الانسانية" على التكنولوجيا. التكنولوجيا ليست شيئا تستطيع الانسانية ان تسيطر عليه. انه حدث حل على العالم.

مقاطع من كتاب "كلاب القش: أفكار حول الإنسان وحيوانات أخرى" للكاتب البريطاني جون غراي.

في السقوط غير الحر للتماثيل والنص الجديد الذي لم يكتب بعد

إبراهيم اليوسف



ما الذي حدث لنا، ومن حولنا، حتى يتغير كل شيء هكذا؟

ربما إن مكونات السؤال المركب – أعلاه - كانت جد ضئيلة، تكاد لا تشمل إلا بعض مفردات معادلة كيميائية حقيقية، بيد أنها مفتوحة على عالم لامتناه، يعيشنا، ونعيشه، يتعلق بهذا التغيير الجذري الذي بتنا شهوداً عليه، وشهداء له. إذ إن التغيير الشامل الذي جرى، ولما يزل يجري، لم يعد محصوراً فيما يتركه في خريطة المكان، وحضور الكائن، بل في سايكولوجياه، ورؤاه، وطريقة تفكيره، وذاكرته، وخياله، وعلاقته بعالمه الجمالي، وإن كان بعض ذلك لايزال - هو الآخر - في طور الاستكمال، ضمن دورة الإبداع الموازية، أو المتوائمة مع دورة الحياة كلها!

من هنا، فإن تلك الرتابة السقيمة، طالما رأيناها مهيمنة، في إطار رؤية مكتملة، أو مدرسة منجزة، كإحدى محن العملية الإبداعية في المجالات كافة، وهوما جاءت الثورات التي اندلعت - على حين صرخة أو شرارة- كي تبين لنا أننا لكم كنا في حاجة إلى مجازفات الخروج من اليوتوبيات التي ظللنا نحشرج فيها، مكتفين بتكرار صرخاتنا البلاستيكية، المكررة، في حضرة ظلالها، من دون أن نجري أي تغيير يرتقي إلى مستوى الظمأ الجمالي المطلوب..!

في تشخيص ما يجري

ثمة مشكلة كبيرة بتنا نعاني منها، عندما بتنا نرى أول سقوط غير حر للتماثيل التي كانت مصدر رعب بالنسبة إلينا، في هذا العنوان من العتمة أو سواه. ربما أن ما سقط منها، لم يكن كافياً كي تندلع مساحة الضوء المتوخاة، من مساربها محكمة الإغلاق، وتزيل هذه الهياكل التي طالما جعلتها ترتد لئلا تتجاوزها، وتصل إلى الجهة الأخرى، تستعيد تحقيق قانون الطبيعة الذي خلخل توازنه جشع الكائن، وهو يحتطب كل ما حوله وقوداً لأناه، لا

فرق في ذلك بين كائن وكون. إنه نتاج حالة فصام القاتل عن محيطه، والتصاقه بلحظته الداخلية، من دون أي تنسيق مطلوب مع الآخرين، بالرغم من أنه-هو الآخر - منهم، لا امتياز له عليه، إلا عبر ربقة القوة التي يستخدمها، كأحد أهم مفردات معجم العنف ضدهم..!.

لطالما لقيت الشرارات التي لا تفتأ تتوالد، ضمن دورة الحياة، مصيرها، بسبب نفخة، مُطفِئة من فم متجبر، أو سطوة خوف، أوجده كإحدى متلازماته الكثيرة، حتى يظل متسيداً غوايات عرشه الهزيل. وقد كان من شأنها أن تذوب أية عتمة طارئة، بينما ثمة من ينتظر طليعة ومحات الضوء، في الجهات الأخرى، بعد طوال ليل من سقام، ومعاناة، وألم، وانتظار، من دون جدوى...!

لم يكن يعوز أحداً البتة من الجمهور المعني، المنتظر، بالرغم من هيمنة كوابيس آلة الرعب أن يقف في مواجهتها، ويقول ما يريد، بهذا الشكل أو ذاك، أو حتى أن يترجم هذا القول على نحو عملي، قبل أن يلقي مصيره المحتوم، غير أن هناك ما كان يجعل من هذه العناصر كلها، ناقصة، غير ذات نفع، مادامت هاتيك الآلة قد وزعت أدواتها، كما تقتضي ديمومتها- وهي الموقوتة في الأصل- إلا أن لا شيء في النهاية يظل كما هو، وفق سنة سيرورة الكون ذاته، وهو ما جعل الصرخة الفاصلة تغربل الأصوات، ضمن تصنيفين اثنين، لا ثالث لهما: القاتل أو القتيل؟. القاتل أو الضحية؟ القاتل أو الرعية وهي في انتظار أدوار دفع المترتب عليها زوالاً، مادامت خانعة، ذليلة، مستكينة!

سطوة العجز والممثل في دوره المستعاد

إذا كانت هناك ثمة دورة، يراهن حامل نار الحكمة الأزلية عليها، فإن هذه الدورة لا تقدم - وفق ضرورات مسارها - نتيجة واحدة، مستنسخة، كما تفرضها لغة الكاميرا التي من شأنها ترك مالا نهاية لها من الصور الفوتوغرافية التي تدل على أصل واحد. هذه الثيمة جعلت الشكوك لدى المستبد بقانون التجديد كافية لمواصلة جوره، وبطشه، وفتكه بالآخر، بما يعينه – هنيهة - كي يطمئن- ولو على نحو منقوص- على ديمومة سطوته..!.

الممثل على المسرح هو ليس نفسه بطل المسرحية الأول، وهو ليس من جسد الدور من قبل، أو من بعد، كما إنه ليس هو ذاته في الأمس، أو الغد، وحتى في لحظة ما قبل اللعبة، وإن كان ثمة كيمياء - قليلة أو كثيرة - تمارس سطوتها عليه، وهو في لحظة إذعان، إنها كيمياء البطل الأصيل-في سلبية سلوكه أو إيجابيته- بحسب عقد مؤقت، ينتهي مع إسدال الستارة.

وليس من قاتل – هنا - إلا لأن الضحية قد تنازلت عن روادعها. وإلا لأن الجمهور قد تنازل عن روادعه. حيث يغدو الضحية شريك قاتله في تسهيل مهمته، كما إن الجمهور شريك أكبر فيما يدور، ولا يمكن له - وهو يصفق لنظرة الضحية الشزرة بعد قطع رأسه إلى القاتل - أن يكفر عن

خطيئته، مالم يوقف القاتل، قبل فعلته النكراء.

تشكيل الفضاء الجمالي

أجل. ثمة ما يتغير من حولنا. ثمة ما يتغير من حولنا. إلى تلك الدرجة التي يكاد فيها شيء ما يشبه نفسه قبل دخوله معادلة – الثورة - بعيداً عن المرتبة المستحقة، في فضائيها المتناقضين، على محوري: الجمال والقبح، حتى وإن تواصلا عبر خيط وهمي، من خلال عين راصدة ما، بما يرفضه الواقع، ويرفضه الفن والإبداع، قبل أن يتطهر، ويستعاد، عبر كولجة ما، وهو أمر آخر، لا مكان لتقويمه هنا الآن..!.

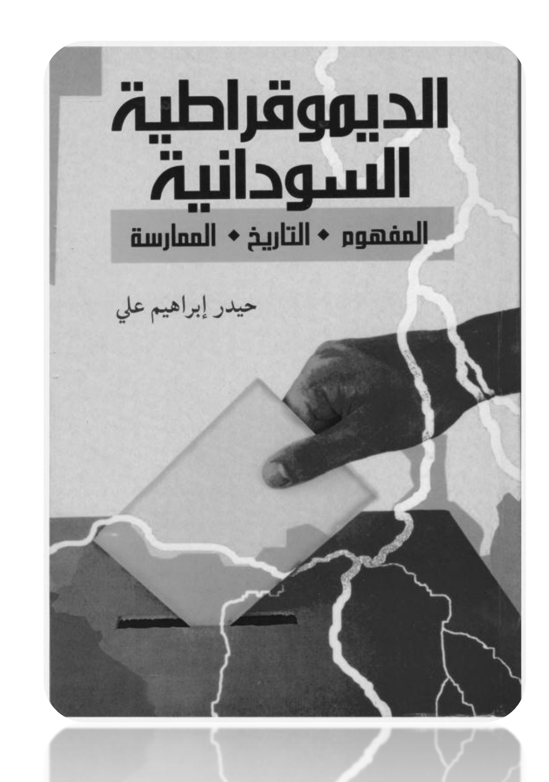
إذاً، سمة- اللاثبات - هي التي تخضع لها دورة الحياة في مداها الشاسع. وقدت بدت لنا في أوجها، بعيد هذه التحولات الهائلة، كي نكون على بوابة تحولات من نوع آخر، تحولات لاواقعية، فحسب. تحولات لا معيشية، فحسب. وإنما تحولات فنية، تحولات في نبرة صوت أي منا: كآبة أو تفاؤلاً. حزناً أو فرحاً. كابوساً أو حزناً. بل وأغنية أو فيلماً سينمائياً، أو صورة فوتوغرافية، أو قطعة موسيقية، أو سرداً، أو شعراً، أو ضحكة أو ابتسامة!؟

كل شيء - الآن - في طور التغيير. لا شيء مطمئن إلى هيكليته، البتة، وهو ما يرتب على كواهلنا أن نستقرىء هذا التغيير في كل التفاصيل التي نستقرئها، ونستنطقها، لأننا أمام سنة لا مناص لا مناص منها. ولا مكان لاستنساخ الأشياء، حتى وإن كان القاتل في لحظة وهمه يستعيد كل ما أوتي السابق عليه من فتك، وبطش، أو دمار، وذلك لأنه لن يبقى إلا عبارة عن أداة في مختبر كيمياء الزمن وفيزيائه!

لا أحد - إذن وإذاً - يستعيد قابيل الأسطورة، في قابليته، وقابيليته، إلا الأسطورة في الدواخل، وهي تستدرجه إلى حقل الجغرافيا ونبع الدم، من دون أن يجرؤ إلا أن يكون مجرد ممثل جديد، مشلول القوة، أمام هدير الحراك، وهو يحول معجم الحياة والفن-على حد سواء- إلى ساحة حبر كبرى، مازلنا نقف في حضرتها ضحايا، عاجزين، في انتظار لحظة الخلق التي تنتج من مزاوجة الرؤى والواقع. الحياة والإبداع. الحلم والفعل، كما يليق ببشر أسوياء ندعي أننا نحن من نجسدهم في أدوارنا الجديدة التي لما نبدأها بعد!

الديمقراطية السودانية، المفهوم، التاريخ، الممارسة ، لحيدر إبراهيم علي

محمد شاويش



صدر حديثاً – نوفمبر 2013 – للباحث والأكاديمي السوداني حيدر إبراهيم علي (الحضارة للنشر - القاهرة 2013) كتاب يتناول فيه تجربة السودان مع "الديمقراطية". ولا يخفى على القارئ أني وضعت الكلمة بين أهلة لإشكاليات تعريف الديمقراطية من جهة ولأن ما طبق على فترات متقطعة في السودان على أنه "ديمقراطية" يضعه الكاتب نفسه مراراً تحت مجهر النقد.

الموضوع كما قد يرى القارئ في غاية الأهمية، ليس للسودان فقط بل لمجمل بلادنا التي ما زالت تتخبط في مأزق سياسي واجتماعي كبير لا يبدو له في الأفق القريب مخرج. والمسائل التي تظهر في الكتاب، سواء التي كانت موضوعاً لبحث المؤلف أو التي ظهرت بدون نية لبحثها كونها ملتصقة التصاقاً لا ينفصم بمواضيعه، هي مما يجب على المهتم العربي بالشأن العام أن يناقشها للوصول إلى فهم أفضل لها يتيح له التعامل معها بفاعلية أكبر.

في هذا المقال ليس في نيتي لا عرض الكتاب بأكمله ولا مناقشة كل القضايا التي يثيرها (بالطبع)، وإنما سأكتفي بعرض بعض المواضيع التي أراها مهمة من جهة وتؤشر من جهة أخرى إلى منهج المؤلف في العرض والتحليل.

1- الديمقراطية بجميع الأحوال - لا للتحجج بالخصوصية

رغم إقرار المؤلف ببعض الصعوبة في إيجاد تعريف جامع مانع كما يقال للديمقراطية، لكنه ينقل رأي من يرون (دون أن يسميهم، ولكن يقول إنهم على ما يبدو يوافقون المفهوم الكلاسيكي للديمقراطية الذي روّج له روّاد مثل لوك ومونتسكيو) أن ثمة معايير يمكن أن نطلق على مؤسسة ما صفة الديمقراطية إن اتصفت بها، مثل المشاركة الفعالة والمساواة في التصويت والفهم المستنير

للبرامج والبدائل وتضمين كل من لهم حق في التصويت. يرى المؤلف أنه "رغم أي اختلاف في المعنى أو حتى حول فعالية الديمقراطية، فقد صارت مبدأ إنسانياً عاماً، وممارسة سياسية عالمية".

رغم تعاطف المرء المؤكد مع الطرح الديمقراطي الذي يشبه ما كان يقوله لينين عن السياسة أنها أقرب إلى علم الجبر منها إلى علم الحساب، لأنه مهما اشتكى من فقدان الدقة والثغرات المؤكدة يظل أنسب لمجتمعنا من الطروحات الاستبدادية السائدة التي وصلت بنا أخيراً إلى مستوى منحط من الهمجية لم نبلغه في تاريخنا القريب على الأقل، إلا أنه لا بد له أن يسجل هنا أن دفاع المؤلف المتحمس عن الديمقراطية، رغم إخفاقها في اجتياز الامتحان العملي في بلادنا المرة تلو المرة، يشبه دفاع أهل أيديولوجيات أخرى عن صحة أفكارهم رغم إخفاقها العملي قائلين إن "العيب ليس في الفكرة بل في التطبيق"! وبالفعل هذا ما يقوله المؤلف حرفياً.

يرفض المؤلف في البداية التحجج بخصوصية بعض المجتمعات لرفض الديمقراطية وهو عنده "مجرد لغو لا يسنده منطق أو عقل، فقد يمكن الحديث عن آليات بعينها مثل التعدد الكبير في الأحزاب أو نظام انتخابي؛ بأنها غير ملائمة لظروف البلاد. وفي هذه الحالة قد تكون المشكلة أساساً في الآليات ووسائل التطبيق والممارسة، ولكن ليس في المبدأ أو الفكرة. ففي مجتمعات عديدة يكون فشل التجارب الديمقراطية بسبب عدم تكوين المؤسسات والنظم القادرة على تطبيق مطلوبات البناء الديمقراطي الذي يحقق الممارسة الصحيحة. كما يمكن ظهور قصور في القوانين المسيرة للعملية الديمقراطية وصيانتها. ولذلك لا بد من تأكيد فكرة أن علاج سلبيات الديمقراطية هو بمزيد من الديمقراطية." (ص 5)

وفي الحالة السودانية يرى المؤلف أن الديمقراطية السودانية (التي حكمت لفترات متقطعة قصيرة) قد خلت من كثير من المعايير المطلوبة والمرغوبة عدا حق التصويت وطقوسية الانتخابات بحيث يمكن الاكتفاء بتسميتها "البرلمانية السودانية" (ص6).

أخذ السودان بنظام "صوت واحد لشخص واحد" وهو نظام يقود في رأي المؤلف في ظل الأمية التي تجاوزت سبعين بالمائة إلى ألا يكون الاختيار حراً ناتجاً عن دراسة مستنيرة للبرامج، من جهة أخرى كانت الولاءات الطائفية والانتماءات القبلية قيداً على الحريات التي تكفلها الديمقراطية.

تعثرت هذه "البرلمانية السودانية" في كل مرة كانت تجرّب فيها وكانت تنتهي دوماً بحكم العسكر، غالباً عبر انقلاب، باستثناء المرة الأولى حيث سلّم عبد الله خليل، رئيس الوزراء المنتخب "المتسم بالكرم والأريحية" في "واحدة من تجليات كرمه على ما يبدو" السلطة للعسكر طوعاً وباختياره صبيحة افتتاح البرلمان في 17 نوفمبر 1958! (ص204).

يورد المؤلف أربع مشكلات مزمنة تواجهها التجربة الديمقراطية السودانية: تمازج الدين بالسياسة – دور الجيش في الحياة السياسية - قضية الوحدة الوطنية والتكامل القومي -

الفشل التنموي والأزمة الاقتصادية (ص 10-12).

وهذه العوامل (كما يرى القارئ) تمكن رؤيتها في بلاد عربية مختلفة، وتكاد تكون مشتركة بينها. وسأعود إلى موضوع تمازج الدين بالسياسة بعد قليل.

2- دفاع عن التنظير:

من جوانب الكتاب التي نالت مني عالي التقدير دفاع المؤلف عن النظرية والتنظير، وهو يأخذ على السياسيين السودانيين الدخول في الممارسة دون الاهتمام بالتنظير "اهتم السياسيون السودانيون عموماً بالديمقراطية العملية، فهم دخلوا مباشرة في الممارسة، ولم يهتموا بالكتابات والتنظير في الديمقراطية نفسها كمفهوم ونظرية متكاملة. ومن هنا جاءت علة الثقافة السياسية الديمقراطية كما يظهر في عدم الاهتمام بدقة المفاهيم، وعدم وجود نماذج استرشادية (Paradigms). والسودان مليء بالسياسيين، ولكن لم يظهر زعيم قومي مفكر ينظّر وينظم الجماهير ويحركها. وفي الخاطر الهند ونهرو لتشابه الظروف المعقدة. وكانت الغلبة للعمل السياسي المباشر على حساب الفكر السياسي. وسادت الشكلانية أو الشكلية والتجريد والرومنسية على مفهوم الديمقراطية. ولم يترك جيل الرواد (ممن كتبوا مذكراتهم) أدبيات نظرية في الديمقراطية، وحتى فترة الاستقلال وما بعده. ويظهر في كتاباتهم الاهتمام بالنتائج العملية/النفعية (البراغماتية) لأي سلوك سياسي، وبالتالي اعتبر تحقيق الاستقلال بهذه السهولة إنجازاً كبيراً ونجاحاً لا يضاهى. ولم يطالب السياسيون بعد الاستقلال بأكثر مما حدث، واستمرت توجهات عدم الاهتمام بالتنظير والذي أصبح – في معظم الأحيان – صفة سيئة السمعة. وكثيراً ما نسمي في معنى التحقير والتهكم: "إن فلاناً منظراتي ساكت"، وقد يكون السبب منطقياً، حين يتوقف هذا الفلان عند مرحلة التنظير فقط.

وحدثت عملية تقسيم عمل غير مقصودة – بين النظريين والعمليين – وكأن لكل منهم مملكته، وظل أغلب الساسة السودانيين يفضلون الطريقة العملية البلدية في تسيير الأمور السياسية" (ص8).

نتج عن ذلك في رأي المؤلف اتخاذ السياسيين موقفين متناقضين تجاه الخيارات الديمقراطية غير المعللة نظرياً: إما أن يقال "إن السوداني بفطرته ديمقراطي" أو يقال على العكس "الديمقراطية غير صالحة للسودانيين لأنهم ميالون بطبعهم للفوضى". يربط المؤلف بين هذا الابتعاد عن التفكير والتنظير وبين العشوائية في العمل والتزام طريقة "التجربة والخطأ" وعدم الالتزام الصادق بالخيار الديمقراطي كما نرى في حالات متعددة أيدت فيها الأحزاب الانقلابات العسكرية أو خططت هي نفسها لانقلابات.

يبقى هذا الدفاع عن التنظير حالة نادرة مطلوبة وجديرة بالثناء في زماننا هذا الذي سادت فيه الساحة العربية موجة (بعد ثورات 2011) تحتقر النظريات مع احتقارها للأيديولوجيا المربوطة تعسفاً مع تجارب الأحزاب القومية والاشتراكية في الحكم ويردد غالباً المأخذ الغريب على

أحزاب معارضة قديمة أنها لم تستطع استلام السلطة!، ولعل القارئ يرى أن الثورات العفوية التي نجحت في قلب الحكام (عندما لم يتدخل الجيش ضدها) لم تستطع بناء بديل بالتحديد لأنها مفتقدة للفكر والنظرية مما أدخلها في أفعال مرتجلة سهلت على قوى النظام القديم استعادة زمام المبادرة (مصر واليمن) أو ساعدت النظام في خطة التدمير الممنهج للبلد والمجتمع (سوريا).

يستطيع القارئ أن يجد في الكتاب رغم ذلك استعراضاً لكتابات كتاب سودانيين عن مسائل الدولة والديمقراطية لا يعرفهم أغلب القراء خارج السودان من أمثال أحمد خير و محمد أحمد المحجوب والشيخ علي عبد الرحمن الأمين الضرير وعبد العزيز حسين الصاوي ومحمد علي جادين، علاوة على منصور خالد، والأخير هو من أغزر الكتاب نتاجاً وله ميزة المشاركة العملية في السلطة ثم المعارضة (في فترة نميري) وله تقسيم طريف يهمنا هنا لأهل السياسة في السودان بين "أهل نظر وفعل" (ويتمثلون عنده في الماركسيين واللبراليين) و"أهل نظر بلا فعل" وهم موجودون في مواقع اليمين واليسار، و"أهل فعل بلا نظر" وينطبق هذا التوصيف عنده على العسكريين خصوصاً! وهذه الأصناف الثلاثة في رأيه موجودة في غير السودان أيضاً وأخيراً تأتي فئة يقول إنها خاصة بالسودان وهي "مدرسة المشاغبين" وهم قوم يكتفون بالشعارات والصراخ بجمل مثل جمل الدراويش الذين يصيحون في حلقة الذكر (انظر: د. منصور خالد، "النخبة السودانية وإدمان الفشل"، الجزء الأول، بلا مكان أو تاريخ نشر ولكن في الصفحة الأخيرة ترقيم دولي ورقم إيداع وتاريخ 1993، ص 57-63، وانظر نقد المؤلف المفصل لوجهات نظر منصور خالد المتغيرة مع الزمن، في كتاب "الديمقراطية السودانية..."، ص 218-240).

2- عن تمازج الدين بالسياسة

كما هو متوقع يفرد المؤلف لتجربة "الإسلاميين" السياسية صفحات طويلة (في الفصل الثالث وغيره)، وفي رأيه أنه "رغم كل محاولات التأصيل إسلامياً وإيجاد جذور ونسب بين الجديد وأصول الإسلام، فلم يستطع الإسلاميون الوصول إلى نموذج خاص فقد استنبطوا بطريقة أو بأخرى الموجهات الغربية الليبرالية. وهذا الحل التوفيقي أو البراغماتي لم يكن من الممكن تجنبه لأن تاريخ الفكر السياسي الإسلامي لم يزوّدهم بنظريات قيّمة في الدولة والسلطة".

وهذا تشخيص صحيح باعتقادي، يبقى أن المؤلف يقع ضحية الادعاء الأوروبي الشائع الذي بدأ مؤرخو الفكر الغربيون يثبتون زيفه، والقائل إن الغرب الحديث استمرار للتاريخ اليوناني والروماني وبناء عليه! وهذا حين يقارن "الإسلاميين" مع الأوروبيين: "لأنهم لا يستندون على فكر سياسي تاريخي مثلما حدث في أوروبا منذ الحضارة الإغريقية والرومانية". كان بودي أن يقرأ المؤلف ما كتبه المؤرخ الألماني غوتهارد شتروماير تحت عنوان "الإغريق ليسوا أوروبيين"! وترجمه الفقير لله إلى العربية!

لكن المشكلة المنهجية الأكبر في رأيي (وهي مشكلة شائعة عندنا) أن المؤلف لا يرى فارقاً نوعياً بين تدين الختمية والأنصار من جهة وتدين الترابي وتياره من جهة أخرى. في أقطار عربية أخرى يظن مجايلونا أن جبهة الإنقاذ الجزائرية (الفيس) استمرار للأمير عبد القادر، ولو كان الأمير عبد القادر انتصر (أو عمر المختار أو حتى الشيخ عز الدين القسام الذي استشهد في فلسطين عام 1935) فسوف يبنون "دولة إسلامية" كما ينظّر لها الإخوان أو الترابي أو عمر البشير!

يقول المؤلف "تمازَجَ الدين مع السياسة بدءاً مع تشكل الحزبين الكبيرين على أسس طائفية أو طرائقية (يقصد بالأولى طائفة "الأنصار" وبالثانية النسبة إلى الطرق الصوفية. م). فقد انتهت المعركة بين الطائفية الدينية والخريجين بانتصار الطائفية. وكانت المرحلة الثانية هي دعوة (الإخوان المسلمون) للدولة الدينية من خلال الدعوة لتطبيق الشريعة والدستور الإسلامي" (ص10). يعتقد المؤلف أن التشابه جوهري بين الأحزاب الثلاثة: "الاتحادي" و"الأمة" من جهة والإخوان بأسمائهم المتغيرة من جهة أخرى، ولا يرى الفرق النوعي بين "الدعوة الطائفية" المنتمية لعالم "التقليد" والدعوة "الدولة إسلامية" التي هي من حيث الجوهر لا الشكل دعوة تنتمي إلى الحداثة!

إنه لمفهوم أساسي في علوم الاجتماع الغربية الحديثة أنهم يضعون مفهوم "التقليد" في مقابل "الحداثة" ولا يضعونه (كما هو سائد عند مثقفينا) في مقابل "التنوير" أو "العلمنة" أو ما شابه ذلك. بهذا المعنى تنطلق الختمية والأنصار معاً (بتمثيلاتهم السياسية في الحزبين الكبيرين السابق وجودهما للإخوان السودانيين وتفرعاتهم) من أرضية "التقليد" التي يحاربها الترابي ويشطب عليها نظرياً على أنها ضلال وانحراف عن "الإسلام النقي" وبهذا المعنى يشكل الإسلامانيون (باصطلاحي الذي أراه أنسب من "الإسلاميين" لعيوب التسمية الأخيرة التي أفترض أنها واضحة) موضوعياً محاولة حداثة عربية لا يراها عادة المثقفون لأنهم لا يرون هذا الجوهر المميز للحداثة الذي هو النزوع لاجتثاث التقليد بل يرون أعراض الحداثة الغربية وشكلها الذي لا يظهر عندنا!

أقرر ذلك موضوعياً ولعل القارئ يعلم أني (ويتفق معي أوروبيون كثر في مدرسة فرنكفورت وغيرها) لا أعد توصيفات مثل "حداثة" و"تنوير" قيماً إيجابية مطلقة عصية على النقد، وإن كنت أقرر سلفاً أنها تظل أكثر إنسانية من القيم المضادة التي تروّجها التيارات الوحشية في زماننا التي تنسب نفسها إلى الدين.

سأذكّر بثوابت حداثية يمثلها الترابي ولو نظرياً: مكافحة القبلية والطائفية، والنزوع إلى توحيد الدولة ومركزتها، مكافحة الأشكال الشعبية من التدين لصالح "شكل نقي" يزيل الاختلافات المحلية ويوحد الأمة. وكل هذه الثوابت تتناقض مع أسس بناء الحزبين الاتحادي وحزب الأمة (دون أن يعني ذلك على كل حال أن هذين الحزبين بدورهما عصيّان على التغيّر). ومن الغريب أن المؤلف لا يرى في الواقعة

العملية التي هي الصراع بين "الإنقاذ" والحزبين تناقضاً مع أطروحته!

يسوق المؤلف أدلة على أن "الاختلافات شكلية" بين هذين الفريقين: أنهم عملوا بصورة مشتركة على مكافحة الشيوعية، أن اختلافاتهم لم تتجاوز تحديد شكل الجمهورية الإسلامية: تكون برلمانية أم رئاسية؟ أن الإخوان استغلوا شعبية الحزبين في تمرير أجندتهم مثل حل الحزب الشيوعي وتمرير مشروع الدستور الإسلامي. وأنا لا أنكر طبعاً أن الإمكانية موجودة دائماً للالتباس بين القوى التقليدية والإسلامانيين، وهو التباس تساهم فيه اللغة وقلة التبصر السياسي أحياناً أو المصالح التكتيكية أحياناً أخرى، وهذه كلها يمكن أن تفسر اللقاءات العارضة بين الصادق المهدي و"الإنقاذ"، كما يمكن أن تفسر اللقاء الشكلي بين شعارات الدولة المغربية التي انبثقت في الأصل من سلطة إسلامية تقليدية وبين شعارات الإسلامانيين الذين يمثلون محاولة حديثة للانقلاب على التقليد الإسلامي. يبقى الفارق بين الفريقين في نظري جوهرياً، ولأعد إلى مثال الأمير عبد القادر وجبهة الإنقاذ الجزائرية للمزيد من توضيح الفكرة: إن الأمير عبد القادر كان يريد بناء "دولة إسلامية" لو انتصر، أي دولة تتبع نماذج محيطة مما صار إليه التقليد الإسلامي في القرن التاسع عشر مثل دولة الخديوي في مصر أو دولة "المخزن" في المغرب، بينما أرادت جبهة الإنقاذ (الفيس) بناء "دولة إسلامانية" تقطع مع التقليد الإسلامي باسم العودة إلى "الإسلام الحقيقي النقي" كما قطعت البروتستنتية الحديثة مع التقليد الكاثوليكي باسم العودة إلى "المسيحية الحقيقية النقية"! ولا يختلف الباحثون أن البروتستنتية ما هي تحت ثوبها الديني إلا شكل من أشكال "الحداثة" بينما لا زال الباحثون عندنا ينخدعون باللغة ويخلطون بين "الإسلام" (أي ما يدعى أحياناً "الإسلام التقليدي") و "التيار الإسلامي" (ما أسميه "الإسلامانية") الذي أسسه في رأيي في مصر الإخوان في الأربعينات بعد سنين عديدة من تأسيس الجماعة وشهد تطورات لاحقة إلى أن تبلور نهائياً في الستينات.

3- بعض الملاحظات المنهجية

أ- لا يتعامل المؤلف مع مفاهيم مثل "التخلف" و "التقدم" بنقدية كافية، مع أن الحالة البحثية القائمية سواء عند بعض المؤلفين العرب (عبد الوهاب المسيري وجلال أمين والفقير لله) أو الأجانب (كمدرسة فرنكفورت أو باحثين اقتصاديين وبيئيين مثل الفرنسي سيرغ لاتوش تضع علامات استفهام على دقة هذه المفاهيم وأحقيتها بالقيمة الإيجابية أو السلبية التي تعطى لها دون نقد إبيستمولوجي أو عملي كاف). انظر مثلاً قوله: "مع التخلف تصبح الديمقراطية مجرد ممارسة موسمية خالية من عمق الثقافة الديمقراطية الحقيقية". أنا أفهم المضمون العملي لهذه الجملة، بل أوافق على صحته، لكني أعترض على الصياغة النظرية، ولا أرى هذا الاعتراض أمراً شكلياً وآمل أن المؤلف نفسه (وهو المدافع المجيد عن النظرية والتنظير!) سيرى ذلك أيضاً إن أعاد التفكير فيما كتب. بدلاً من إطلاق هذا التوصيف "التخلف" بلا تعريف دقيق له علينا أن نحدد: ماذا نعني "بالديمقراطية الحقيقية" والثقافة المنسوبة

إليها؟ وعلينا أن نحدد: ما هي المكوّنات الاجتماعية (التي يجملها المؤلف باسم "التخلف") بالتحديد التي تمنع السودانيين من امتلاك هذه الثقافة؟ وهذان السؤالان هما من مكونات ما يسميه الفقير لله في كتابات عديدة "الوعي المناسب" وأعني به الوعي المناسب لتحقيق الأهداف التي تطرحها على مجتمعنا ظروفه الخاصة وعلاقاته بالعالم، وهو وعي نظري يخص فهم الواقع ووعي عملي يخص أجدى الطرق لتغييره تغييراً ملائماً.

ب- بالمثل يطلق المؤلف مصادرات تنتمي بالمعنى الدقيق لعالم الفلسفة وبالتحديد للميتافيزيقا ولا تنتمي لعلوم الاجتماع مثل قوله في إطار مجادلته مع حزب التحرير "المتابع للتاريخ البشري يجده سلسلة كفاح من أجل الحرية". وشيء كهذا كان هيغل قد قرره في "محاضراته" عن فلسفة التاريخ، لكنه مع الأسف، ومع تعاطفي الوجداني الكامل معه، ليس له قيمة موضوعية علمية!

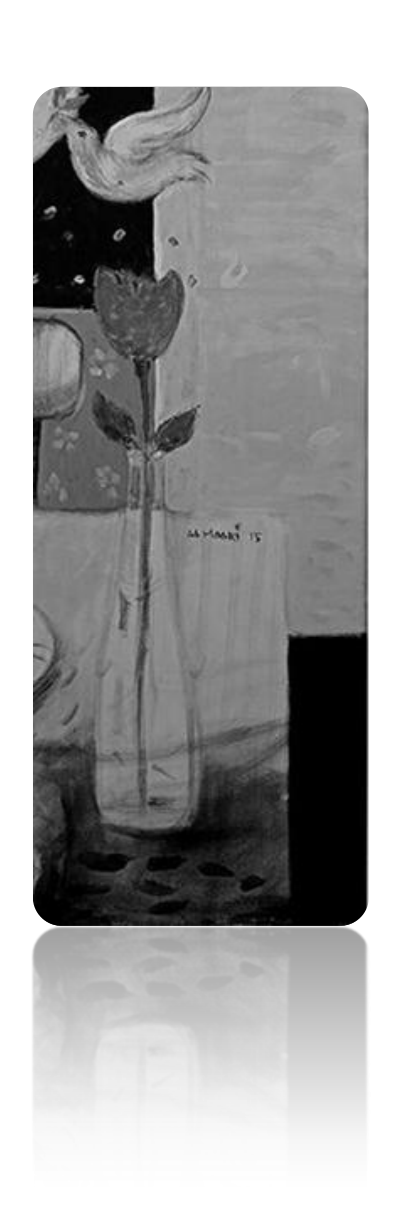
ج- من الغريب أن استعراض المؤلف لمعضلات السياسة السودانية في عهد الاستقلال يغيب عنها الحاضر الكبير في بلادنا الذي هو العامل الخارجي! ومع أن المؤلف ينقل عن "بعض الباحثين" أن ثمة ظروفاً أساسية للديمقراطية وملائمة لاستقرارها، "وإذا كانت هذه الظروف ذات وجود ضعيف أو غير موجود إطلاقاً، فمن غير المحتمل أن تستمر وتوجد الديمقراطية" وأول ظرف هو: "عدم وجود تدخل أجنبي"! (ص 243) لكن هذه الملاحظة تمر دون أي تطبيق فلم نر في الاستعراض والتحليل كله إلا الفاعلين المحليين فحسب، حتى في قضايا كان فيها التدخل الأجنبي ذا أهمية كبرى (دون أن نغفل طبعاً مساهمة المحلي في تسهيل هذا التدخل وتمرير أهدافه) مثل المسألة الجنوبية ومسائل الوحدة السودانية عموماً.

5- خاتمة

كتاب "الديمقراطية السودانية-المفهوم. التاريخ. الممارسة" كتاب قيّم يجدر بكل باحث عربي وليس بكل باحث سوداني فقط قراءته بتمعن. ولا تستطيع الملاحظات النقدية إعطاءه ما يستحق من تقدير. والفقير لله كاتب هذه السطور يقر بطيبة خاطر أن ثمة معلومات كثيرة ما كنت لأعرفها لولاه!

قطرة مطر

د. حكيم بحر



من الماء تبدأ الحكايات وتنتهي، منها تبدأ الأحلام وتتلاشى، أمام قطرات المطر تتأمل اللابداية واللانهاية، ترى كيف يتجلى الخالق في أصغر خلقه. في اللابداية كان مزيج الماء والتراب، ومن الماء خلق الله كل شيء حي، خلق الحياة بأروع أشكالها وألوانها. وفي تلك اللحظة التي لامست فيها قطرات الماء التراب اهتز الكون طربا مخرجا للحياة بهجات لا تنتهي.

كل حكاياتنا أيضاً بدأت من الماء والتراب فمنها كانت الجبلة الأولى وخلق الإنسان، ومن ذلك الخلق الفريد ومن ضلعه خلق الله له توأم الروح وبدأت حكايات الحب ولكنها لم تنتهي هناك. فتحت قطرات المطر تعاد صياغة حكايات الحب والعشق من جديد وبالرغم أن معظم هذه الحكايات تنتهي بالوهن والمرض والألم –ليس ذلك المرض الذي يصيب الجسد على قدر ما يصيب الأرواح - إلا أنها أيضا لن تتوقف حتى يرث الله الأرض وما عليها.

الماء خلق فريد لا يستطيع علم تعريفه، ففي الكيمياء هو عناق بين ذرات الهيدروجين والأوكسجين ولأن الاوكسجين يعشق النساء فلم يكتفي بزوجة بل كان له اثنتان، وفي الفيزياء كل المواد تتقلص بالبرودة الا هو يتمدد معلنا عصيانا عن قوانينها، وفي الدين فإن الماء هو الأصل في خلق كل حي، أما أطرف ما سمعت أن الماء هو مادة لا لون لها ولا طعم ولا رائحة. هذا السراب الغريب هو ما تراه العين ولكنه ليس الحقيقة، الماء له لون وطعم ورائحة وصوت أيضاً، هذه ما ستشعر

به وتراه وتلامسه إذا نظرت مليا بعيني قلبك.
من قال إن ليس للماء لون، الماء ملون بكل ألوان الحياة، هو لون الانسان والحيوان والنبات. هو ألوان البشر أنظر من أين شربوا تعرف ألوانهم وطباعهم، هو ألوان الحيوانات مرسومة في فراشة مزركشة أو طائر ملون، وهو لون الزهور بألوانها التي لا تعد ولا تحصى. هو لون كل شيء في هذا الكون فمن الماء كان كل شيء بإذن الله، وفي قطرة المطر ينعكس الضوء البسيط الوحيد ليخرج بألوان الطيف جميعها.

أما صوت الماء فأعذب من أن نتجاهله، فعند سقوط المطر تسمع سمفونية جميلة صوت متلون وفقا لمكان تساقط القطرات
على الشجر تسمع صوت الناي الحزين، وعلى الأرض تسمع صوت البيانو، وعلى النوافذ تسمع ايقاع الطبول، أما المياه الجارية في الأنابيب تعطيك نغمة متقطعة عذبة للكمان. أوركسترا عظيمة تجمع الشرقي والغربي مضيئة نفوس الحيارى، ترسم الابتسامة على الشفاه وتزرع الأمل والتفاؤل في القلوب.
أسأل الفلاح الذي يقضي وهو ينظر الى السماء ينتظر الغيث عن طعم الماء سيخبرك، اسأل العطشى عن أعذب مشروب في الدنيا سيخبرك، أسأل من فقد حبيبا عن طعم قطرات المطر سيخبرك، سيخبرونك عن ذلك المذاق، مذاق الحياة الذي لا يوصف، ولأنه لا يوصف قالوا إن ليس له طعم، هو يا عزيزي يحوي أروع طعم ولكننا ببساطة عجزنا عن فهمه.
أما تلك الرائحة وذلك العطر الذي لا يوصف ستحصل عليه بعيدا عن دكاكين العطارين حيث الروائح المصطنعة، ففي ذلك الموعد وتلك اللحظة التي تلتقي فيها حبات المطر مع أول ذرات التراب تتعانق مشكلة عطرا سرمديا، عطرا بديعا تلامسه وتسمع كلماته وتحس بنشوة غريبة لا تفسرها نظريات فرويد في النفس البشرية، تقف مشدوها أمام كل الحكايات والأساطير حتى تظن أن أكثرها ملفقة، تعيد قراءة التاريخ من جديد تسقط كل النظريات وتبقى الحقيقة، الحقيقة العظيمة التي تجعلك تقف متسائلاً: كيف يمكن لقطرة ماء صغيرة وذرة تراب واهية أن تحكي كل هذه الحكايا؟ حقا إن الله على كل شيء قدير.

على خفقة النـاي

فرج بيرقدار

إلى صديقي عباس أبو ديمة

منذ التقينا

هجستُ لنفسيَ أن الفتى الكهلَ

ليس طويلَ الأجلْ.

لَكَم كان يشبهني

في يقين الغيوم بما سوف تُعشِبُ

في أمنيات الينابيع نحو السرابِ

وفي خَطَرَاتِ المُحِبِّ الذي لا يخونُ

ولكنني سأضيف لهُ

أنَّهُ كانَ أبعَدَ مرمى

إلى ما يرى ويريدُ

على مقتضى الحال

ثمَّ أضيف لهُ

أنَّ ضحكته

لا يحالفني الحظُّ في كركرات سلالمها

والغريب أشدّ الغرابةِ

أنَّ اسمهُ كان: عبَّاس.

عباس؟!

أين عبوسكَ يا ابن الضنى والأملْ؟

تَراهُ على مشرق الشمس

حتى إذا ما تأخَّرتِ الشمسُ عن شأنها

هزَّ خلخالَها

وتراه على صَحَوات النهار وسكراتِهِ

ويفاوض آخرةَ الليل كي تستطيل

يريد من العمرِ عمرين

يا ليتني كنتُ قبلكَ يا هَصْرَ قلبي

أنانيَّتي أن تهيّئَ لي

لا أهيّئَ مرثيتي لكَ

يا ابنَ أعزِّ ظنوني

لقد آنَ أن أشهدَ الآنَ

أنَّ الذي كان يأكل ما يتيسَّر من خبزنا

كان يمضي إلى غيرنا بالعسلْ.

عجولاً كعادتهِ

وأنا مثلُهُ

كنتُ أحسَبُ أنَّ خُطانا كأخطائنا

والردى والرِّداءَ سواءٌ

وأنَّ القناديلَ تتقنُ ظلمتنا

والنهارات أمّ الليالي

إلهَ السماواتِ أينَ سماواتُنا؟

لا سماوات لكْ.

لقد كان للصمتِ عرشُ الكلامِ ولكنْ

تعجَّلتَ أكثر مما تظنُّ حبيبي

علامَ العجلْ؟

شقيقين كنَّا على أيِّ أمرٍ

وفي أيّ أمرٍ

وكان له من كروم المحبة أضعاف ما لي

كريمٌ ويرعى كروماً

لهُ ألفُ روحي التي آلفتْهُ

ويعرف كيف يغنِّي

وإن كنتُ علَّمتُه ما القرارُ

وكيف يردُّ عليه الجوابَ

فصار نديمي الأحبَّ

على خفقة الناي في صوتهِ

وارتجالات ما في السهولِ

وما في الجبلْ.

تيه

أنور عمران



عبرنا البحرَ من سنوات،

ولم نعدْ نتذكر عنِ البلادِ إلا المجاز الذي يقولهُ الغرباء..

نعرفُ أن أبناءنا سيتخيلونها

مثلما تخيلَ قابيلُ الفردوس

وربما سيخطئون بلفظِ حرفِ الضاد،

نعرفُ أنهم سيقطعون الطريقَ على ذكرياتنا

لن يفهموا روائحَ زهرنا البري،

ولا طريقتنا المضحكةَ في تسميةِ الأبناء،

ولا أسلوبنا المهيبِ في الزفافِ إلى الآخرة...

وكأننا لم نولدْ هناك،

ولم نغرسْ شوكةً في طريقِ الجبل..

عبرنا البحرَ كلنا

ولم يبقَ من سيروي الأوديسا الجديدة..

كان ينقصنا وزنٌ إضافيٌّ، وحظٌّ سعيد

... لنغرقَ مثل إخوتنا،

ولكنا وصلنا سالمين ...

ومثل أي طيرٍ يهاجر كي لا تموتَ فراخه

احتضنا بيوضَ الحياةِ بأنفاسنا الأخيرة...

صاحبُ المركبِ أخلى بنا في عرضِ البحر

وقال موتوا،

إخوتنا الذين استثقلوا الرحلةَ

ظلوا في البلادِ التي تناثرتْ على الطريقِ

وقالوا موتوا،

الغرقى الذين سقطوا عن حوافِ القوارب

حاولوا أن يتشبثوا بأيدينا

وقالوا موتوا،

اللهُ حين أرسلَ العاصفةَ قال موتوا،

خفرُ السواحلِ وهم يثقبون قواربنا المطاطيةَ ببواريدهم قالوا موتوا،

لكنا وصلنا سالمينَ،

ولم نعد نتذكرُ شيئاً عن البلادِ التي تركناها...

لم نعد نتذكرُ،

لكن صوتاً ناعماً

صوتاً يشبهُ النايات

ما زالَ يوقظنا في الليالي القطبيةِ الطويلة

وينادي:

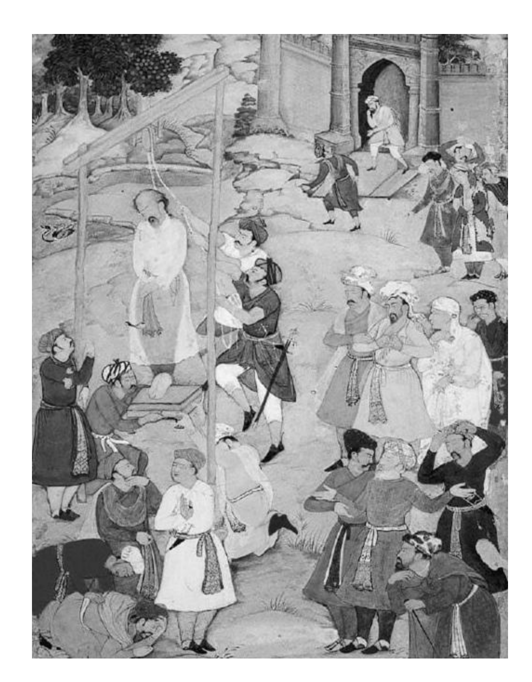
أنا لا أبكي عليهم،

أنا فقط أبكي عليكم...

الدرامة في التراث الكردي

أحمد اسماعيل اسماعيل

ما أن يُذكر الكُردَ، أو الكردي، حتى تقفز إلى ذهن من يجهل هذا الشعب، عدا اسم القائد التاريخي صلاح الدين الأيوبي، صورة رجل جبلي في ثياب فضفاضة، يعتمر كوفية، ويعلق على كتفه بندقية، يُطلق عليه اسم غامض هو "البشمركه"، أو اسم آخر برز حديثاً في الشمال الشرقي من سوريا ويدعى " قوات الحماية الشعبية"، يحدث ذلك عادة كلما نشب نزاع في المنطقة، مسلح أو سياسي، حتى بات ذكر الكردي لدى كثير من أبناء المنطقة مرتبط بحالة الحرب والنزاعات في المنطقة، أما في حالة السلم، فتكاد صورة الكردي تكون غائمة، بل مُغيبة، وذلك رغم كل ما يشهد لهذا الشعب من جنوح للسلم وعشق للفرح.
الروائي والسينمائي يلماز غوني والروائي يشار كمال في تركيا والمخرج السينمائي بهمن قوباي مؤخراً في إيران... ناهيك عمن كتب ويكتب بالكردية، قديماً وحديثاً.



ناهيك عن حضور قوي في المشهد الإبداعي في كل مربع تواجدهم الجغرافي الذي مزقته

الروائي والسينمائي يلماز غوني والروائي يشار كمال في تركيا والمخرج السينمائي بهمن قوباي مؤخراً في إيران... ناهيك عمن كتب ويكتب بالكردية، قديماً وحديثاً.

التراث ووعي الفنان

لم يقطع المسرح عبر تاريخه الطويل الذي يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد حبل السرة مع التراث الذي ولد من رحمه، ليس وفاءً وطاعة، فلا شيء يفقد المسرح كينونته بقدر اتصافه بهاتين الصفتين أو الخصلتين، بل حاجةً إلى الأصالة والتغذية المستمرة رغم تعدد المصادر الذي ينهل منها مواضيعه وصيغه الفنية، وهو ما أدركه المسرح منذ البدايات الأولى له، وقد عبر أسخيلوس المسمى أبو الدراما عن ذلك بقوله "إني أقنع بما يتساقط عن مائدة هوميروس من فتات" ومنذ ذلك التاريخ، ورغم ازدياد الموائد الحافلة بالمواد المختلفة، الشهية إبداعياً، حرص المسرح على عدم الابتعاد عن مائدة التراث العامرة بكل ما هو أسطوري وشعبي وديني وتاريخي، يأخذ منه ما يفيد حاضره وقضيته، ويضيف إليه أبعاداً جديدة من خلال رؤية معاصرة، تتجاوز التصور السكوني للتراث، المتحفي والمقدس، دون اقتصار على نقل المعارف ومضامين المادة التراثية، تحقيقاً لما يخدم الحاضر والمستقبل في صيغة جمالية

نابعة من ذاكرة الناس الجمعية. ومعبرة عن وجدانهم.

– **غنى التراث الكردي وبؤس حال صاحبه**

قد لا يملك الكُرد، وهم شعب عريق وأصيل في المنطقة، شيئاً مميزاً وثرياً يؤكد أصالتهم كأمة وهويتهم كشعب قدر امتلاكهم للتراث، فقد وضع هذا الشعب كل مدّخراته الروحية من حكايات وأمثال وملاحم وغناء وأشكال فرجة في وعاء التراث وخابيته، ومازال الكرد يثرون تراثهم غناءً ورقصاً وحكايات في زمن كفَّتْ فيه غالبية شعوب المعمورة التي غادرت الماضي عن فعل ذلك، في تفرد ناتج عما يشبه التعويض عن النقص الحاصل في حياة هذا الشعب، فبغياب أو تغييب الكلمة المكتوبة ومؤسساتها لم يجد الكُرد وسيلة أفضل من التراث بكل مفرداته وحقوله للتعبير عن أفراحهم وأحزانهم وأحلامهم.

غير أن هذا الغنى، كماً وكيفاً، لم يجد من يحفظه كتابة وأرشفة ودراسة؛ أو يستثمره في حقول إبداعية مثل الشعر والقصة والرواية، أو يحسن صياغته في مجالات فنية مثل الرسم والنحت والمسرح والسينما.

لا يتسع المجال هنا لذكر المواد التراثية الكردية القابلة للاستلهام، من حكايات وملاحم وأساطير وأغان، مثل حكاية درويشي عفدي، ومم آلان، وأسطورة كوماربي، وهارباك، ورشو داري. وقلعة دمدم. أو بعض أشكال الفرجة الجنينية التي يمكن الاستفادة منها في الصيغة الجمالية للعرض المسرحي. كأسلوب أداء بعض المهرجين من أمثال نادو ولطو وحليمو القريبة الشبه بفن المونودراما. ولعبة العريس الحاكم وكثير من مسامرات القرويين.

– سيامند سليفي

تمتاز ملحمة سيامند سليفي، أو سيامند وخجي، الشعبية التي رويت بأكثر من شكل عن مأساة فتى يتيم وفقير يخطف الفتاة الجميلة خجي متحدياً أخوتها السبعة وكل أبناء قريتها، تمتاز هذه الملحمة بأنها تستوفي مراحل حياة البطل في السير والملاحم الشعبية، بدءاً بمرحلة التكوين التي تدور حول حياته وما يلاقيه من ضروب الظلم في مجتمعه؛ حيث تكون البداية في بيت عمه الذي يلقى فيه قسوة امرأة العم خاصة، حتى يأتي اليوم الذي يقرر فيه الانتقام منها ومن عمه ومن كل أهالي قريته. وتكون البداية بخدعة تجعل امرأة عمه تنحر الجاموسة الوحيدة التي يملكها العم وتطبخ لحمها على نار خشب سقف البيت وذلك حسب رغبة العم الذي أوصلها سيامند كذباً وبهتاناً. وتكون النتيجة، بعد كشف هذه الخدعة، طرد سيامند من البيت ومن القرية أيضاً. وفي البرية التي يتخذها مسكناً له؛ يستمر سيامند في ممارسة الشقاوة، فيقطع آذان الحمير ويجدع أنوف البقر ويكسر قرون الماعز، ويضيق أهل القرية ذرعاً به وبأفعاله، ويقررون ملاحقته في الجبل، ويشتد حصارهم للفتى، وهنا يزوره سيدنا خضر في المنام ويطلب منه مغادرة القرية، مؤكداً له ومطمئناً أنه لن يموت على يد مخلوق بشري، فيغادر هذا الشقي القرية وقد ازداد شقاوة وثقة بالنفس، ليقترف جريمة في أول قرية يحل بها؛ ويتطور الأمر معه ويرتقي مستوى الصراع حين يقاتل محمد أغا جابي ضرائب السلطان العثماني، ويستولي على قافلته، فيدين له الجميع بالولاء، وكل ذلك في دائرة المرحلة الأسطورية التي يتجاوز فيها البطل المرحلة الأولى التي يتخلص فيها مما هو فردي وذاتي؛ وتتحول الشقاوة والثقة بالنفس إلى بطش وغرور. يتعرف بعدها على صياد عصافير ويعقد معه علاقة صداقة متينة أساسها الاستمرار في ممارسة الشقاوة وإيقاع الأذى بالآخرين، يقاتل القدر **فلك** (المؤنث كردياً) وينتصر عليها، ثم يقاتل أخوة خجي السبعة وينتصر عليهم. وبكل هذه الانجازات والفوز على كل من تصدى لهذا البطل، ومن ثم وصوله إلى جبل **سيبان خلاتي،** ترافقه خجي، تكون المرحلة الثالثة من ملحمية هذه الحكاية قد تبلورت واكتملت، وفي أعلى الجبل، وأثناء نوم سيامند الذي يتوسد فخذ خجي، تشاهد هذه الحبيبة وعلاً هزيلاً قميء المنظر يهاجم سبعة أيائل وينتزع واحدة منها من وسطهم ويفر بها، فتطفر دمعة تأثر من عيني الفتاة وتسقط على وجه سيامند الذي ينهض فجأة ويطلب تفسيراً لبكائها ويكثر من

الإلحاح، فتضطر خجي لرواية ما شاهدته وأحست به، الأمر الذي يجعله يستشيط غضباً ويقرر ملاحقة الوعل وقتله، لا لأنه، وحسب تفسير غالبية قراء الملحمة، كان السبب في بكاء حبيبته؛ وانقباض قلبها، بل لأن هذه الحبيبة وجدت في وعل هزيل وسيء المنظر شبيهاً له، وهو من هو، بطل قومه وفريد زمنه، وفي الجبل، وبعد طول بحث، يعثر سيامند على خصمه، وينشب بينهما صراع طويل وقاس، تكون النتيجة بفوز البطل الذي يذبح الوعل، غير أن ذلك لم تكن النهاية كما يتوهم سيامند ويتيه غروراً بأنه قتل من يمكن أن يكون نداً له وشبيهاً، حتى ولو كان حيواناً، فتحين من الحيوان الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة حركة ويوجه ركلة لسيامند تدفع به من أعلى قمة جبل سيباني خلات إلى أسفله، حيث واد عميق، وشجرة يسقط عليها، فتمزق أغصانها جسده. لترمي خجي نفسها عليه، وتقاسمه مصيره، وذلك بعد حوار مؤثر يدور بينها وبين سيامند، الذي يرتقي لدى بعض الرواة إلى مصاف قصيدة غنائية. وبهذه الخاتمة المفجعة تكتمل هذه المرحلة الملحمية: السقوط من الأعلى إلى الأسفل. وإن في نهاية غريبة وغير متوقعة شبيهة بما يحدث لأبطال الملاحم والأساطير أمثال: هرقل وأوديب وآخيل والمهلهل.

بعد كل ما حدث وما مرت به الملحمة من مراحل، تأتي المرحلة الأخيرة لمسيرة بطل الملحمة، هي مرحلة الامتداد التي تبدأ بعد موته الجسدي، وفي تجاوز له، لتمتد عبر الزمان والمكان، مشبعة بأعمال وقيم وبطولات، هي في حقيقة أمرها من عنديات شعبه، عاكسة معاناته وتطلعاته وأحلامه. تماماً كما هو الحال بالنسبة لسيرة عنترة العبسي، وسيرة أبو زيد الهلالي.

مقاربة

إن قراءة متأنية لهذه الملحمة التي أولى المتلقي، الكردي، جانب الحب فيها، تسمية وقيمة، اهتمامه الأكبر في قراءة غير دقيقة لأحداثها ومعانيها، تمكننا من استخلاص كثير من أفكار وقيم مبثوثة في تضاعيف هذه الملحمة الشعبية.

ناهيك عن بناء الملحمة الفني، إذ أن الشخصية الرئيسية فيها ليست نمطية، بل نامية وحية بكل ما فيها من تناقضات، طيبة وعنف، إخلاص للصديق وشك فيه، شرف وفسوق، وعشق كبير لخجي وقتل لأخوتها. حسب روايات، أو إذلالهم حسب روايات أخرى. إضافة إلى ثقافة وقيم المجتمع الذي نما وترعرع فيه، والذي لا يخلو من تناقضات؛ لا تقتصر على زمن سيامند ووقوع أحداث الملحمة، بل تحتوي على قيم مرحلة الامتداد في روايات متواترة عبر الأزمان، والتي تتجلى هنا في الدين مثلاً، وطريقة التعامل معه، والمتمثل هتا برمزين دينين معروفين هما: القدر وسيدنا خضر، إذ يحارب سيامند الأول، القدر المؤنث كردياً، رغم استحالة ذلك إسلامياً، إذ التسليم به ركن أساسي من أركان دين أبطال ورواة الملحمة، وإن في عملية التفاف لجعل القدر أنثى، وهذا بحد ذاته يحتاج إلى وقفة ودراسة، ويطيع الثاني "سيدنا الخضر" الذي تنبأ له بعدم الموت على يد مخلوق بشري. وبمغادرة وطنه القرية.

إنها ملحمة تدور حول رجل دفعه الظلم إلى الشقاوة ودفعته الشقاوة إلى ظلم الآخرين ودفعه جبروته إلى الغرور وأوصله الغرور إلى السقوط من أعلى وتمزيق جسده بفعل ركلة حيوان وهو البطل الذي لا مثيل له. في التفاتة ذكية من الراوي الشعبي لتحديد مصير من يتجاوز شرطه الإنساني، ويتشبه بالإلهة، تماماً كما فعلت الميثولوجيا الإغريقية التي منحت مورس، أو القدر، سلطة عليا تفوق سلطة زوس "رب الأرباب نفسه". ليتدخل في النهاية ويعاقب كل من يصاب بعلة الغرور، أوديب نموذجاً.

- **الأفكار والقيم الرئيسية**

إذا كان من الخطأ تقديم أي حكاية أو مادة فولكلورية في شكلها الخام، دون تدخل من المسرحي، وهو ما فعله الرواة والمغنون الشعبيون، فإن ملحمة سيامند تحوي مجموعة من الأفكار والأحداث والقيم من أبرزها:

- التربية القاسية تنج طفلاً شقياً، والطفل الشقي مشروع رجل متطرف أو قائد ظالم.

- الغرور علة لا تسيء إلى المجتمع فقط بل تقتل صاحبها، كما حدث لأوديب.
- الانتقام ليس الخيار الوحيد والناجح في رد المظالم.

- مساهمة المجتمع في إفساد الفرد.

- هامشية المرأة الكردية والقهر الممارس بحقها رغم إخلاصها وتفوق الرجل عليها حتى لو امتلكت قدرات خارقة مثل القدر" فلك".

وأهداف ومقولات أخرى كثيرة ستحدد للمبدع الحدث أو الأحداث المناسبة لها، ورغم توفر أنواع كثيرة من الصراعات: عامودية وأفقية وداخلية وعفوية، والتي تتمثل في مواجهة العفوية البشرية للقدر، وإبراز ذلك كله من خلال حوارات لا تلتزم بالضرورة بما هو وارد في النص الأصلي لمناسبته لزمن الحكاية وليس الزمن الحالي الذي يكتب المبدع له ومن أجله.

بعض أشكال الفرجة

إذا كان ابتداع الصيغة الجمالية حالة ملازمة للمادة التراثية من حكاية أو لعبة أو مثل شعبي... فقد حوى التراث الكردي في سوريا مثلاً الكثير من الصيغ الجمالية التي يمكن الاستفادة من بعضها فنياً وتوظيفها في عروض مسرحية بهدف إكسابها طابعاً له خصوصيته المحلية والقومية.

كان من عادة الكرد في الماضي اللجوء إلى ممارسة بعض الألعاب طلباً للتسلية وتزجية أوقات الفراغ في فصل الشتاء خاصة، فتتحول القرية إلى مسرحاً للعبة، وأهلها إلى ممثلين؛ لعبة قد يطول زمنها أو يقصر. ففي لعبة التجارة مثلاً، حيث المكان هو مضافة القرية، والمؤدون أو اللاعبون هم من أبناء القرية أو شبابها، إضافة إلى ضيف غريب لا يمكن أن تكتمل اللعبة بدونه. تكون البداية حين يبادر رجال القرية في اتفاق مسبق أشبه بالمكيدة إلى اقتراح أداء جملة من الألعاب بقصد تزجية أوقات الفراغ، وبعد الاتفاق على القيام بلعبة التجارة مثلاً، وتوزيع الأدوار: التاجر، القصاب، السمسار "الدلال"، صاحب الغنم، والقطيع المؤلف من مجموعة من الشباب، شريطة أن يكون الضيف واحداً من أفراد القطيع، وذلك بتدبير مقصود ومخطط له، يعلم به الجميع ويجهله الضيف. تبدأ اللعبة بإعلان السمسار "الدلال" عن بيع القطيع (الشباب) ويشتري التاجر هذا القطيع بمبلغ معين، وبعد حوار ارتجالي يخفي في طياته الضحك المكتوم الذي يتصاعد مع الحدث الجاري، يعاين القصاب الخِراف لاختيار أفضل خروف لذبحه، ويقع الاختيار على الخروف (الضيف) وهو اختيار مقصود يعرفه الجميع ويجهله الضيف، حينها يقوم القصاب بتمثيل عملية الذبح والسلخ، إلى أن تُرفَعُ قدم الغريب ويُسكب الماء البارد في فتحة سرواله. الأمر الذي يثير جفلة الغريب، ويطلق ضحك الجميع. ومن الملاحظ قرب الشبه بين مثل هذه المسامرة والمسامرات المصرية التي استلهم المسرحي المصري محمود دياب واحدة منها في مسرحيته المائزة **"ليالي الحصاد"** والتي نحى بها كاتبها منحىً تجاوز هذا المقصد إلى تراجيديا مصرية شعبية استثمر فيها كل ما في هذه المسامرة من طاقة درامية.

وفي لعبة (سرقة التاجر) التي يكون البطل فيها، والضحية، هو الضيف. تبدأ اللعبة بإعلان أحد رجال القرية عن نزول تاجر في بيت أحد سكان القرية، وحين يقترح آخر سرقته لسبب يجتهد كي يكون وجيهاً ومبرراً، يوافق جميع من في المضافة على القيام بالعملية، ويبدأ اللعب (السرقة) باستئذان الآغا المشارك في اللعب للبدء بالعملية، وذلك بعد إقناع الغريب الذاهل بالانضمام إليهم، ويخرج الجميع قاصدين الهدف، حيث لا تاجر ولا أكياس ملأى بالذهب، بل فخ وشرك للغريب وأكياس محشوة بالحجارة والعصي والمهملات، وعندما يعودون بالمسروقات إلى المضافة ويخفونها في غرفة ما، يتبعهم صاحب البيت المسروق مفتعلاً حالة الغضب، فيرغد ويزبد مطالباً الآغا باسترجاع ما تمت سرقته حالاً ومعاقبة السارق، فيتوعد الآغا الفاعل بأشد العقوبات، وينبري الحضور إلى إعلان تبرئة أنفسهم، مؤكدين، جميعاً، على استحالة صدور مثل هذا الفعل الشنيع عن أهل القرية، أو عن أي واحد منهم، وذلك في اتهام مبطن للضيف الغريب، وهنا تبدأ حبكة اللعبة

بالتأزم، وتتأزم الشخصية المضحوك منها وهي تنكمش على نفسها في حيرة وخجل، وبعد حوار يطول أو يقصر، يتم إحضار المسروقات التي سرعان ما يتعرف عليها صاحب البيت، وحين تُفرغ الأكياس المسروقة أمام أعين الجميع، حينها فقط يدرك الضيف الذي شارك في هذه المغامرة، وهو يرى هذه المحتويات التي لم تكن سوى أحجار وعصي، أنه كان ضحية مقلب، ويطلق الجميع الضحكات التي كتموها طوال مدة اللعبة المقلب.

ولعل الصيغة الفنية الأجمل أو الدرامية التي قدمها تراث الكرد في هذه المنطقة تتمثل في " العريس الحاكم" وهو تقليد كان متبعاً في بعض المناطق وله امتداده في مناطق كردية أخرى خارج الجغرافية السورية، يحددها الموضوع المختار لها من قبل العريس والذي يرتبط بطبيعة شخصية العريس.

الزمن: ليلة زفاف مدتها محددة بدخول العريس على عروسه.

المكان: قرية كردية

الحدث: ليلة زواج

الشخصيات: العريس. وهو حاكم مطلق الصلاحية يأمر فيطاع. أصدقاء العريس وهم بمثابة المعاونون ورجال من داخل القرية وربما من خارجها.

الصراع: يحدد العريس أطرافه (غني وفقير، ظالم ومظلوم...)

الحل أو الخاتمة: وترتبط بدخول العريس على عروسه.

تذكرنا هذه اللعبة بتقنية المسرح داخل المسرح للكاتب الإيطالي لويجي بيرانديلو. وخاصة في رائعته: ست شخصيات تبحث عن مؤلف. وإن بشكلها الجنيني والبسيط.

ويؤكد كثيرون حدوث طرائف وقصص في أعراس لجأت إلى هذه اللعبة، قد تفيد في تعميق هذه التقنية أو الصيغة الجمالية، مثلما حدث حين صادف شاه، أو أحد رجالات السلطان عرساً كردياً، وذلك أثناء مرور قافلته من قرية كردية يقام فيها عرساً، وكما فعل الملك في مسرحية سعد الله ونوس الملك هو الملك التي أرتشفها من ألف ليلة وليلة، دخلت الشخصية في اللعبة، فما كان من العريس الذي منحه العُرف سلطاناً مطلقاً، ويطلب من هذه الشخصية الكبيرة القيام بأفعال والإدلاء بكلام لا يناسب مقامها، وتنفذ الشخصية الأوامر نزولاً عند قانون العُرف، وإن على كره وغضب، بانتظار دخول العريس على عروسه، الفعل الذي سيسقط، وحسب العرف، سلطانه، ولذلك فإن العريس، وإدراكاً منه لذلك، وتجنباً لانتقام هذه الشخصية المرموقة، امتنع عن الدخول على عروسه زمناً طال أكثر من سنة، وحين تعلم تلك الشخصية التي قررت محاسبة العريس لتطاوله على مقامها، بامتناع العريس على عروسه خشية من انتقامها ومحاسبتها له، تغفر له تصرفه. وتطاوله، حينها فقط يتمكن العريس من الدخول على عروسه.

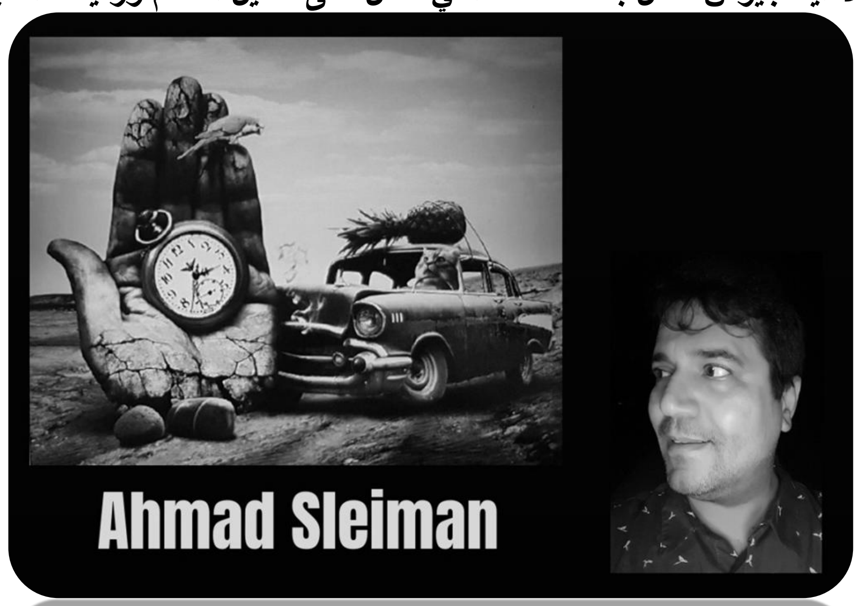
لا شك أن مائدة الكرد التراثية عامرة بما هو إبداعي إلى حدِّ الإدهاش، وتكاد تكون وليمة لكوكبة من المبدعين، غير أن أسباباً يطول شرحها حالت دون تلبية المبدعين الدعوة لهذه الوليمة والجلوس إلى هذه المائدة العامرة.

مراجع :

1- - رمضاني – مصطفى. توظيف التراث وإشكالية التأصيل في المسرح العربي. مجلة عالم الفكر الكويتية. المجلد السابع عشر. العدد الرابع.1987)
2- سيامند وخجي (رواية شفاهية مغناة للمغنيين الشعبيين دمر علي، وأحمد كوه لف) أشرطة كاسيت.

أحمد سليمان :عن الحرب القائمة وأسئلة المستقبل والكتابة

- **الحل كما اراه، خروج جميع القوات والمليشيات الأجنبية المتقاتلة فوق الأرض السورية ،ونشر قوات دوليَّة مُشتَرَكة لحفظ السلام.**
- **لم أوفر فرصة إلا وكنت أتحدَّث فيها عن قضيَّة شعبٍ قام بأعظم ثورةٍ في التَّاريخ**
- **المجتمع السوري ، منذ وصول حافظ الأسد الى السلطة مصاب بالانفصام الإرادي.**
- **" رومانتيك 2011 " هو مواجهة صريحة مع الذات والحرية والحب الذي تلاشى وسط أخبار المجازر**
- **ان من ساعد على نشوء التطرف هو النظام ، بهدف إسباغ صورة مشوهة عن الثورة.**
- **لا يوجد سوري متوازن يقبل بوجود مجموعة عسكرية أو جهادية أو طائفية أو سواها ، ولا اية جيوش تحتل بلدنا ، كتلك التي تعمل على تأهيل النظام ورئيسه المجرم.**



صدر حديثًا عن "مركز الآن" باللغتين العربيَّة والإنجليزيَّة للكاتب والشاعر السوري المقيم بألمانيا أحمد سليمان كتاب "رومانتيك 2011"، وهو الكتاب الثامن للمؤلِّف، وقد أصدر قبلًا دواوين
شعرية وهي: الحفيد السرّي، خدر السَّهو، الْعِشْقُ المشرور، أنتشــكل. بالإضافة إلى عملَيْن سَرديَّين:

زهور النار، قُبَّعة المنــام، ومجلَّد ثقافي موضوعه الأسلس الديمقراطية واستشراف المستقبل جــدل الآن.

عن كواليس الكتاب أسرَّ لنا في هذا الحوار أنَّ الراوي للأحداث يتلقى اتصالًا هاتفيًا في محاولة لثنيه عن مساندته للمظاهرات في بلده سوريا؛ إذ كان ولا يزال المؤلف يدير موقعًا متخصصًا في نشر أخبار النشطاء والانتهاكات التي تطال السوريين. بصفته الاعتبارية تلك وبالنظر إلى سرعة الأحداث الدمويَّة المفرطة، وخصوصًا حين تم قصف المدنيين بالطائرات والدبابات، دفع كاتب النص إلى تصعيد

تصريحاته الإعلامية التي فضح من خلالها جرائم النظام السوري.

يستحضر الرَّاوي قصَّته التي بدأت قبل الثورة بعامين؛ إذ قضاها متابعًا لوضعٍ صحيٍّ تعيشه حبيبتُه، إلا أن الخواتيم جاءت قاسيةً، فكانت انتحارًا- حسب رأيه- أدَّى إلى تفكيك علاقته بها؛ إذ إنها استسلمت لضغوطٍ دَفَعتْها لتكون في موقعٍ آخر يتعارض مع الرَّاوي. هذا ما نستخلصهُ بأن الأمر رسالة قاصمة توازي محاولة اغتيال واضح وصريح للكاتب نفسه.
في "رومانتيك 2011" يكتب أحمد سليمان "مونولوغ" بأصواتٍ متعدِّدةٍ، انطلاقًا من الذات إلى المحيط، متَّجهًا للعالم؛ إذ يؤكد أن ما يكتبه هو عن قضيَّة شعبه، ومساعيه من أجل دولة مدنيَّة ديمقراطيَّة. يرى أن ما حصل في بلده ثورةٌ حقيقيَّةٌ، إلا أن اللاعبين الكبار الذين يرسمون سياسات المنطقة والعالم جعلوا من سوريا مسرحًا فوضويًّا للتخاطب والنزاعات فيما بينهم.
يؤكد الكاتبُ أن النظام كان على صلةٍ مباشرةٍ بكلِّ الجرائم، فكتب عن حكاية الحكم، وطرائق إدارته للدولة الوراثية عبر أجهزةٍ أمنيَّةٍ قمعية مستبدَّة، تلك التي جعلت كلَّ شيء في البلاد خاضعًا لسطوةٍ عائليَّةٍ قاتلةٍ. كذلك نقرأ بشكل مفصَّل عن الاغتيالات في لبنان والمجازر والاعتقالات والمختطفين في سوريا، إضافة إلى حديث عن المتطرفين الإسلاميين وأذرع قوميَّة تتلطى بشعاراتٍ ديمقراطيَّةٍ، والذين يعتبرهم أحمد سليمان حرَّاس النظام، في إشارة إلى أنهم تخرجوا من فروع الاستخبارات منذ أيام الدكتاتور الأكبر حافظ الأسد.
في حوارنا الخاص، نسلِّط الضوءَ على تجربة أحمد سليمان، ورأيه من القضايا المصيرية المرتبطة ببلده وشعبه ، كذلك نجول معه عبر اسئلة متداخلة هامة ، انطلاقا من كتابه "رومانتيك 2011" الذي لم يشر فيه المؤلف إلى الجنس الأدبي لعمله. ما جعلنا نفهم ذلك كنوعٍ من القطيعة مع المُسمَّيات ، مع انه يؤكد "هذا العمل يجتمع السرد والنثر والرواية في كتاب واحد "

- **سأطلب منك بعض مفاتيح لكتابك "رومانتيك 2011"، ولماذا لم يتم تصنيف العمل إلى جنسٍ أدبيٍّ معيَّن؟ وما دلالة العنوان؟ ولماذا تصدره بلغتين في كتابٍ واحد؟ وقبل ذلك كيف تحل قضيَّة تمويل كتبك خصوصًا أنك تعتزم ترجمة المزيد من الكتب، إضافة إلى تبنِّي سلسلة كتب ستصدرها تباعًا، في محاولة منك استنهاض عمل مؤسساتي داعم للثقافة والنشر والكتاب؟**

سأجيب عن هذا السؤال/ الأسئلة؛ إذ ألاحظ أنَّ كلَّ سؤالٍ يحتاج إلى حوار منفصل، رجائي عندكَ عدم حذف أي جملة عن سياق أجوبتي.
أولًا- مفاتيح الكتاب: "رومانتيك 2011" قائم بالأساس على تجربةٍ حقيقيَّةٍ عشتُ تفاصيلها منذ ما قبل الثورة بعام ونصف تقريبًا، وصولًا لما تعيشه بلدي سوريا من حربٍ متداخلةِ الأطراف الإقليميَّة والدوليَّة، كذلك رغبتُ القول من خلال كتابي إن هذه الحرب المأساوية لم تكن تحدث لولا بدأها نظامُ الحكم ضد ثورة شعبنا.
أزعم أنني أقدم نصًّا أدبيًّا قائمًا على تشريح الأذى، بتفرُّعاته السياسيَّة والأخلاقيَّة والبدنيَّة، كما تعلمون أن السُّوريين مستهدفون بجودهم، وما تبعه من قهر لوعيهم المدني والنفسي ذلك منذ بداية الحكم الدكتاتوري وصولًا إلى صيحات المجتمع الذي ثار بعفوية، فكان خطابه واضحًا منذ البدء، دولة متحررة من الفساد والقمع، غير محتكرة للسلطة وتحترم مواطنيها.
ثانيًا- تصنيف العمل: وقعت في حيرة وأنا أدفع كتابي إلى الطبع، وقبل ذلك نبهني المترجم والمحرر للنسخة الإنجليزية المترجمة (كلاهما صديق لي، بل رفيقا نضال تحرري) إلى ضرورة تصنيف الكتاب، مع ذلك آثرت عدم تصنيفه تحت أي جنس كتابي، اعتقادًا مني بأنه يجمع السرد الأدبي والنثر، والرواية ذات

الصوت الواحد، بالتالي فهو جنس فالت ويجمع المسميات كلها معًا.

ثالثًاـ العنوان: أعرف مسبقًا بأن العنوان يبدو وكأنَّه رواية عاطفيَّة، لكن في الواقع إنه يخص بلدًا بأكمله، فيه دعوة لفهم علاقتنا بالحياة والمجتمع والحرية، سنوات سبع قضيناها كمدانين، وفي أحايين كثيرة تم تهميش دواخلنا بسبب طغيان الأحداث المروعة، ربما بين الحين والآخر نحتاج إلى فعل رومانتيكي كي نُحدث بعض التوازن، وقد أشرت إلى ذلك في القسم الأخير من الكتاب.

القصد من تسمية "رومانتيك 2011" هو إحداث صدمة لدى القارئ؛ فيبدو كأن في الأمر قصة حب، وهو في الحقيقة مواجهة للذات والحرية والحب الذي تلاشى مع أخبار المجازر، يبدو ذلك جليًّا وفيه شرح فاضح لمأساة السوريين ومسببات الأذى الذي يعيشونه. يشير إلى مواطنين أحياء، إلى جانب أشخاص غابوا أو حتى ماتوا تحت القصف أو تمت تصفيتهم، أو ذبحًا بسكين. يمكنك القول إنه مونولوج متداخل بين الذات والمحيط والبلاد والعالم.

- **لديَّ سؤالٌ مرتبطٌ بالاحتجاجات، والتطرف الذي استخدمه النظام كمدخل لقلب الصورة أمام العالم حسب إشارتك في الكتاب، برأيك لماذا المشهد الإعلامي المعارض لم يفِ غرضه في توضيح الحقائق؟**

كما تلاحظين، كوني أعمل في الإعلام الحقوقيّ تصلني تقارير وأخبار وتسريبات، بعضها يكون صحيحًا وبعضها الآخر يحتاج منَّا لمتابعته وفهمه والتعرف على مصداقيته، ننجح أحيانًا ونفشل في أحايين كثيرة، من جانب آخر مُخلِصًا أقول: إن مَن ساعد على نشوء التطرُّف هو النظام، لا بل أشرف على تشكيل مجموعاتٍ إرهابيَّة هدفها خلق الفوضى وتشتيت الرأي العام لإسباغ صورة مُشوَّهة عن الثورة من جهة، وأيضًا كي تعمل تلك المجموعات على حراسته، تجلّى ذلك من خلال استهداف الثورة واختراقها.

اعتمد النظام هذه الاستراتيجية في خطوةٍ منه لتشويه صورة الاحتجاجات السلمية منذ بدايتها، التي طالبت برحيل رئيس الحكم ونظامه الموروث، النظام الذي يحتل المجتمع منذ أكثر من أربعة عقود عبر القمع والسجون.

كما هو ثابت أن أجهزة الأمن تفرض حالةً من الاحتكار لسلطات القرار، والتحكم بمقدرات البلاد الاقتصاديَّة واحتكار فرص العمل لمن هم ضمن دائرته، إضافة إلى نشر الفساد وسحق الأحزاب والمنظمات والنقابات المدنيَّة، بالتالي فإن المجتمع السوري منذ وصول حافظ الأسد إلى السلطة مصاب بما يمكن تسميته بـ"الفصام الإرادي"؛ إذ نجد الناس يعلنون ولاءهم للنظام عبر أكذوبة الأب القائد للدولة والمجتمع، أما في السر نجد ذات المجتمع يلعن اللحظة التي وصل فيها هكذا مسخ إلى السلطة، خصوصًا أنه قبل موت الدكتاتور المجرم الأكبر، الذي بدوره أعدّ كل الترتيبات كي يرث الحكم من بعده ابنه (أي السفاح الحالي بشار الأسد) هذه هي نتائج توريث الإجرام فقد أوصل البلاد والسوريين إلى هذا الدمار الكبير.

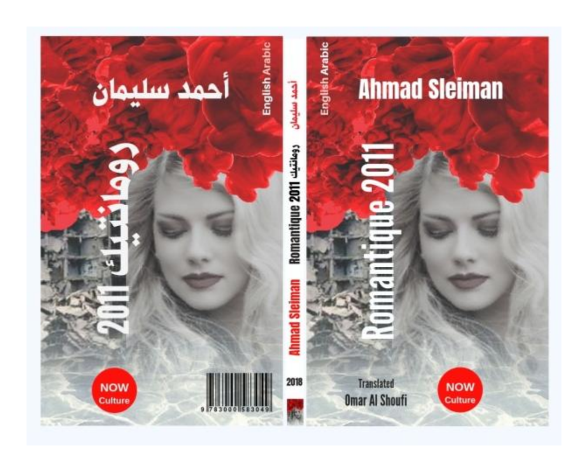
- **تشير إلى الاغتيالات في لبنان بشكل دقيق، كذلك لفت انتباهي إقامتك في بيروت حيث تسميها أنت "ست الدنيا".**

علاقتي بلبنان ليست طارئة، أنا مسكون به! فقد عشت فيه زمنًا طويلًا. وعلى الرغم من أنني وقتها كنت تحت الأنظار

كسائر السوريين واللبنانيين الذين يعانون من سطوة القمع والملاحقة من قبل أجهزة المخابرات، استطعت كسر الخوف من الاعتقال، خصوصًا أنني كنت أعيش في المنطقة الشرقية طيلة سنوات إقامتي. كنت أخصِّص يومي السبت والأحد لزيارة أصدقائي الشعراء والكُتَّاب، أعدّ حوارات أو أجمع محتوى لمجلة أصدرها، لهذا السبب في كل كتاب أنشره تلاحظين حضورًا لبنانيًّا كنوع من الاحتفاء أو الإشارة للمكان الذي يسكنني. لبنان بلدي الثاني، وبيروت ليست ست الدنيا فحسب إنما عالمي الذي تشكَّل ونضج فيه وعيي الثقافي والسياسي، لذلك تجدين قضية الاغتيالات بالنسبة لي كما لو أنني كنت حاضرًا أثناء وقوعها، لأنني بالفعل مسكون ببيروت.

الاغتيالات التي بدأها حافظ الأسد واستمرت عبر وريثه، إذ تمت تصفية قادة وسياسيين في لبنان بدءا بـ كمال جنبلاط، وسمير قصير، وجبران تويني، وجورج حاوي، ورفيق الحريري . شخصيًّا، أركز على بداية الفساد والتخريب وتدخل نظام الحكم في شؤون بلدان الجوار عبر تصدير مجرمين ينفذون تفجيرات تخص أهدافًا سياسيَّةً، وإذا ربطنا الاغتيالات التاريخيَّة ببعضها، سوف نكتشف أنه بدءًا من بعد الاجتياح الإسرائيلي تولّاها تنظيمٌ إيرانيٌّ كان ينشط بتنسيق مع أجهزة المخابرات السورية؛ إذ تم اغتيال المفكّر حسين مروة، ومهدي عامل، وبعد ذلك انقسم عن ذات التنظيم جناح أكثر تطرفًا هو نفسه اختطف المؤرخ ميشال سورا وأعدمه بعد حين، هذا الاغتيال تحديدًا أعتقد بأنه كان بداية لوقوع الدولة اللبنانية ولبنان تحت الوصاية والاحتلال من قبل جيش حافظ الأسد وأجهزته التي راحت تتحكم بمفاصل البلد المجاور.

يستعرض الكتاب أيضًا أسماء نشطاء وكُتَّاب ثوار سوريين وعمال إغاثة أجانب وشخصيات نادت بالسلم المجتمعي، تم خطفهم من قبل ارهابيي داعش، منهم **الأب باولو وفراس الحاج صالح وإسماعيل الحامض وإبراهيم الخليل، كذلك توجد إشارة عن مجموعة توثيق الانتهاكات: رزان زيتونة، وائل حمادة، سميرة الخليل، ناظم الحمادي**. إن من خطفهم هم جناح جهادي في الغوطة، أعني جماعة علوش، والذين بدورهم يجب تصنيفهم أيضًا كحراس للنظام.



- **تكتب عن دونا، كما يلحظ القارئ، بأن الأم لها تأثيرٌ واضحٌ عليك.**

نعم، لم أعِشْ طفولةً عاديَّةً، كنت أجلب الشقاء لوالديَّ، كانا يتعقَّباني كلما وقعتُ بمصيبةٍ سياسيَّةٍ كبرى، ذات مرة زارني والدي إلى حيث كنت مُعتَقَلًا بسبب منشوراتٍ يساريَّةٍ، همس بأذني: "برجاء افعل ما تشاء، اشتمني، ولكن لا تعبث مع النظام، لا أريد أن أخسرك". وضع قبلته على جبيني ثم غادر. حين خرجت من فرع التحقيق العسكري وهو فرع يحتوي على معتقلين من كل الاتجاهات إلى جانب تجار مخدرات ومجرمين وعسس، كان ذلك الفرع يحتوي على زنازين جماعية مساحة كل واحدة لا تتخطى 8 أمتار طولًا ومثلها أو أقل عرضًا. وحين خرجت من فرع

المنطقة اتجهت إلى بيت العائلة، تلك الزيارة كانت الأخيرة، كنت جالسًا إلى قرب والدي ثم انضمت إلينا والدتي قائلة بالتركية: "أخرجناه من فم الأسد يا محمد فهل نستريح قليلًا من لهاثنا خلفه؟" ضحكت بعمق وقبّلت يد أمي ورأس أبي، أجبتهم بهدوء: سأعيش في لبنان.

بالرغم من إنني أكتب عن مشاهد حقيقيَّة بلسان أشخاص أعرفهم، أو عن مشاهد سمعتهم يتحدثون عنها، عبر رسائل صوتية تصلني من أصدقاء يلاحقهم الموت إلى جانب أفراد أسرتي، فإن أمي على وجه الخصوص لها حيز واسع لديَّ، كانت تعيش بمناطق تسيطر عليها مُنظَّمة دينيَّة متشدِّدة إرهابيَّة. وقد تمكنتُ من الهرب مع بعض أفراد أسرتي، لكن المؤسف أنه تم احتجازهم في عفرين مع جميع الهاربين من جحيم الموت الجهادي. أمي عمرها 75 عامًا إلى جانب ما يقارب 100 شخص قضوا جميعهم مدة ثلاثة أيام داخل حافلة بدائية غير مهيأة للاستخدام الصحي. بعد السماح للحافلة بالمغادرة، حيث كان الجميع في وضعٍ صحيّ بائس، وصلت أمي ريف حماة ثم أدخلوها المشفى. بعد ذلك بفترة قصيرة توفيت أمي! لهذه الأسباب وسواها بدا الحيز واضحًا في النص، أمي التي كانت تردد.

تقول دونا: ***"انشغلنا بضعفنا يا بني. يرموننا بالصواريخ يا أحمد، كما لو أننا أهدافٌ عسكريةٌ... هل لأحد أن يشرح لنا مَن أدخل إلى بلدنا مجموعات إرهابية تضم ملتحين لديهم إمكانات جيوش؟"***

أيضًا أشرت في فصل آخر إلى أن (مقتلة السوريين التي نتج عنها ما يقارب المليون إنسان كانت بسبب تواطؤ ذات الدول التي تدّعي مساعدتهم بإسقاط النظام).

- **تبدو المرأة في نصوصك بشخصيَّات متعدِّدة، لدرجة التماهي بين شخوص النص والمرأة التي تعيش بكتاباتك.**

المرأة في "رومانتيك 2011" قَدَرُها أن تكون على نحوٍ مُلتبس، من خلال شخصيَّاتٍ عايشتُها، أو عرفت عن حكايات بعض نساء، بالتالي صورهن متعدِّدة الوجوه، مرة نجدها تعرضت للاغتصاب من قِبَل مجموعات النظام السوري، ومرات نجدها مقطوعة الرأس على أيدي المجموعات الدينيَّة، وأحيانًا نجدها مُعتَقَلة يطلبون إليها التعري أمام شقيقها ليتم تصويرهما بأنهما في وضعيات مخلة كمتلبسين، ومرات كثيرة تبدو المرأة كحديقة متنقلة تعيش في عالمي بمعنى ما يوجد تماهٍ بين الذات والمحيط:

"مأساتكِ يا حبيبتي ليست أعنف من مقتلة شعب يُباد بشكل مُنتظم، لكنها بالطبع مأساةٌ توازي فظاعة من يقرأ رسائل العشق بين جثث المقتولين".

- **بعد انقطاع أسبوع عن الحوار مع سليمان أرسلت إليه سؤالًا: الرواية تشير إلى حبيبة الكاتب التي يبدو أنها "انتحرت" في ظروف لم يحددها النص. فأجاب برسالة قصيرة: "أنا لا أكتب رواية تسجيليَّة" ثم أرسل إلينا بقيَّة الجواب:**

شخصيًّا أشير إلى "المنتحرة" من كوني أتحدث إليها عن قضية شعب وثورة ضد نظام مجرم، مستعرضًا التاريخ الدموي للنظام وصولًا إلى ما اعتبرته وصية انتحار.

(أعاينُ لوحاتِكِ بدقةٍ كبيرةٍ، فهي حمراءُ مُطفأةٌ، كما الدماء التي تُراقُ في بلدي.ليس بوسع أحدٍ فهمُ أمورٍ كثيرةٍ، ثمّةَ ما هو بائنٌ بالطبع، للحق، كنتِ منصفةً بقول كلِّ شيءٍ : القسوة، أكاذيب الساسة، تجار الأديان والقوميات والنخاسة الأميّة.)

(وأنا أُقلّب وصية انتحاركِ، أخذني رشاقةُ الكلام، عمق السرد المترامي بين فكرة رسم تشكيل ورثاء، أقنعتني أغلب ما حملتها اللوحة في رسالة، لم تهملي تفصيلًا صغيرًا بما في ذلك الحرب السريريَّة).

- **لدى تكرار سؤالي، طلبت منه الاسترسال أكثر عن القضية فأجاب:**

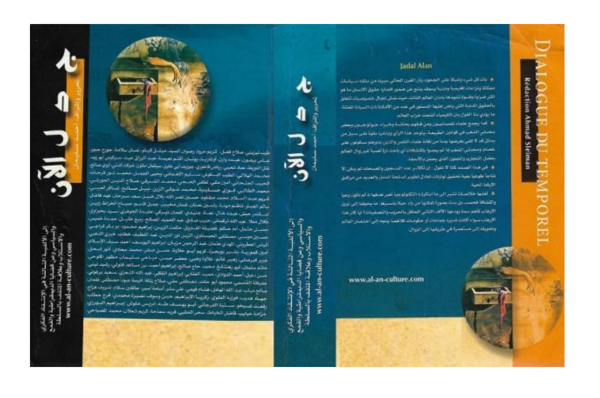
أنا لا أستخدم كاميرا كي أصور فيلمًا، على الرغم من سرد حالات ومشاهد بشكل أدبي هذا ما أسميه تداخلًا بين الذات والمحيط.
فأنا مثل كثير من السوريين الذين افترقوا عن محيطهم الشخصي، نتيجة آرائهم ودعمهم لقضية الديمقراطية وتحرير المجتمع من القبضة البوليسية التي حكمت بلدي أربعين عامًا. كوني ناشطًا قبل الثورة بسنواتٍ طويلةٍ، إلا أنَّه في **مارس 2011** حصلت ثورتان، الأولى في البلاد تطالب برحيل النظام الإرهابي، أما الثورة الثانية حصلت في بيتي!

- **ثورة في بيتك! كيف؟**

هكذا ببساطة تلقيت انتقادًا أوحى لي وقتها البعض كتهديدٍ مُبطَّن، كان الكلام مباشرًا، بعد أن أخضعت المكالمة الصوتية للتحليل بواسطة تقني برمجيات، أشار لي أن المكالمة كانت عبر منفذين صوتيين تأكدت حينها بأن الخط مُراقَب، فقد كان الكلام واضحًا وصريحًا، يتناول أنشطتي وآرائي ممَّا أدى إلى انفصالي عن زوجتي بسبب معارضتي وكتابة تصريحات للشبكات الحقوقية.
هناك من طلب مني تغيير آرائي من الأحداث في بلدي، يريدون مني جعل النظام "حمامة سلام " أومظلومًا من قبل 24 مليون سوري، إضافة إلى إنهم طلبوا منِّي التوقُّف عمَّا أنشره في موقع نشطاء الرأي، وقد تم اختراقه عشرات المرات، ونشروا عليه رسالةً تهدِّد بمصيرٍ مؤلم. مع العلم أن هذا الموقع تأسس منذ ما يزيد عن 13 عامًا، فهو حتى عام 2011 كان مرجعًا لشبكات حقوقية حيث أنشر تلخيصًا للمحتوى الخبري، والأحداث القمعية والاعتقالات، وفضح جرائم النظام السوري.

- **ماذا بقي من الحُب؟**

أنت تسألين عن أعوام سبعة مضت، نحن الآن في يناير 2018، أعتقد أنه لا يمكننا الحديث على نحو كبير عن حبٍّ مضى، يمكنك القول إنه توجد آثاره الموجعة، الإشارة إليه هنا لا تعني استجداءً أو ندمًا أو تشفِّيًا من طرفٍ ضد آخر، الأمر بالنسبة لي بات كطيفٍ متداخلٍ مع بداية العلاقة وبراءتها، الحبيبة هنا لوحة في البعيد ليست في الحاضر. مثلًا كان الحديث عنها كفنانةٍ تشكيليَّةٍ وكنت أعيش كل لحظاتها المؤلمة بالنسبة لها ولي بآنٍ معًا، فهي تعاني من وضعٍ صحيّ يُفقِدُها الوعي أحيانًا لأيام.



- **نعم لاحظنا بأنك كنت تحتفي بها، تكتب في نصوصك بأنكما تتشاركان أحيانًا بفكرة رسم أو أنك تضع لونًا وهي تغيره إلى لون آخر.**

بالضبط، يحدث أحيانًا أن أكون إلى جانبها لحظات إعداد ملامح لوحة، للدقة أكثر، فهي تعيش صراع مرضي مزمن ، على الرغم من انتكاساتها الصحية ، إلا انها قوية النباهة، تستحضر لحظات غيبوبتها

وتسألني عن بعض المعلومات حرصًا منها كي تتأكد بأنها استفاقت ومستعدة للرسم. فقد رسمت لوحات فنية بأوقات عصيبة، تحديدًا عند الاستفاقة من غيبوبتها، كانت تطلب مني إحضار المرسم والألوان، ذلك أنني كنت إلى جانبها بكل الأوقات التي يسمحون لي بزيارتها.

- **يسألني سليمان (هل سبق وشارك أحدٌ حبيبتَه برسم لوحة ؟ أو حتى بتحضير معرضٍ تشكيليّ وهي بالمشفى مثلًا ؟) ثم يتابع :**

كان لذلك وقع مهم في عالمي، شيء جميل وممتع بالنسبة لي، على الرغم من صعوبة الموقف على اعتبار أن المكان هو مشفى للأمراض العصبية، فإننا وقتها كنا سعداء، هي ترسم وأنا أكتب. فهي ليست سياسيَّةً، كنت أساعدها كمن يهتم بحديقة، هذه طبيعتي، وأيضًا من موقعي ككاتب يتذوَّق الفن.

- **كما أفهم على الرغم من أنكما نقيضان فإن ما يجمعكما حبٌّ، وقصصٌ وانكساراتٌ ومتابعة في عياداتٍ ومشافٍ.**

ملاحظتك في مكانها الصحيح ، وإن كنت حزينًا على خواتيم علاقتنا، بالنظر إلى حالتها الصحية، لكن ذلك لا يغير من مواقفي وآرائي، كلاهما شأن مختلف، حاولت أن أدعمها ما بوسعي ونجحت كثيرًا، بالنظر إلى ذلك ولأسباب مماثلة لمستُ رهبة بائنة عليها، فهي فنانة تشكيلية، ولا تهتم لكل أخبار العالم، لديها صداع مزمن، لا تقوى إلا على الرسم، حتى مواضيعها في الرسم عن الطبيعة والإنسان المجرد، لكن رؤيتها لأنشطتي ربما كان لذلك أثر سلبي. أعلم أن أمرًا كهذا موجع لكن مواقفي هذه تستند على مبدأ أخلاقي وإنسانيّ داعمٍ لقضية التحرُّر والديمقراطيَّة في بلدي، نشاطي متأصِّل بنشأتي وثقافتي السياسية وقد مررت بتجربةٍ يساريةٍ قبل مغادرتي سوريا في العام 1990. حاولت الفصل بين الموقف العام والشأن الشخصي. لكن كما أسلفت أنشطتي في الإعلام الحقوقي دفعت باتجاه آخر، بدا بالنسبة إليها مُخيفًا، خصوصًا قبل الثورة بعام ونصف ، أصدرت فيديوهات تحتوي على صور المعتقلين على خلفية مواقفهم السياسية وآرائهم من النظام، في السياسة الداخلية والخارجية، كان لهذه الأنشطة المعلنة في ذلك الوقت كما لو أنه تأليب الرأي العالم للمطالبة بأبعد من الحريات، خصوصًا في الأيام الأولى من المظاهرات، إذ كنت أشرف على جروب إعلامي، نصدر بمعدل كل عشرين ساعة تقريرًا عن جرائم النظام. أمر كهذا ربما جعلها تعيش عالمين؛ الأول خوفها على أهلها، والثاني بيتها الذي تعتقده بات غرفة عمليات هدفه قلب النظام.

حاولت إنقاذ ما هدمته السياسة والمتغيرات الدولية، تواصلت هاتفيًّا مع المحيط والعائلة (أفراد أسرتها: الأم والأخت والأخ) بهدف عدم تدمير إنسانة سيكون مصيرها بعد الانفصال مجهولًا، إلا إنني لمست قطعًا من كان يخطط لقصم ظهري. أيضًا هناك أطراف من خارج دائرة عائلتها تضغط في هذا الاتجاه، وهنا بألمانيا استطعت رصد مكالمات هاتفية وتدخلات مشبوهة، تأكدت وقتها أنني مستهدف ويريدون ضربي عبر تفكيك علاقتي بزوجتي.

- **لدي سؤال مرتبط بقضية طل الملوحي ،**

المؤسف في قضية طل الملوحي أن الحكم تزامن بفترة مفصلية، أي قبل الثورة بأيام، ونظرًا إلى تداخلاتها الكثيرة كما هو معروف، تم اعتقالها في ديسمبر 2009 على الرغم من أن طل الملوحي أنهت حكمها عمليًّا في 2014/12/26 وعلى الرغم من بدء قضيتها قبل الثورة بعام

ونصف، وتم الحكم عليها بخمسة أعوام، وعلى الرغم من نفاد فترة حكمها، لا زال النظام يعتقلها. هي الآن معتقلة بلا تهمة، إلى جانب آلاف المعتقلين بسبب المظاهرات السلمية، أو بسبب وجود صلة قرابة بنشطاء أو ثائرين، سبق وأعددت تحقيقًا أسميته طل الملوحي أسيرة حرب متشابكة المصالح.
فالمتغيرات الدولية كانت في بداية 2011 ، خصوصا شهر مارس كان مفصليًّا بالنسبة للسوريين ، وعلى خلاف الأعوام السابقة ، فقد تمخض عنه شكل جديد من المقاومة السلمية التي ازدهرت قبل عام في الشارع السوري ، من بينها كانت قضية طل الملوحي ، الى جانب أنشطة كثيرة كنت أنجزها بالتنسيق مع خبراء وحقوقيين ومُنظَّمات مدنيَّة، من أجل إطلاق سراح نشطاء الديمقراطية في سوريا (هم الآن طلقاء وبات أغلبهم ينشطون في صفوف المعارضة السياسية التي تطالب برحيل النظام)لا اخفيك سرا اذا قلت بأن حملة الدفاع عن طل الملوحي التي استمرت عامًا كاملًا، استنفر خلاله أغلب السوريين والشعوب الصديقة ومن بينهم برلمانيون وشخصيات دولية. هذه الأنشطة مجتمعة، كانت كما أراها أول تحالف مدني بين السوريين، بل كانت أقرب إلى مقدمات الثورة الديمقراطية . فلو كانت طل الملوحي مجرمة حرب ربما اطلق النظام سراحها ، هكذا عودنا النظام فهو عكس مسيرة الكون ، يدعم اعداء الحياة ويسجن الضعفاء السلميين.

- **ذكرت لي مرة عن استدعاءاتٍ وملاحقةٍ ثم احتجاز، وحديث عن محاولة استهداف شاعر لبناني نصحك بمغادرة بيروت.**

في بيروت تم احتجازي من قِبَل المخابرات مرات، كانت إحداها مرتبطةً بالسؤال عن شاعر ومثقف لبناني أحبَّ كتاباته وله مكانة خاصة عندي. أبلغته وقتها بأنهم يضايقونني وأنهم سألوني عنه على إثر مقال كتبه عن شجار في الملعب البلدي، حيث ذكر فيه هتافات سخرت من الوجود السوري والآثار الكارثية للبنان. كلام مثل هذا كان في ذلك الوقت، حيث السطوة المخابراتية السورية، يمثل جرأة غير مسبوقة، ربما تؤدي إلى إنهاء حياة كاتب بعبوة كما حصل مع الصحافيين: سمير قصير وجبران تويني.
أذكر أنه وحرصًا منه على حياتي نصحني بمغادرة بيروت عند توفر البديل الآمن. في الفترة المفصليَّة تلك تم احتجازي وتمت مصادرة جواز سفري لمدة أسبوع قبل سفري إلى فرنسا، من أجل حضور مهرجان شعري، حين عدت من فرنسا طلبوا مني مراجعة دمشق (لحسن الحظ أنني وأثناء وجودي في "مارسيه" تلقيت خبر إلغاء المهرجان، بالتالي اختصرت زيارتي وعدت إلى بيروت. ما يعني أنني لم ألتقِ أحدًا) فكانت زيارتي الأخيرة لبيروت والتي اقتصرت على تصفية أموري الإدارية والتخلص من وثائق غير مفيد بقاؤها هناك. ثم أبلغني هاتف أنني مُلاحَق ويسألون عني ، حينها استعجلت الأمور وغادرت بيروت لكنها لم تغادرني.
بيروت الحلوة القاسية الرحيمة الممتلئة بالضجيج المحبب بالنسبة لي، الأروقة الثقافية والشعرية والفكرية، بيروت كانت بالنسبة لي أكثر من مكان أو مدينة، ربما توازي حلم عودتي إلى سورية متحررة من الطغيان والإرهاب المحلي والدولي.
بيروت لا زالت تستقر بمخيلتي، من يدري ربما مستقبلًا في حال كانت الظروف متاحة، أي حين يستعيد لبنان سيادته الكاملة واستقراره الأمني، وقتها سأعيش في بيروت واستمر بعشقي لبحرها الممتد إلى بحر سوريا.

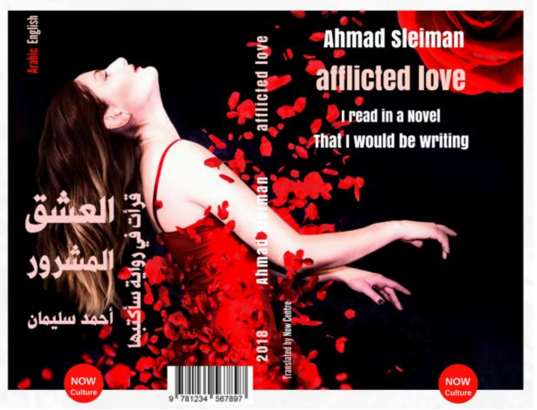
- **ماذا عن عائدات الكتب التي صدرت عن مركز الآن؟**

لليوم لم أتلقَّ أي عائدات من كل أنشطتي، وبقيت الكتب في بيروت لدى مؤسسات ودور نشر تقوم بتوزيعها بشكل جيِّد كما وردني من مراقبين لحركة النشر. كلام كهذا قد يطرح سؤالًا للمؤسسات التي تمتنع من الإفصاح عن مصير الكتب المودعة لديها، كما أعلم أنها استفادت من عائدات الكتب بشكل جيد.

بالتالي إن حصيلة ما تركته في بيروت من كتب تقدَّر قيمته بسبعة عشر ألف دولار وهناك من استغل غيابي وراح يطبع بعض كتب "مركز الآن". من جهتي أعتبر النسخ الموجودة في السوق مقرصنة وغير شرعية، سوف تتم ملاحقة من قام بهذه الجريمة النشرية.

ذلك إن الموزع في بعض الأحيان هو نفسه الجهة التي تطبع، فهو يعرف بأنني خارج لبنان لذلك بالنسبة إليه الحقوق ستكون مباحة وبلا مساءلة، أتحدث مثلًا عن مجلد "جدل الآن" الذي لا أملك منه إلا نسخة وحيدة، ومجلدات أخريات.

ربما خطفتني شؤون بلدي والأحداث القاسية والمتسارعة عن المتابعة والتواصل أو السؤال، سوف أجد مخرجًا لفهم مصير الكتب في وقت لاحق.



- **تبدو لي ابتعدت عن دعمك لنشر كُتَّاب الهوامش، الشعراء والكتاب والمشاغبين كما يحلو لك تسميتهم.**

كنت مشغولًا لسنوات بطرح فكرة جديدة في عالم الكتب، لتسهيل التواصل بين الكاتب والمتلقِّي، كانت مغامرة محفوفة بالقلق والإرهاق واستنزافًا لطاقتي. ثم اصطدمت بمشكلة التوزيع وعدم التزام بعض المؤسَّسات بإعادة مستحقَّات الكتب المطبوعة، إضافةً إلى أنني كنت وحيدًا ولست مؤسَّسةً متكاملةً، ذلك بالنسبة لي كان جهدًا إضافيًّا على حساب وقتي وعملي وحياتي.

مع أنه هناك من عرض عليَّ راتبًا شهريًّا لتفعيل إحدى المؤسَّسات المتوقِّفة، لكنني بالمقابل فهمت منهم بأنني سأكون مقيدًا فاعتذرت. فقد تكررت عروض مشابهة عند اندلاع الثورة، لكن في هذه المرة من قبل مؤسَّسات الثورة. أيضًا اعتذرت عن قبول ذلك، وطلبت إليهم تخصيص الراتب لمن هم أكثر عوزًا مني. مع أنني كنت وقتها بلا عمل.

- **لماذا هذا الموقف من مؤسَّسات فتية ؟ أين المشكلة إذا تم توظيف خبرتك في هذه المؤسسات؟**

أنا أنظر إلى الأمور بعين الواقع، في الحالة السورية ونتيجة إلى فقر التجربة، تحولت أغلب المؤسسات إلى دكاكين عائلية، محتلة بالمحسوبيات، مؤسسات تدار بهذه الطريقة تحتاج إلى تحرير حقيقي من هكذا أداء، يهيمن عليها من لا خبرة لديهم بالعمل الجمعياتي والمؤسَّساتي، لا بل بعضهم يخلط بين تركيبته العقائدية والدينية والسياسية، هذه العقلية تعود بنا إلى مجتمعات بدائيَّة حيث كان العالم كله أربعين خيمة وقطيعًا، غير آبهين للتكنولوجيا والحداثة والمستقبل.

في هذه الأجواء يكون التمويل نقمة، لأنه يحد من الحرية، خصوصًا في حال

كأحوال بلدنا، رأيت ما يحدث للكثيرين الذين يديرون مؤسسات مموّلة، كانت لديَّ ملاحظات على عدم احترافيتهم الإعلامية، على الرغم من أنهم كانوا قبلًا ينشطون بشكل أفضل. حيث كلٌّ من يسعى للقيام بتجربة متميزة تتكاثر عليه الأنياب، ثمة مَن هم متخصصون بمحاصرة المشاريع الجادة.

- **اعود للسؤال عن تمويل كتبك والمركز النشري الذي تستعد لإطلاقه ، وهل سيكون ذلك امتداد لما بدأته في بيروت ؟**

لديّ تجربة اغتراب طويلة كما أسلفت، تعلمت من خلالها بأن أي تمويل سيحد من حرية الكاتب، شخصيًا عشت ولا زلت حتى هذه اللحظة مستقلًا، لم أتلقَّ أيَّ تمويل من أحد. قبل وصولي إلى ألمانيا عشت في بيروت 13عامًا، إضافة إلى أنني أقيم في ألمانيا منذ 13 عامًا؛ أي أنني عشت أكثر من نصف عمري في المنفى. كانت تجربتي الأولى في بيروت متميزة، تعلمت فيها القدرة على مواجهة المتاعب، إضافة إلى أنني عشت فيها أبرز مراحل حياتي وأكثرها إنتاجًا ونشرًا فقد أصدرت كتبًا لزملاء ومجلة، وصولًا إلى إطلاق "مركز الآن" قبل أن يتم استهدافي أمنيًّا من قبل أجهزة المخابرات، طيلة إقامتي في بيروت كنت أعمل في ظروف شاقة، تدرجت بجميع الأعمال في شركات التأثيث، وأيضًا اشتغلت في توزيع الكتب، وتصميم الإعلانات التجارية والإخراج والغرافيك، كنت ولا زلت أموّل نفسي من تعبي الخاص.
ربطا بالسؤال ، نعم أفكر بإعادة إحياء ما بدأته في بيروت قبل عشرين عامًا، شكل مؤسساتي يعنى بالثقافة ونشر الكتاب المطبوع والإلكترونيّ. تواصلت مع مراكز متخصصة بتوزيع الكتاب، كذلك تواصلت مع شركات إنتاج طباعي وقدَّمت لي تسهيلات ضريبية معتدلة وقد دفعت كتبي الثلاثة **"العشق المشرور" و"غومل 95" و"رومانتيك 2011"** إلى الطبع تباعًا بدءًا من مطلع العام 2018 كتجربة أولى.
صدرت جميعها بلغتين (بالتنسيق مع شركة أمريكية تابعة لأمازون) في كتاب واحد من أجل سهولة الحصول عليه من قبل القارئ العربي المقيم في الغرب وللقارئ الغربي معًا، ذلك أن المكتبات هنا تعرض الكتب باللغات العالمية الأساسية.

- **برأيك هل سيكون لهذه التجربة مكان في زمن يتراجع فيه الكتاب ؟ وماهي ميزة النشر في مركز الآن**

لسنا رقما جديدا ، بدورنا نتابع من حيث توقف المركز لأسباب أمنية . أما الحديث عن " التميز " حقيقة لا جواب عندي ، سوى اننا نحاول تقديم تجربة حديثة يحتاجها الكاتب العربي . خصوصا ان المركز يتكفل بإصدار الكتاب ورقيا ، نشره على المنصات الرقمية أبرزها أمازون ، وإعادة نشر الكتاب عبر شريك أمريكي في الولايات المتحدة ، بمعنى آخر ستكون في الأسواق طبعتان ، أوروبية وأمريكية (مؤسسة نشر) مع الحفاظ عل كافة الحقوق للمؤلف ، كذلك يكون الحساب النشري موصول مع حساب الكاتب ، و يستطيع التعرف على حركة الشراء . يتحصل المركز لقاء ذلك على نسبة ضئيلة من المبيع لتغطية نفقات المتابعة .

- **هل توجد قيود أو مواصفات للكتب التي ينشرها المركز ؟**

توجد قواعد أساسية، نحن ملتزمون بقوانين النشر الأوروبية ، التي تحترم المجتمعات الإفتراضية والواقعية. بالأساس مركزنا يدعم قضايا التحرر والديمقراطية .



من أين يبدأ الحل ؟ وما هي العقبات ؟

- **سأفتح معك حديث عن الحرب القائمة في سوريا ، تشير الى حزب قومي يتسلح بشعارات ديمقراطية وتقول عنه بأنه " غدر بالسوريين والأكراد معا "**

قبل اي شيء ، أود توضيح أمر هام ، انا افصل بين الفئة السياسية التي تتحدر من كتلة سكانية معينة، وبين مثقفي وشعراء وكتاب ذات الفئة. الاكراد بالنسبة لي هم مكون اساسي في البلاد ، شعب حر، فقد خرج منهم : حامد بدرخان وجكر خوين وسليم بركات ، اما سياسيهم واحزابهم يبدون وكأنهم لا يجتمعون على طاولة حوار من أجل إصدار بيان صريح يوضح موقفهم من الوطن السوري (كيف ينظرون اليه؟ هل هو وطن نهائي لهم كما لكل السوريين ، وطن يتقاسمون من خلاله احلام امة مدنية للجميع ، أم أن في الأمر سياق غير مُعلن ، مرتبط بتحالفات خارجية يتوقعون من خلالها التعامل معهم كشعب مدلل ؟؟) ـ هنا اوجه إليهم نقدا وليس اتهام ـ وذلك لا ينطبق بالطبع على ابرز سياسيهم الأكثر عمقا ، اقصد مشعل تمو ، لذلك قتلوه .

انا دائما اشير الى فئة اعتاشت وتربت بأكناف نظام حافظ الأسد، أشرت إليهم بكل وضوح، فهم استغلوا طيبة الأكراد والسوريين، إضافة إلى أنهم خطفوا حلم انتظرناه نحن السوريون أكثر من أربعين عامًا، الواقع الآن مؤسف ، خربوا علينا فرصة تأسيس الدولة الديمقراطية العادلة التي تجمع مواطني سوريا، ما يعني أن جيل بأكمله أصيب في خيبة التقويض لذلك الحلم.

بكل اسف ، تداخل لدى العامة مفهوم التطرف، وقد عزز هذ الأمر منذ البدء النظام ، التطرف كما أراه، ومن ساعد على تأسيسه وترسيخه لضرب السوريين وتشويه صورة المعارضين، أشرت إلى ذلك بصورة مكثفة في كتابي **"رومانتيك 2011"** (أطلق ذات النظام مِن سجونه مَن هم بالفعل أتقنوا الدور المطلوب منهم، بتزعم منظمات متطرفة تنفذ مسرحيات دينية، إلى جانب دعم ذات النظام لحزب قومي ثم طلب إليه كي يبطش المتظاهرين مقابل أن يترك له إدارة جزء من مناطق في الشمال السوري).

اليوم ذات الفئة تريد إقناع السوريين بأنَّهم معنيُّون بمكافحة الإرهاب، في ذات الوقت، هم متورِّطون بجرائم حرب، فقد ساندوا النظام السوري وساهموا بقمع المظاهرات ومارسوا أبشع الجرائم، إضافة إلى حملات اقتلاع السوريين من قراهم ومناطقهم في الشمال، بالتالي هؤلاء عملوا على نهج النظام، هذا الأخير عمد على محاصرة السكان وقصفهم، ثم عمل على تجويعهم من أجل إرغامهم على ترك بيوتهم والهرب، ليأتي فيما بعد سكان من بلدات تابعة وموالية للنظام بترتيب من حزب إيراني يحتل لبنان (ما يُسمى بـ حزب الله)ويمارس إرهابه تحت مسمًّى طائفيّ. كذلك تلاعبوا بالتوزيع الديمغرافي لبلدنا، خدمات للنظام السوري وأعوانه، بدورهم نشروا الفوضى والعصبيات الطائفية، إضافة إلى دعم مجموعات إرهابية مختلفة، مهد ذلك لظهور جماعات دينية تنشط بأفغانستان.

سيدتي، كما تعلمين، ثابتٌ للعالم أيضًا، كيف استمال النظام تلك الفئة "القومية الكردية" لأنه على ثقة بتربيته السياسية والعسكرية،

وقد أوكل إليهم تحييد "الأكراد" من مشاركتهم في الثورة، بالتالي راحت هذه الفئة التي تتمثل بحزب (متحدر من ديار بكر في تركيا) باتجاه بطش السوريين والأكراد الذين انحازوا للثورة. فقد شرَّدوا تجمُّعاتٍ سكانيَّةً من مدنها وبلداتها، ثم جلبوا مكانهم أنصارًا ينتمون للحزب الكردي ذاته من مدن سورية أخرى. إضافةً إلى استقدام مجموعاتٍ عسكريَّةٍ من فرعها التركي، أي الذين انسحبوا من ديار بكر إلى العراق، تحت بند معاهدة سلام بينهم وبين تركيا. هؤلاء أنفسهم دخلوا سوريا وعددهم بالآلاف، حيث أماكن نفوذهم الآن، ثم راحوا يمارسون حروبًا بالوكالة عن النظام الإرهابي ذاته المدعوم من روسيا وإيران.
لقد استفادت من هذا المشهد أطرافٌ محليَّةٌ ودوليَّةٌ تدعم الإثنيات وراحت تستميل ذات القومية التي بدورها صدَّقت اللعبة وأصبحت جزءًا من تاريخ تمَّت كتابته بأقلام تفبرك وجودهم كأصحاب لنصف البلاد السورية.
إن منطقًا كهذا على الرغم من أنه كذب سافر لا يصدقه حتى الأكراد السوريون أنفسهم، فإن ذلك خلق ما يبرر وجود بعض الدول كقوة تدَّعي حماية ما يمكننا تسميته مستعمرات تابعة لها سكانها مدللون من الحزب الإرهابي ذاته الذي استماله النظام السوري وهيَّأ له كلَّ مقومات السيطرة والنفوذ.
بالتالي أثار النظام عبر أذرعه المختفية احترابًا طائفيًّا إلى جانب تعزيز دور الحزب القومي ذاته الذي يدَّعي "الأمة الديمقراطية" مع أنه بالأساس مجرد عنوان يتلطى خلفه من هم يساندون النظام، في حربه ضد الثورة السورية التي قامت من أجل دولة مدنية ديمقراطية.
بدورهم هذا استثمروا الحالة؛ إذ فرضوا سلطات أمر واقع، ثم تطور الأمر عند بعضٍ آخر من الأكراد أنفسهم، وأعلنوا عن صيحات تدفع إلى التقسيم. في خطوةٍ خطيرةٍ مؤسفةٍ جعلت سوريا مسرحًا للتخاطب الدولي، وما يحصل في عفرين الآن حيث تدخَّل الجيش التركي، كان بسبب هذا الحزب الذي يستخدم بلدنا كقاعدة عسكرية لضرب تركيا.

- **تشير دائمًا ، حتى في موقع "نشطاء الرأي" إلى "العمالة المفهومية " وتنسبها إلى من تسميهم عسكر أوجلان أو دواعش الكرد، وتعتبرهم مجرد موظفين يتبادلون النصر الموسمي وفق مقتضيات سير الحرب المتداخلة الأطراف في سوريا.**

نعم كتبتُ ذات مرة عن العمالة المفهوميَّة، أعنى بها نقاط التقاء بين المشاريع غير الوطنية كتلك التي تخندقت، بدورها الفظيع ،بدورها المشبوه هذا عملت على ما هو أبشع من جرائم النظام، ربما كانت جميع تلك المشاريع موصولةً بخط لاسلكي وغرفة عمليات مُشتَرَكة.
ان داعش، منذ انقسامها عن النصرة واعلانها دولة خرافية، هذا التنظيم ومن هم على شاكلته ، ليسوا سوى شركات دينية يتم توظيفها لضرب الناس عبر معتقداتهم ، وعلى نفس النسق ، تقوم الدول المشاركة بتوزيع الاقتتال أي التي تعمل على تصفية حساباتها مع خصومها عبر استخدام الأرض السورية . وقد وجدت الولايات المتحدة الامريكية مصلحة لها بتسخير حزب أوجلان و تعويمه ، تجلى ذلك من خلال استخدام الشمال السوري كقاعدة لضرب الداخل التركي ، الدور يؤديه هذا الحزب وجناحه العسكري، تحت مسمى الأمة الديمقراطية تعرفه مسبقا أمريكا، بالتالي هي مطمئنة للشرخ الذي سينشأ في سوريا ، لهذا السبب اسندت اليهم مهمة المشاركة بمحاربة داعش .

داعش اصلا لا تحتاج لمن يحاربها كي تتفكك وتزول ، نحن نعلم بأن تجفيف منابع تمويل وإمداد داعش ، سيؤدي الى زوالها.
لكن اللاعبين المحليين والدوليين الكبار لديهم أهداف متحركة ، يبرزون داعش وقت يريدون ، كذلك الرغبة الامريكية التي ساهمت على نحو كبير بإحداث شرخ بين السوريين والأكراد ، فكان المدخل من خلال تعزيز قدرات حزب اوجلان التركي تحت مسمى محاربة داعش .
واليوم تركوا أنصار هذا الحزب لمصير غير واضح ، فما يحصل في عفرين مثلا هو نتيجة تبعية أنصار ذات الحزب ، وتأدية دورهم كأي مرتزقة ، فهم الآن يستخدمون الأكراد مثل دروع بشرية ،صورة مطابقة عن طرائق داعش بإدارة حروب واستغلال مدنيي المناطق التي يحتلونها .

- **في سياق حديثك أيضا ، من موقعك ككاتب يعنى في قضايا الديمقراطية ، كيف تنظر إلى التدخل العسكري التركي في سوريا ؟**

كنت ولا زلت أقول هذه الحرب ليست حربنا، ولا تعنينا، ولست من أنصار الحروب، بالأساس لم يكن أي سوري مشارك بقرار الحرب ،فمن حدد ملامح الفوضى اصحاب نظرية (الأسد أو نحرق البلد) حقيقة هم أحرقوا البلد وأغلب من فيها ،و استقدموا كل إرهابيي العالم كي يغرقوا الرأي العام العالمي بجزيئات مثل مكافحة الإرهاب .ما أراه بالتدخل التركي هو نتيجة تأسيس النظام لتحالفات هدفها كما أسلفت الفوضى ، بالتالي كان التدخل التركي. إن إشكالية الحرب على "بي كي كي" جاءت من خصم له وعلى أرضنا، على الرغم من أن هذا الخصم استقبل 3 ونصف مليون سوري على أرضه، ولكن هذا لا يبرر تدخله العسكري في بلدي، مع أخذ العلم إن مليشيا "بي كي كي" التي تحتل أراضي سورية وتهجِّر السوريين منها وتمنع غير الأكراد من الدخول إليها، هؤلاء قوى احتلال تمارس سطوتها وإجرامها تحت عناوين ديمقراطية مزيفة. انظر مثلًا في مدينتي الرقة ومنبج كانوا يعتبرون جميع سكان هاتين المدينتين دواعش بلا تمييز، ما رأيكم؟ هل يوجد عقل بشري يتحمل هذا الخلط الإجرامي الذي نتج عنه مقتل عشرات الآلاف من المدنيين؟!
شخصيًا كتبت مرارًا إن داعش مجرد عنوان عريض، كل مَن له مصلحة بخلط الأوراق يعلن حربه عليها، على النسق نفسه ما ارتكبته مليشيات حزب الله اللبناني في سوريا من مجازر داعمة لذات النظام أصل المشكلة، بالتالي الطرفان لم يقدما للسوريين سوى المصائب. كلاهما أصحاب مشاريع لا تخص شعبنا ولا وطننا، دورهما الإجرامي كان نقمة على السوريين عامةً بما فيهم الأكراد أنفسهم وقبل ذلك كانا مساهمين بنشوء عصبيَّاتٍ دينيَّةٍ وأخرى قوميَّة. هذه الحالة كانت بمثابة حبل نجاة للسفاح بشار الأسد.

بين قوسين (إشارات حول حزب كردي يرعاه الأسد)

حزب بي كي كي يعلن في أدبياته بأنه يسعى لأمة ديمقراطية ، لكنه لم يشرح للعالم كيف تقوم هذه الأمة وزعيمها كان الضيف المدل لحافظ أسد ، لم يشرح أيضا كيف يكون لهذا الحزب معسكرات تدريب في سهل البقاع اللبناني بإشراف ضباط من مخابرات عنجر، منذ أن كان غازي كنعان برتبة مقدم الى لحظة انتهاء مهامه .أيضا لم يقنع العالم ، كيف قامت أمتهم" الديمقراطية" حين انسحب مقاتليه من جبال قنديل الى اربيل، بموجب معاهدة سلام مع تركيا ، ثم لنجدهم يدخلون بالآلاف إلى الشمال السوري، رأيناهم ينتشرون فيما بعد في المدن والبلدات التي تسلموها من مخابرات بشار أسد ثم يصبحون بتصرف النظام و يقمعون المظاهرات منذ ايامها الأولى . أيضا لم يقنعنا هذا الحزب كيف يشرع لنفسه تأسيس محميات خاصة به ، تلك المحميات يسميها "إدارة ذاتية "فيما هو يمارس أبشع الجرائم ،يفرض التجنيد الإجباري على القاصرين والشباب في المناطق السورية التي يحتلها (وهو أصلا ليس حزب سوري ،

وقيادته من أكراد تركيا) يستخدم نفوذه منطلقا من تلك المناطق كقاعدة عسكرية لضرب المدن التركية. ثم ينتشر أنصار هذا الحزب بين المدنيين، وعند وقوع ضحايا في هذه الحرب القذرة ، يخرج على صفحات التواصل الإجتماعي بعض أنصاره كي يقولوا للعالم بأن المناطق المدنية تتعرض لهجوم عسكري من قبل المحتل التركي ، ثم يطلبون التضامن معهم ؟!

أود القول بأن التضامن يكون مشروعا للمدنيين ، فأنا شخصيا أدفع نحو عزل المدنيين عن حبائل السياسيين الذين يحاولون الخلط ويسعون للتسول موقف دولي .

طبعا هؤلاء يعتقدون بأن العالم أعمى ، وان هذا الوطن مستباح لهم ، ساكنيه مجرد دراويش ،اعتقادا منهم بأنه سهل جدا خلط الأوراق بين التضامن مع المدن التي تسببوا بدمارها و استقدموا إليها الجيش التركي . وبين سعيهم لتبرير قتالهم تحت عنوان ضمني يبدون من خلاله كأبطال ناطقين بإسم الأكراد في بلد ليس بلدهم.

ان هذه الأفعال والسلوكيات استخدمها داعش بالمناطق التي احتلها ، حزب بي كي كي يعيد نفس المسرحية ولكن تحت عنوان جديد . ببساطة إن ما يحصل اليوم ، نتائج الحرب، لا تعني السوريين ولا تعني الأكراد ولا تعني بلدنا ، انما تعزز مظلومية المجرمين الذين يستخدمون الجميع لتمرير مشاريعهم .بالتالي تم زج الأكراد السوريين من قبل هذا الحزب بمأزق خطير،واتمنى ان يخرجوا منه بأقل ما أمكن من خسائر .

ان وجود الأكراد السوريين له دور مؤثر وفاعل ، سنعمل معا من أجل استعادة السلطة المغتصبة، وإدارة شؤون البلاد وفق تقاليد ديمقراطية نزيهة . تحترم الدم السوري .

- **هل تعني تبادل أدوار وإجرام واحد؟**

نعم، داعش ومشتقَّاتها، النصرة وكل المتطرفين هم كما قلت لك شركات عابرة على جثث الشعوب، نفس الأداء تقوم به مجموعات أوجلان، أليس النظام مَن سلّم المناطق التي يحكمها الآن؟ ألم يكن الهدف من ذلك استقدام هؤلاء كما تم استقدام الجهاديين قبلًا، والعصابات الإيرانية من أجل ضرب الثورة؟ بالتالي هل جماعة أوجلان حمائم سلام؟ ألم يبطشون قبلًا بالأكراد والسوريين معًا ؟ ألم يغتالوا المناضل مشعل تمو...؟ كان ذلك أيام المظاهرات السلمية، وقبل أن يُفلِتُ النظامُ دواعشَه من السجون.

لا يوجد سوري متوازن يقبل بوجود أي مجموعة عسكرية أو جهادية أو ميلشيات طائفية أو سواها ، ولا اية جيوش تحتل بلدنا ، كتلك التي تعمل على تأهيل النظام ورئيسه المجرم، كتلك التي تعمل على تأهيل النظام ورئيسه المجرم .لا بل حتى فكرة النضال المشبوه او الجهاد المأجور أيًّا كان مصدره لا مكان له في بلدنا، ينطبق هذا الكلام، على الذين وصلوا من ديار بكر التركية كي يستخدموا سوريا قاعدة عسكرية. كذلك لا مصلحة لنا بحروب تركيا ضد جماعة أوجلان. تركيا اليوم أيضًا متورطة تحت مسمًّى بأنها تريد حماية أمنها وملاحقة جماعة أوجلان الإرهابية. لا مصلحة لنا بوجود عصابات محلية أو دولية، إيرانية، خليجية، روسية، أو حتى الناطقة باسم الآلهة والأوثان.

- **بالنظر للتداخلات العسكرية المؤسفة في سوريا ، برأيك من أين يبدأ الحل ؟**

المشهد متداخل ، لكننا ككتاب سوريين نفهم وبعمق جذور المشكلة ، فهي مرتبطة بالاستبداد الذي حكم سوريا طيلة أربعون عام ، خلالها تم التعاطي مع المجتمع كما لو انه من ممتلكات رئيس وعائلته، ثم انتشر الفساد، وهناك من يرعاه بالطبع، أجهزة القمع والإرهاب، بالتالي تشكلت طبقة متناغمة مع هذه العقلية، وقد حصلت هوة سحيقة بين المجتمع والدولة ، وهكذا أصبح لدينا في البلاد شعب مدلل وآخر مهان، اتحدث عن واقع عاشه كل السوريين .

نحن الآن في واقع حرب ، كما أعرف وبشكل دقيق ، انه في مثل هكذا احوال ، حيث الحروب والاقتتال المفتوح ، يتم ارسال قوات متعددة الجنسيات وتنشئ نقاط مراقبة ، تتشكل هذه القوات من دول غير مشاركة في الحرب القائمة . فلماذا اذن يتم تعطيل دور قوات الطوارئ الدوليَّة ويرسلون جيوش دول هي بالأساس مشاركة في الحرب ؟

كما ألاحظ تم تعطيل دور الأمم المتحدة ، ثم ان الجيوش التي داخل سوريا (روسية ، تركية ، أمريكية، ما يتفرع عنها من مجموعات وأفراد - ينتمون الى عصبيات سياسية ودينية وقومية) تطرح نفسها بديلا عن مهام قوات الطوارئ الدولية ! أليس بذلك تدخل في شؤون الأمم المتحدة ؟ بالتالي نحن أمام حلول مفخخة وتوقيتها في يد اللاعبين الدوليين. أن التدخلات الخارجية واضحة النوايا منذ البدء ،فقد حصلت هذه التدخلات قبل ان تتشكل مجموعات أو وحدات عسكرية من المعارضة السورية .

فهل عندما تشارك فرق الموت الايرانية ومليشياتها (حزب الله والحرس الثوري وعصائب الحق) وتمارس عبرهم القتل الطائفي المعلن ، يعتبر ذلك مشاركة في الحل ؟!

هل عند ارسال تعزيزات أمريكية إلى الشمال السوري، و تفتتح قواعد عسكرية، ثم تعمل على استثمار فئات كردية لتمارس عبرهم حربا من الاراضي السورية ضد بلد مجاور، هل يعتبر ذلك حلا ؟ هل عندما تتدخل روسيا بحريًّا وجويًّا و ترسل فرقاطة كاملة ، تنشىء قاعدة عسكرية في طرطوس ، ثم تقصف السوريين بهدف تعزيز دور النظام ورأسه الاجرامي ،هل يكون بذلك الحل المزعوم ؟ لا بل أيضًا تتلاعب بالمفاوضات وتشترط ان يكون الحوار من الأستانة وسوتشي ومخرجات لتهميش مقررات جنيف حول الحكم الانتقالي.

هل عند ارسال تعزيزات أمريكية إلى الشمال السوري، و تفتتح قواعد عسكرية، ثم تعمل على استثمار فئات كردية لتمارس عبرهم حربا من الاراضي السورية ضد بلد مجاور ، هل يعتبر ذلك حلًّا؟ وقبل ذلك كله ، في الوقت الذي تنعقد المؤتمرات الدولية ، بدلا من محاسبة المجرمين ، نلاحظ بأنهم يعيدون تأهيلهم، ثم يتابع النظام السوري المتمثل برئيس ارهابي وسفاح، بقصفه الوحشي عبر طائرات تلقي البراميل المتفجرة والنابالم . أليس بذلك تقويض للحل ؟!

الحل كما اراه، خروج جميع القوات والمليشيات الأجنبية المتقاتلة فوق الأرض السورية ،ونشر قوات دوليَّة مُشتَرَكة لحفظ السلام. وتفعيل مقررات جنيف، بدلا من تدخل الدول منفردة كل واحدة بإدارة الحرب وتفخيخ السلم الموعود. فالأطراف المتقاتلة الآن تنشر الدمار، وغير معنية بالسلام . كذلك ضد مصلحتنا الوطنية، يجب التركيز على قضيتنا العادلة ،والدفع إلى إعلان الدولة المدنية الديمقراطية. ذلك لا يتم بدون محاسبة المجرمين وعلى رأسهم بشار أسد.

- **أعدت الحوار:** ريما العارم



من اليمين : فخرالدين فياض، عمران عزالدين و أنس ناصيف

رابطة الكتاب السوريين تعلن أسماء الفائزين بجائزتها للقصة

أعلنت اللجنة الإدارية لجائزة القصة القصيرة في رابطة الكتاب السوريين ولجنة التحكيم لجائزة القصة القصيرة عن نتائج التحكيم الخاصة بمسابقة القصة القصيرة:

فوز القاص والروائي السوري فخر الدين فياض بالجائزة الأولى لمجموعة ''امرأة النافذة'' وقيمتها 2000 دولار أمريكي.

فوز القاص السوري عمران عز الدين بالجائزة الثانية لمجموعة ''بين تفاحتين'' وقيمتها 1500 دولار أمريكي.

فوز القاص السوري أنس ناصيف بالجائزة الثالثة لمجموعة ''عندما كان هناك مكان للصراخ'' وقيمتها 1000 دولار أمريكي.

وتنوه لجنة التحكيم لجائزة القصة القصيرة بمجموعة ''سيجارة للألم سيجارة للحزن'' للقاص السوري حسان العوض ومجموعة ''الصوت القادم من الخلف'' لسامر اسماعيل اللتين كانتا من المجموعات المتنافسة على الجوائز، واستحقت مجموعات أخرى التنويه منها ''أسرار الغياب'' لزهرة أحمد..

وكان المكتب التنفيذي للرابطة قد شكل لجنة إدارية لجائزة القصة القصيرة برئاسة كل من الزملاء حسام الدين محمد وعضوية أحمد عمر وعادل بشتاوي ، وتولى الأخير استلام المجموعات والتأكد من موافاتها للشروط المعلنة وإعداد جدول نهائي بالمجموعات المقدمة.

أجرت اللجنة الإدارية لجائزة القصة القصيرة اتصالات عدة مع عدد من الكاتبات والكتاب لتولي مهمة التحكيم وأقرّت لجنة التحكيم برئاسة الروائي والكاتب السوري فواز حداد وعضوية كل من الروائية والكاتبة السورية ابتسام تريسي والقاص المصري شريف صالح.

سُلمت لجنة التحكيم نسخاً من المجموعات المقدمة للجائزة مغفلة من أسماء الكتاب والكاتبات وعددها 27 مجموعة لكاتبات وكتاب سوريين وعرب.

اتفقت لجنة التحكيم على اختيار الفائزين الثلاثة المثبتة أسماؤهم في مقدمة هذا البيان والتنويهات المشار إليها.

تتمنى لجنة التحكيم واللجنة الإدارية لجائزة القصة القصيرة على الكاتبات الزميلات والكتاب الزملاء الذين لم تسنح لهم فرصة الفوز في هذه المسابقة الاستمرار في جهدهم الإبداعي في مسيرة الكتابة



مجلة تعنى بشؤون الفكر والثقافة والإبداع تصدرها رابطة الكتاب السوريين

المراسلات: بإسم رئيس تحرير **مجلة أوراق** على العنوان التالي:

26 Middle Hill.

Englefield Green.

Surrey. TW20 0JQ. UK

هاتف: 00442087589223

- ***المجلة غير ممولة وتصدر بجهود كُتَّابها . ونرحب بأي مقترحات من اجل انتظام اصدارها***

The production and distribution of Now Culture